الدكتور مختار زواوي

سيميائيات

ترجمة النص القرآني

ابن النديم للنشر والتوزيع
دار الروافد الثقافية - ناشرون

سيميائيات

ترجمة النص القرآني

ابـن الـنـديـم لـلـنـشـر والـتـوزيـع دار الـروافـد الـثـقـافـيـة ـ نـاشـرون

سيميائيات
ترجمة النص القرآني

الدكتور مختار الزواوي

سيميائيات ترجمة النص القرآني
تأليف: الدكتور مختار الزواوي

الطبعة الأولى، 2014
عدد الصفحات: 199
القياس: 17 × 24
الترقيم الدولي ISBN: 978-9931-369-13-4

ابن النديم للنشر والتوزيع

الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل رقم 1، المحمدية
خلــوي: 03 76 20 661 213+

وهــران: 51 شارع بلعيد قويدر
ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد
تلفاكس: 88 97 35 41 213+
خلــوي: 03 76 20 661 213+
Email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون
هاتف خلوي: 204180 (96171)
ص. ب.: 113/6058
الحمـراء، بيروت–لبنان
Email: Rw.culture@yahoo.com

المحتويات

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن اهتمام السيميائيات بالترجمة جد حديث مقارنة بما أنجزته من بحوث وتطبيقات في مجال الشعر، والنثر، والمسرح، والرقص، والعمارة، وغيرها من الأنساق الدلالية، والممارسات اللسانية والاجتماعية والثقافية الأخرى، وما أُلف في سيميائيات الترجمة لا يرقى إلى ما أنتجته أدبيات السيميائيات وعلم الترجمة من أبحاث مستفيضة وتطبيقات متنوعة.

صحيح أن تنامي الاهتمام بالمعرفة السيميائية من قبل العاملين في حقل الترجمة أضحى مؤشرا عن مدى خصوبة التلاقي، وتجدد المعرفة والعلم بأكثر الممارسات اللسانية تداولا وانتشارنا في عصرنا، بيد إن الترجمة، وطرائق التواصل عموما، لم تعد تنحصر في الألسن البشرية، فقد أبدعت أنساقا سيميائية تواصلية مختلفة، كثيرا ما تمتزج علاماتها بالعلامات اللسانية لتعبر عن معاني يستحيل التعبير عنها لسانيا بالإيجاز والكلية اللذين يميزان الصورة والأيقونة مثلا، وما أضيف إليهما في العصر الحالي من حركة ضمن أفضية الإشهار والترويج، وغيرها من المساحات المخصصة للإعلانات التجارية وما شابهها، فيضيف إلى البعد اللساني للترجمة أبعادا أخرى يستحيل الإلمام بكل معالمها في بحث مستقل، بل تبقى دوما تتطلب بحوثا متفرقة متكاملة، وجهودا متضافرة متلازمة.

لذلك اقتصرنا في هذه الدراسة على منهج سيميائي بعينه، هو ذاك

الذي رسم أولى معالمه السيميائيُ، اللتوانيِ الأصل، مؤسسِ مدرسة باريس السيميائية، ألخيرداس جوليان غريماس .«A. J. Greimas» وهذا الميدان يكاد يقل البحث فيه اللهم إلا بعض المقالات وعدد نزير من المؤلفات المتخصصة. وأول هذه المقالات، في علمي، هي المداخلة التي ألقاها غريماس في ملتقى نانسي بفرنسا في غضون شهر أكتوبر من سنة 1977، وفيها قارب الترجمة، وترجمة التوراة تحديدا، مقاربة سيميائية. وعلى الرغم من مرور أكثر من ثلاثة عقود، ونشر بعض المقالات في هذا الباب، وترجمة كتاب أومبارتو إيكو «U. Eco» إلى الفرنسية، خلال سنة 2006، وهو مؤلف جامع لكثير من الإشكالات، وطرائق التحليل، والتصورات والمفاهيم، التي نشأت عن تلاقي حقلي السيميائيات وعلم الترجمة وممارساتها، فإن البحث في سيميائيات الترجمة لا يزال موضوعا بكرا، وميدان بحث خصب، ليس بالنظر إلى ما كتب فيه وحسب، بل أيضا بالنظر إلى ما يمهده هذا العلم الناشئ، المتعدد المعارف من سبل متفرقة توصل الباحث في الترجمة، وتناقل المعنى، وتلاقح الثقافات، وتبادل المعارف العلمية، واختلاط الأجناس الأدبية والأنماط الفكرية، إلى ملامسة آفاق جديدة وتكوين آراء متجددة.

ولما كان العمل الأكاديمي لا يحبذ فيه منزع التجريد، وانتهاج النقل والتكرير، وتقديم المعارف دون تمثل واستيعاب، طال تفكيرنا في اختيار المدونة التي يمكن أن يستند إليها ما نحن من هذا البحث ماضون فيه، ثم ما لبث أن استقر الرأي لدينا في النظر في النص القرآني، مسترشدين بعلوم القرآن الجمة، وكنا نرجو أن نتمكن - في هذا البحث - من التوفيق بين مطلبين أساسيين يرتبطان بطبيعة البحث السيميائي، أولهما تعدد مستوياته وثانيهما تفرعه إلى فروع ثلاث، فقد جرت العادة أن يوزع البحث السيميائي إلى مراتب ثلاثة هي: السيميائيات العامة، والسيميائيات الخاصة والسيميائيات التطبيقية، وأن يتفرع هذا البحث إلى فروع ثلاث هي: التركيبيات، والدلاليات والتداوليات. ولم يكن همنا استقصاء كل البحوث السيميائية التي عنيت بالترجمة بقدر ما كنا نسعى إلى تقديم نظرة عامة عن مدى اتساع رقعة الاشتغال السيميائي بالترجمة، وقد بدا لنا أول الأمر أن

توزيع البحث إلى ثلاثة أبواب يتضمن كل باب منها أحد مراتب البحث السيميائية حلا موفقا، لكن سرعان ما أدركنا أن ذلك سيوقعنا في التكرار لا محالة، لاسيما إذا ما أفردنا للسيميائيات التطبيقية بابا خاصا، فقد تبين لنا منذ خطواتنا الأولى للبحث أنها سترافقنا في معظم الفصول الأخرى، إيمانا منا بضرورة تجنب البحث المجرد ويقينا أن تقديم الأدوات الإجرائية والمفاهيم المنهجية دون أن توضع موضع الاستخدام والإجراء سيخل بالبحث ويسلبه الغاية التي كان يرومها، ألا وهي مقاربة ترجمة النص القرآني مقاربة سيميائية، فاكتفينا بتوزيع البحث إلى ستة فصول.

فرحنا نستطلع، في الفصل الأول، طبيعة انتقال الاهتمام بالترجمة من علم اللسانيات إلى السيميائيات ومعالم هذا الانتقال، فعرضنا فيه تصورات بعض اللسانيين للترجمة، لننتقل إلى التعرف على تصور السيميائيات للترجمة، ونظرنا - تحديدا - في الترجمة من وجهة نظر غريماس. ولا ننكر أن التصور الذي استقيناه عن غريماس للحديث عن سيميائيات للترجمة كان هو السبيل الذي سلكنا في عموم هذا البحث، بيد إن طبيعة المدونة، ونعني بها النص القرآني، كانت تذكرنا في كل لحظاته بخصوصية هذا النص المقدس، وبضرورة أن ننهل من العلوم والمعارف التي تراكمت في شأنه ومن شأنه ما يعبر عنه أحسن تعبير ولا يتناقض مع المفاهيم السيميائية التي أعملنا في هذا العمل.

وكان من الضروري أن نخلص من هذا التصور إلى التعريف، في الفصل الذي يلي، ببعض المفاهيم الإجرائية التي أضحت متداولة لدى نقاد الترجمة ومعلميها، وهي آليات عادة ما يستعان بها في التحليل للموازنة بين النصين. فعرضنا أولا إلى أصول السيميائيات اللسانية والفلسفية ثم إلى بعض آليات التحليل السيميائي، ورحنا تبعا لذلك نقارب سورة القمر مقاربة تستلهم من هذه المفاهيم الإجرائية لاستكشاف كيفية تمفصل الدلالة فيها.

وبعد التعرف في الفصلين السابقين على المنهج السيميائي المتوخى ونظرته لمسألة الترجمة شرعنا في الفصل الثالث نستلهم من أمبرتو إيكو معالم قراءة سيميائية، استلهمها هو الآخر عن أعمال غريماس، غايتها

توجيه الفعل الترجمي، تستند إلى معارف موسوعية ولسانية، ولم يكن عملنا في هذا الفصل نظريا خالصا، بل عمدنا مرة أخرى إلى السورة نفسها، سورة القمر لنضيف إلى تحليلنا السيميائي السابق لها معالم سيميائية أخرى غايتها استكشاف تنظيم النص وتحليله أجزائه والتمهيد إلى عملية الترجمة.

وعدنا في الفصل الرابع إلى سورة القمر لنقف عند دور التفسير اللغوي في توجيه الفعل الترجمي، لننتقل إلى الفصل الخامس والأخير إلى طرح بعض القضايا الناشئة عن سيميائيات الترجمة، فبحثنا في علاقة السيميائيات العامة بالترجمة، وعالجنا بعض القضايا السيميائية ومفاهيمها المستقدمة إلى علم الترجمة، من مثل العلامة والنص وأبعادهما التركيبية، والدلالية والتداولية، واستقلالهما عن الواقع والفكر. ثم تطرقنا إلى بعض المفاهيم السيميائية المرتبطة بترجمة النص القرآني من مثل مفهوم الانغلاق الذي حددنا دلالته انطلاقا مما توفره علومه من معارف، أو مسألة التناص الداخلي للنص القرآني وغيرها من المسائل التي من شأنها أن ترسم معالم سيميائيات لترجمة النص القرآني.

أما الفصل الأخير فقد تناولنا فيه قضية ترجمة القرآن الكريم من حيث الإمكان من عدمه، ولم نخف فيه اعتقادنا الراسخ باستحالة ترجمة القرآن، ولم نكتف فيه بإيراد بعض آراء علمائنا الأجلاء بخصوص استحالة ترجمة القرآن وحسب، بل رحنا نبحث في طبيعة هذه الاستحالة بالتوجه إلى مستويات التحليل اللساني المعهودة، فنظرنا في الاستحالة الصوتية، ثم الاستحالة المفرداتية ثم الاستحالة التركيبية. وكنا في جميع مراتب الاستحالة نشير إلى علاقة عناصر هذه المستويات بالمستوى الدلالي، أي بالمعنى الذي هو موضوع الترجمة الرئيس. ووقفنا موقفا - عند التصريح به - قد يعد لدى البعض 'غير موضوعي'، بيد إننا لم نكن لننكر، أو نتجاهل، وجود ترجمات للقرآن لا حصر لها، سواء أكانت باللسان الفرنسي، وهي تتعدى المائة، أو بالألسن الأخرى، إيمانا منا بأن التعرف على هذه الترجمات، على إبداعاتها وإخفاقاتها، وعلى توجهاتها وأيديولوجياتها، وعلى أسيقتها الفلسفية واللغوية، من شأنه الإسهام في تطوير المعارف المرتبطة بمسألة ترجمة النص العربي والتنظير لها.

ولم نخف في خاتمة هذا العمل العقبات التي لم نتجاوزها بعد في بحثنا عن سيميائيات للنص القرآني وترجمته الذي لا يمكن أن يسعه بحث من هذا الحجم المتواضع في الكم والمعارف، إذ لم يكن بين أيدينا، عندما شرعنا فيه، من الأعمال التي قارب فيها غريماس الترجمة مقاربة سيميائية سوى المداخلة التي ألقاها في ملتقى نانسي بفرنسا في غضون شهر أكتوبر من سنة 1977، فقد كانت هي عمادنا في البحث ومرشدنا إلى استخلاص منظور السيميائيات إلى عملية الترجمة. صحيح أنه كان ألمح قبل ذلك في مطلع مؤلَّفه التنظيري الأول، ونعني به كتاب الدلاليات البنوية الذي طبع أول مرة سنة 1966، في أثناء حديثه عن الخصائص التي تتميز بها الألسن الطبيعية عن سائر الأنساق الدلالية الأخرى، إلى خاصية الترجمة، لكنها ليست سوى إشارة عابرة بالنظر إلى موضوع الكتاب الرامي إلى تأسيس نظرية دلالية شاملة.

وفضلا عن معوق الفقد هذا، لم يكن موضوع المداخلة، ونعني به مقاربة الترجمة مقاربة سيميائية، بقدر من الشمولية الذي يتيح لنا سحب ما اشتملت عليه من آراء ونظريات إلى النص الذي نروم تناول ترجمته تناولا سيميائيا، فقد خص غريماس التوراة بهذه المداخلة، ومن هاهنا منشأ المعوق الثاني، فالنص القرآني الذي نسعى إلى مقاربة ترجمته مقاربة سيميائية يختلف كل الاختلاف عن النص الذي مارس فيه غريماس أدواته واستقى منه نظراته. وقد ألمح غريماس نفسه -في هذه المداخلة- إلى هذا البون الفارق بين التوراة بوصفها نصا تاريخيا والقرآن بوصفه نصا مقدسا حقيقيا، وإلى إشكالية تحريم الكلمة الحقيقية. ولذلك وقفنا في الفصل الأخير من هذا البحث عند إشكالية تحريم ترجمة القرآن، فوضعناها في إطارها العام، أي من منظور استحالة الترجمة التي ليست حكرا على النص القرآني، بل هي ميزة مشتركة بين كثير من أنماء النصوص، وتناولناها كما مضى على حسب مستويات النص المعهودة حتى يعم مفهوم الاستحالة جوانب عديدة.

ولا شك أن من بين معوقات البحث الكئود التي واجهتنا ندرة ترجمات القرآن الفرنسية، إذ لم نتمكن - ونحن نعد لهذا البحث - من جمع

سوى ترجمات أربع، هي ترجمات بلاشير، ومونتي، وكزميرسكي، بن محمود. ولعل لهذه الندرة ما يبررها، إذ لا تدعو الحاجة، في المجتمع الجزائري، إلى انتشار مثل هذه الترجمات خارج إطار البحث العلمي. لكن هذا لم يقلل من حرصنا على اقتناء أكبر عدد ممكن من الترجمات، فقد تمكنا من اقتناء ترجمات ست أخرى، هي ترجمات صدوق مزيغ، صلاح الدين كشريد، بوبكر حمزة، حميدو الله، أوكتاف بال وأمحد تيجاني، وسانت إيتيان سفاري.

وللإعداد لفصول هذا البحث عدنا إلى علوم القرآن فلم نزل نتردد على مباحثها حتى وقفنا فيها على ما يسد الثغرات التي نشأت من تغييبنا بعض فقرات مداخلة غريماس. ومن قبيل هذا، منشأ تفرد النص القرآني، ومن أوجه تفرده انتهاجه سبيلا خاصا في الانغلاق. فلا ينظر إلى المنهج الذي توخينا على أنه مجرد إسقاط لنظرية على نص، بل رحنا نفهم أولا نظرات غريماس السيميائية في الترجمة، ومفاهيمها الإجرائية التي اعتمدها، مُستخلصة من منحاها التطبيقي في التوراة، ونبحث في علوم القرآن عما يماثلها من إجراء ويعبر عن النص القرآني أوثق تعبير. ولم يقتصر منهجنا هذا على فصل بعينه، بل أثبتناه في كافة عملنا .

والله الموفق، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد وسلم تسليما كثيرا.

سيدي لحسن
25 ماي 2012

الفصل الأول

من علم الترجمة إلى سيميائيات الترجمة

في علم الترجمة ونظرياتها

من الواضح أن الحاجة إلى الترجمة مازالت تزداد من عصر إلى عصر إلى درجة أن الإنسان، نتيجة قصوره في نقل كل ما ينتجه الفكر، من علم وأدب، مافتئ يولي، منذ الحرب العالمية الثانية، الدراسات حول الترجمة الآلية رعاية خاصة، كي تبتكر له آلة تترجم له وتخلصه من هذا العناء الثقيل؛ فقد تسارعت الاستكشافات، وتكثّفت العلاقات الدولية في جميع الأصعدة، وكثرت النزاعات والتحالفات بين الأمم، وصارت معرفة الآخر بتعلم لسانه أو ترجمة ما ينتجه فكره من أولويات الانتماء إلى العالم، وأضحت الترجمة محركا أساسيا للنشاط الحضاري والتفاعل الثقافي، وغدت باعثا على نشأة العلوم وتطورها. ولما كان بقاء الأمم مرهون بتطوير ألسنتها حتى تستوعب ثقافات الغير وتعبر بها عن معتقداته الدينية، وفلسفته، وعلمه وفنه، وكل ما أنتجته قريحته وأبدع في وصفه لسانُه، فإن الترجمة هي أَوْلى ما يُرجى منه الإسهام في تحقيق هذا البقاء.

لكن الأمر ليس باليسير، فطرائق التواصل البشري لم تعد تقتصر على الألسن البشرية التي لم تعد تفي بكل متطلبات العولمة التي ما فتأت تجمع بين أفراد وجماعات من جنسيات وثقافات مختلفة، أبدعت أنساقا سيميائية تواصلية كثيرا ما تمتزج علاماتها بالعلامات اللسانية لتعبر عن معاني يستحيل التعبير عنها لسانيا بالإيجاز والكلية اللذين يميزان الصورة والأيقونة، وما أضيف إليهما في العصر الحالي من حركة ضمن أفضية الإشهار والترويج، وغيرها من المساحات المخصصة للإعلانات التجارية وما شابهها. كما إن

انتشار وسائل التواصل الرقمية التي أزالت حدود المكان والزمان حقّق، بفضل ابتكار برامج الترجمة الآلية وبرامج رقمية أخرى تستخدم الأيقونة في اختزان أحاسيس البشر وانفعالاتهم والتعبير عنها، ما لم يكن مستصاغا تصوره قبل سنوات خلت: أن يتخاطب الأفراد عن بُعد بألسن مختلفة ولِفترات زمنية غير محدودة ولا منقطعة، إلى درجة أن الفرد قد لا يبرح مكانه وقد جال أنحاء العالم، وتواصل مع أفراد من مختلف البلدان تواصلا مباشرا أو غير مباشر، فأصبحت الترجمة تجربة يومية، متنوعة ومتجددة على الدوام، وثيقة الصلة بالتدلال «signifiance» وإنتاج العلامات، بل إنها جاوزت هذا القدر من الحضور لتغدو فعلا سيميائيا بامتياز، يتجاوز الفعل اللساني ويشمله.

ولما كان دور الترجمة بهذا القدر من الخطورة لم تخل أمة من الدعوة إلى تعليمها والحرص عليه، حتى تضع في متناول المترجمين الناشئين الطرائق المثلى الواجب إتباعها للتمكن من إنجاز ترجمة دقيقة ووفية للنص الأصلي. وكانت هذه الطرائق الملقنة - قديما - خلاصة تجارب وممارسات ترجمية لأهم الآثار الفنية الإنسانية، وغالبا ما كانت الآراء النظرية المنبثقة عنها تستند إلى الحدس والذوق العام، ولا تنبع من تصور عام وشمولي لطبيعة الترجمة وكيفية اشتغالها، إنما ظل الفعل الترجمي - حتى مطلع القرن العشرين - يستمد مقوماته مما تركه محترفو الترجمة من آراء وتعليمات للوصول إلى أكبر قدر من الوفاء في نقل النصوص، دون النظر إلى طبيعة هذه النصوص وخصائصها اللسانية التي تميزها فيما بينها. ذلك أن المعرفة اللسانية لم تكن حينئذ قد استوت على أسس علمية موضوعية تحلل بها الوقائع اللسانية تحليلا علميا ينأى عن النظر في طبيعة الألسن في علاقاتها التي تقيمها مع العالم الخارجي الذي تحيل إليه أو الفكر الذي تعمل على تمثيله. بيد أننا لا نكاد نعثر في كتابات اللسانيين الأوائل مثل دو سوسير[1]

(1) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, éd. T. de Mauro, Paris, Payot-Rivages, 1995 (1916).

«F. de Saussure»، وبلومفيلد[2] «L. Bloomfield»، وسابير[3] «E. Sapir» ويسبرسن[4] «O. Jespersen» وغيرهم إلا على إشارات هامشية لا ترتبط بالترجمة ارتباطا مباشرا.

إن البحث في الترجمة، شأنه في ذلك شأن جميع البحوث التي تصبو إلى العلمية، لا يمكنه الارتقاء إلى مصاف العلوم ما لم يحدد موضوعه والمادة التي يشتغل عليها تحديدا دقيقا ويميزهما تمييزا صريحا، ويصوغ نسقا من المفاهيم المتجانسة وجهازا من المصطلحات المتناسقة يكونان كفلين بوصف المادة وتحليلها، واستخلاص الخصائص التي تميز بها موضوعها. وإن العمل في هذا السبيل، قصد تأسيس علم للترجمة («traductologie»، «*translating studies*») قائم بذاته، لا يزال يراوح مكانه على الرغم من قدم ممارسة الترجمة، وتَوَفُر العاملين فيها على مادة من الأفكار والآراء الدينية، والفلسفية، والأدبية، والمنهجية، والنظرية. وقد بات من الضروري التفكير في إعداد منهجية قصد التأريخ لهذه الأفكار والآراء وفق قواعد علمية، وعدم الاكتفاء بوصف عام لأهم الحقب التي توالت في إنتاجها، فالتاريخ يمثل بالنسبة لأي نظرية مخزونها الذي ترتوي منه لكي تتجدد، بإعادة استكشاف ما خلصت إليه في الماضي ومقارنته بما آلت إليه في الحاضر.

لذلك، لا يمكن فهم الأسس التي قامت عليها نظريات الترجمة، والإلمام بأهم العوامل والظروف التي أسهمت في نشأتها وتطورها، ما لم توضع ضمن سياقها التاريخي الذي تبلورت فيه، وربطها بتاريخ الألسن والثقافات والآداب والأديان والأمم. وتكمن أهمية هذا التاريخ في إيضاح طبيعة ارتباط ممارسة الترجمة، في كل حقبة، بالممارسات الأدبية،

---

(2) L. Bloomfield, Introduction to the Study of Language, New York, Holt, 1914.

(3) E. Sapir, Language. Introduction to the Study of Speech, USA, Harcourt Inc., 1921. (Le langage. Introduction à l'étude de la parole, tr. par S. M. Guillemin, Paris, Payot, 2001).

(4) O. Jespersen, Language, its Nature, Development and Origin, London, Allen and Unwin, 1922.

واللسانية، ومختلف المبادلات الثقافية واللسانية بين الأمم، فقد أشار مونان[5] «G. Mounin» - مثلا - إلى اعتقاد القدامى، منذ سيشرون «Cicéron»، إلى لوكنت دو لسل «Leconte de Lisle»، بأن الصعوبات التي عادة ما تعترض المترجم إنما ترتبط أساسا بمستوى التعبير، فهم واثقون في قدرتهم على فهم المعنى، والتعبير عنه في نصوص أخرى؛ كأنه معطى مباشر يسهل استخراجه كما يستخرج العصير من الليمون. ولا يمكن تبرير هذا التصور وفهمه ما لم يُعلم أنه قائم على فرضية وحدة التجربة الإنسانية، وتطابق العقل البشري، وشمولية أشكال المعرفة.

وما من شك في أن هذا التصور لا يقدر الترجمة حق قدرها، ولا يحيط بكل جوانبها ويقتفي آثار اختلاف أشكالها؛ فقد خلصت اللسانيات الحديثة إلى أن المشاكل التي تعترض المترجم لا تنحصر في مستوى التعبير وأشكال صياغة المعنى، بل إن منشئها مرده أيضا إلى اختلاف الثقافات والحضارات، ورؤيا العالم، إلى درجة القول باستحالة الترجمة، والطعن في فرضية شمولية الفكر ووحدة التجربة الإنسانية، وهي فرضية لا يمكن فهمها هي الأخرى إذا ما تم انتشالها من سياقها الفكري الذي تبلورت فيه، وتجاهل مراحل تطورها ونضجها، فقد ارتبطت في مراحلها الأولى بشك هومبلد «W. von Humboldt» في قدرة المتكلم على التعبير عن كل ما يروم تبليغه، وفي قدرة المتلقي على تحصيل كل ما حاول المتكلم تبليغه إياه، وتبلورت في مجال البحث اللساني في فرضية سابير وورف «Sapir-Whorf»، وفي النقد الأدبي في بحوث موريس بلانشو[6] «M. Blanchot».

لقد ظلت أكثر الدراسات حول الترجمة - إذن - حتى أواخر خمسينيات القرن الماضي، حبيسة آراء مستخلصة من تجارب فردية قوامها الحدس والذوق العام، لا تشتمل البتة على تصور عام وشمولي لطبيعة الترجمة وكيفية اشتغالها، وظل الفعل الترجمي يستمد مقوماته مما تركه

(5) G. Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction, Paris, Gallimard, 1963, p. 169.

(6) M. Blanchot, Faux-pas, Paris, N. R. F., 1943, pp. 21 et 30.

المترجمون من تعليمات للوصول إلى أكبر قدر من الوفاء في نقل النصوص، دون النظر إلى طبيعة هذه النصوص وخصائصها اللسانية التي تميزها فيما بينها. ذلك أن المعرفة اللسانية لم تكن حينئذ قد أعملت - كما أشرنا - نزعتها العلمية الموضوعية الكفيلة بتحليل الوقائع اللسانية تحليلا علميا. وما إن بدأت معالم الدرس اللساني تتضح، وتُأتي تطبيقاتُها ثمارَها في مجال تعليم الألسن، ومقابلة أنساقها وقياس مدى ائتلافها واختلافها، حتى أدرك البحث الحديث أن الترجمة شأن لساني بالدرجة الأولى، من حقها أن تُدرج في قائمة الموضوعات التي تعنى بها اللسانيات، وفرعها التطبيقي على وجه الخصوص، فكان مؤَلَف فيني وداربلني[7] «J.-P. Vivay et J. Darbelnet» "الأسلوبية المقارنة للفرنسية والإنجليزية" أول كتاب ينتهج المنهج اللساني في معالجة قضايا الترجمة، ويقترح مجموعة من القواعد والأساليب، اعتبرت آنذاك أول طريقة في الترجمة تتوخى المنهج العلمي.

صحيح أن فلسفة اللغة كانت السباقة في تأمل نشاط الترجمة والنظر في إشكالية تحققها من عدمه، فقد ذكر مونان[8] أن الفيلسوف الأمريكي مارشال أوربان[9] «W. M. Urban» يعد أول باحث تناول الترجمة وفق متطلبات علم اللغة الحديث، وأن توجهه الفلسفي اللغوي لم يمنعه من الاستفادة من البحث اللساني والاسترشاد بآراء لسانيي عصره من مثل قردينر «Gardiner»، ويسبرسن «O. Jespersen»، وفوسلر «K. Vossler»، وسابير «E. Sapir»، ومالينوفسكي .«B. Malinowski» وإن كان أوربان أول من أثار مسألة إمكانية الترجمة أو استحالتها الكاملة أو الجزئية، فذلك لأن الظروف السياسية، وآثار الحرب العالمية الثانية، وجهت الأنظار في الولايات المتحدة نحو ضرورة تعليم الألسن الأجنبية وابتكار طرائق علمية لتعليم الترجمة، فأنشأت مدارس تعليم الترجمة والترجمة الفورية «interprétariat»، وتأسست

(7) J.-P. Vinay et J. Darbelnet, Stylistique comparée du français et de l'anglais, Paris, Didier, 1958.

(8) G. Mounin, Linguistique et traduction, «Les théories actuelles de la traduction», Bruxelles, Dessart et Mardaga, 1976.

(9) W. M. Urban, Language and Though, 1939.

الجمعيات الوطنية والدولية لغرض وصف أنواع الترجمة وتصنيفها[10]، وكان لكل من فدوروف[11] «A. Fedorov»، وكاري «E. Carey»[12]، في هذه المرحلة، إسهام في التنبيه إلى خصوصية كل نوع من أنواع الترجمة من مثل الترجمة الدبلوماسية، والقانونية، والإدارية، والعلمية، والتقنية، والصحفية، والأدبية، والشعرية، والمسرحية، والدينية، والسينمائية، وأدب الطفل وغيرها من أنواع الترجمة. ولعل أول عمل حاول صاحبه حوصلة الوقائع اللسانية المرتبطة بعملية الترجمة كان مؤلف كاتفورد[13] «J. Catford».

وفي هذا السياق، قد نفهم لماذا ذهب بعض اللسانيين إلى الإقرار باستحالة الترجمة، من مثل همبولد «W. von Humboldt» الذي تبدو له الترجمة كعملية بعيدة المنال، أو شليغل «Friedrich von Schlegel» الذي يشبهها بالقتال الذي يردي أحد الخصمين قتيلا؛ النص أو مترجمه. ولا ريب أن الدعوة إلى هذه الاستحالة تجد بعض سندها فيما خلص إليه كثير من اللسانيين المعاصرين من مثل دو سوسير، وهاريس ويمسليف وهو بارز في النقود التي وجهوها إلى تصور الألسن مدونة من المفردات. كما إن الإعلان عن استحالة القبض على المدلولات كما روج إليها بلومفيلد[14] حين يقول: إن معرفتنا بالعالم الذي نحيا فيه لهي ضئيلة إلى درجة أننا كثيرا ما نبقى عاجزين عن تحديد معنى الملفوظات تحديدا دقيقا[15]، يعد من بين الدعاوى التي أسهمت في إثارة الشك في القدرة على الترجمة .

كان من الطبيعي أن تتخذ اللسانيات التقابلية «linguistique contrastive»، قبل غيرها من علوم اللغة الأخرى، الترجمة موضوعا من

(10) I. Oseki-Dépré, Théories et pratiques de la traduction littéraire, Paris, A. Colin, 1999, p. 58.

(11) A. Fedorov, Introduction à la théorie de la traduction, 1945.

(12) E. Cary, La traduction dans le monde moderne, 1956.

(13) J. Catford, A Linguistic Theory of Translation, An Essay in Applied Linguistics, 2 ed., 1967.

(14) L. Bloomfield, Language, New Work, Holt, 1933, p. 74.

(15) D. G. Gauvin et D. Slote, «Aspects pédagogiques de la traduction littéraire», *Meta*, XXXIII, 2, 1988, pp. 183-184.

مواضيع دراستها، ولا تزال الدراسات الحالية تشهد تعاونا علميا بين هذين الحقلين العلميين، فكثيرا ما يستعين الباحثون في مجال اللسانيات المقارنة بترجمة النصوص قصد استخلاص ما بين الأنساق اللسانية من ائتلاف أو اختلاف، كما هو صنيع بلومنتال «P. Blumenthal» – مثلا – في دراسته المقارنة بين اللسانين الألماني والفرنسي، التي خلص فيها إلى استكشاف ما بينهما من اطرادات «régularités»، بمقارنة عدد من النصوص وترجماتها من اللسانين[16]. ولا يمكن للباحثين في مجال الترجمة الاستغناء عن اللسانيات المقارنة لا سميا ما يتعلق بتعليم الترجمة وأساليبها، وذلك على الرغم من التباين الواضح بينهما، إذ بينما تسعى اللسانيات المقارنة إلى تفسير بعض الوقائع اللسانية عن طريق المقارنة، لا يعنى علم الترجمة إلا بالنشاط الترجمي.

ولعل الانتقادات التي وجهها علماء الترجمة إلى اللسانيات المقارنة ما يفسر هذا الاختلاف، فمعظم المؤلفات التي ألفت فيها إنما تعنى – في رأي برنيي[17] «M. Pernier» – بالتكافؤ الوظيفي بين شكل لسانين ما، ونادرا ما تقف عند ما تميز الترجمة في ذاتها، أو تحديد طبيعة العملية الترجمية، إنما تسعى فقط إلى تيسيرها، فالبحث إنما يشمل النحو، والمعجم، وأسلوبية اللسانيين، والبحث عن أنجع الوصفات التي من شأنها أن تسهم في إيجاد الأشكال المتكافئة في كلا اللسانيين، دون أن تحدد المنطلق النظري الذي تستند إليه. ولعل التصور الذي عبر عنه فيني وداربلني[18] بقولهما أن الانتقال من لسان إلى آخر للتعبير عن الواقع ذاته، أي الترجمة، ينتمي إلى مادة علمية بعينها، ذات طبيعة مقارنة، هدفها تفسير آليتها وتسهيل استخدامها عن طريق إيضاح القوانين التي تصلح لكلا اللسانين، ما يعبر تعبيرا واضحا عن عدم العناية بأصل الترجمة وطبيعتها الكونية.

---

(16) J. D. Gallagher, *Linguistique contrastive et traductologie* in M. Ballard et A. El Kaladi, Traductologie, linguistique et traduction, Artois, Artois Presses Université, 2003, p. 58.

(17) M. Pernier, Les fondements sociolinguistiques de la traduction, Lille, P. U. L., 1993, p. 23.

(18) Vivay & Darbelnet, Stylistique comparée du français et de l'anglais, p.20.

وواضح إذن عزوف علماء الترجمة «traductologues» عن لسانيات لا تعنى من قضايا الترجمة إلا بنتاج العملية الترجمية، ونفورهم من دراسة ما تشترك فيه الأنساق اللسانية وما تختلف فيه، والبحث، إلى درجة أن بعضهم، دنيكا سليسكوفتش «D. Seleskovitch» وأبتاعها مثلا، خلصوا إلى رد اللسانيات جملة وتفصيلا بحجة أنها تدرس اللسان خارج أطر التواصل(19). لكن الآفاق التي فتحتها اللسانيات بعد انفتاحها على البعد التواصلي للألسن، وما خلصت إليه لسانيات النص والتداوليات قللت من شأن هذه الدعوى. صحيح أن اللسانيات العامة لم تعد المجال الأوحد الذي يمكن للترجمة أن تبلور ضمنه نظرية تستكشف بها آليات اشتغالها وتكتسب بها الشمولية في مقاربة ترجمة مختلف النصوص، بيد إن الغلو في إنكار ما يمكن للسانيات أن تسهم به - حتى وإن كانت الدعوة إلى ضرورة استقلال علم الترجمة عنها لها ما يبررها - لا يمكن أن يحجب حقيقة أن الترجمة، وإن تعدّت حدود اللغة، وانصرفت إلى التعبير عن التجربة الإنسانية ذاتها بأنساق سيميائية متعددة، فإن اللغة تبقى - بالنسبة لها - أهم وسائل التعبير والتواصل الإنساني وأيسرها، وتبقى اللسانيات على مدى تطور مراحل نموها، أرقى السيميائيات الخاصة وأوثقها اتصالا بعلم الترجمة.

ونحن إذ نعيد الحديث عن ارتباط الترجمة باللسانيات، سواء اللسانيات العامة أو اللسانيات الخاصة التي لا تعنى إلا بدراسة نسق لساني بذاته، إنما نعيد التوكيد، على إثر كثير من الباحثين المعاصرين، استحالة استغناء الترجمة عن البحوث اللسانية على اختلاف مستوياتها، فالنحو للمعنى كالجسد للروح، ولا يمكن إدراك المعنى إلا من خلال الجملة أو مجموع الجمل التي يتألف منها الكلام، وطبيعة المواقع التي تقع الكلمات فيها وما يتطابق مع خصائص اللسان التركيبية. ويستند هذا التوجه الفاصل بين مستويات التحليل اللساني إلى الدعوة إلى أن الترجمة - التي عادة ما عولجت بطرائق تنتهج المنهج الشمولي - ليست موضوعا بسيطا ولا يمكن

(19) D. Gile, La traduction. Le comprendre, l'apprendre, Paris, P. U. F., 2005, p. 246.

لها أن تكون موضوع بحث علم مستقل، وأن نظرية اللغة عليها أن تشحذ مفاهيمها وتفصل بين مستويات تحليلها إذا ما أرادت أن تستكشف ما خفي من عملية الترجمة وتقييم ما تنتجه من نصوص[20]. ولو جاز لنا هذا الفصل منهجيا، فإن واقع الأمور لا يجيزه، لأن المعنى تشترك في إنتاجه وإدراكه كل أبعاده؛ التركيبية، والدلالية والتداولية، ولا يمكن فصل هذه عن تلك بأي حال من الأحوال إلا جزافا، وهذا هو المستقر عليه، وما تقره علوم اللغة وتطمئن إليه.

ولا يجب أن نجاوز هذه المرحلة دون أن نشير إلى أن البحث الذي خص به ياكبسون[21] «R. Jakobson» الترجمة، أثار انتباه الباحثين المعاصرين إلى أنواع أخرى من الترجمات، جديرة هي الأخرى بالدراسة والوصف، فأضاف بعدا جديدا من أبعاد الترجمة كان خفيا لكنه ماانفك في العصر الحالي يسترعي دهشة الرائي، ويستدعي عمل الدارس، وهو البعد الذي حاولنا الإشارة إليه في مطلع هذا المدخل، فقد أشار ياكبسون إلى أن الترجمة اللسانية ليست النوع الوحيد المتداول، بل إن الترجمة ما بين الأنساق السيميائية «intersémiotique» هي الأخرى لا تكاد تغيب عن ممارسات الأفراد التواصلية. ونكتفي بالإشارة هاهنا إلى أن هذا البحث الذي خص به ياكبسون الترجمة يعد من بين النصوص التي ما فتئ يستند إليها الباحثون المعاصرون في مقاربة سيميائيات الترجمة من منطلق عدم استغناء هذه عن تلك .

إن ما أنتجته أدبيات الترجمة من تعريفات ينبئ عن مدى انتشار ممارسة الترجمة لتلامس مختلف الأنساق السيميائية التي اعتاد الإنسان على مزاولتها والإبداع فيها؛ فترجمة المسارح الأجنبية - مثلا - حتى وإن كانت لغاية الترفيه والتثقيف، لا يمكن لها أن تنحصر في نقل النصوص التي ألفت بها

---

(20) M. Pergnier, Traduction et sociolinguistique, Langage, v. 7, nº 28, 1972, p.70-71.

(21) R. Jakobson, «Aspects linguistiques de la traduction», Essais de linguistique générale, tr. N. Ruwet, Paris, Minuit, 1963, pp. 78-86.

المسرحيات، بل إن الترجمة لا بد لها أن تتعدى مستوى النص إذا ما أرادت محاكاة هذا الفن واقتباسه(22)، إلى درجة أنها قد تغدو إبداعا ثانيا وكتابة جديدة، كما هو شأن النصوص الأدبية، التي لم تعد ترجمتها هي الأخرى حكرا على الألسن، بل أضحت الروايات في العصر الحالي تُحول إلى صور متحركة «bandes dessinées»، فمفهوم الترجمة لا يزال مثار خلاف وينطوي - كما أشار لادميرال(23) «J.-R. Ladmiral» - على مدلولات عديدة، إلى درجة الحيرة والتساؤل عما إذا كان الأمر يتعلق بالموضوع ذاته؛ ذلك أن استعمال المصطلح قد يكون من باب الاستعارة من مثل القول أن الإنسان يترجم عن مشاعره، أو يستوحي من هذه اللوحة معنى ليعبر عنه شعرا، وقد يراد به التكافؤ التجريدي «équivalence abstraite» بين مفردات الألسن المختلفة، كما هو الشأن لدى يمسليف(24) «L. Hjelmslev» في محاولته التمييز بين مادتي التعبير والمحتوى وشكلهما.

وإذا كانت الترجمة حركية لغوية ترتوي من الانزياح، والمسافة، والغياب، والفقد، فجلي أن نوع الحاجة إلى الترجمة، وطبيعة الممارسات الاجتماعية والأنشطة العلمية والفنية والثقافية، وتنوع مجالات المعرفة التي اشتركت في مدارسة المسائل المرتبطة بالترجمة من مثل اللسانيات، والسيميائيات، والأدب المقارن، والتحليل النفسي، والأنثروبولوجيا، والفلسفة وغيرها من العلوم الإنسانية، هو الذي أسهم في تعدد التصورات وتنوع التعريفات؛ فالترجمة -في نظر نيدا(25) «E. Nida» - هي اختيار المكافئ الأقرب والأيسر للمرسلة «message»، وذلك بمراعاة ما يتعلق بالمعنى أولا، ثم ما يتعلق بالأسلوب ثانيا، بينما هي عند مونان(26) نوع من

(22) J. Koustas, Traduire ou ne pas traduire le théâtre? L'approche sémiotique, pp. 127-138.

(23) J.-R. Ladmiral, «Traduire, c'est-à-dire... Phénoménologies d'un concept pluriel», Meta, vol. 40, nº 3, 1995, p. 409.

(24) L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, Tr par U. Canger et A. Wewer, Paris, Les éditions de Minuit, 1984, p.70.

(25) E. A. Nida et C. R. Taber, La traduction: théorie et méthode, Londres, Alliance Biblique univ., 1971, p. 11.

(26) G. Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction, pp. 3-9.

التداخل اللساني «contact de langues»، الذي يمكن وصفه بمفهوم الازدواجية اللسانية «bilinguisme» الذي بسط البحث فيه كل من فاينريش «U. Weinreich» ومارتني «A. Martinet». وحوّل ميشونيك[27] «H. Meschonnic» دراسة الترجمة من إطارها اللساني المحض إلى إطار ثقافي أوسع يشمل التاريخ، والأدب، واللغة والسياسة، وسنوات من بعده أبرز برمان[28] «A. Berman» دور الحركات الثقافية في بلورة مفهوم خاص للترجمة، من خلال دراسته للثقافة والترجمة لدى الرومانسيين الألمان. ولا تزال المسائل الثقافية المرتبطة بالترجمة موضوع بحث متجدد[29]. وقد اقترح فغليونت[30] «J.-C. Vegliante» وصف العملية الترجمة على النحو الآتي: من العلامة ع$_1$، (التي تنتمي إلى سنن ل$_1$، من المفترض أنه معلوم) يتم استخلاص المعنى م، ويكفي نقله إلى سنن ل$_2$ عن طريق علامة أو مجموعة من العلامات ع$_2$، لمعنى مكافئ (أو على أقل تقدير قريب منه، نظرا للاعتبارات التاريخية، والاجتماعية، والإثنية والثقافية، وغيرها، والتي هي على الرغم من ذلك في طور الزوال).

وتصب في السعي إلى تعريف الترجمة محاولات تصنيف أنواعها، وهي ليست وليدة العصر الحديث، وقد كان تصنيف أنواع الترجمة قديما تارة منهجيا «méthodologique» وتارة تيميا «thématique»؛ أما التصنيف التيمي فيميز مثلا بين الترجمة الأدبية والترجمة العلمية، أو بين الترجمة الدينية والترجمة غير الدينية «profane»، وساد هذا التقسيم الذي انتهجه سان جيروم «saint Jérôme» كافة القرون الوسطى واستمر حتى نهاية النهضة الأوروبية، وأما التصنيف المنهجي فهو يعنى أساسا بالطريقة المنتهجة في الترجمة، على نحو ما يفعله دو لوين «Fray Luis de Léon»، أو فيفز «Vives»، أو دريدن «Dryden»، ودام حتى نهاية النصف الثاني من القرن

(27) H. Meschonnic, Pour la poétique II, Paris, Gallimard, 1973.

(28) A. Berman, L'épreuve de l'étranger. Culture et traduction dans l'Allemagne romantique, Paris, Gallimard, 1984.

(29) J. L. Cordonnier, Aspects culturels de la traduction : quelques notions clés, Méta, vol. 47, nº1, 2002, pp. 38-50.

العشرين. أما في العصر الحديث، فقد أوجدت التحولات الاقتصادية، والسياسية، والثقافية التي شهدها القرن العشرون أنواعا جديدة من الترجمة كالترجمة الفورية «interprétariat»، والدبلجة، والترجمة الآلية، والترجمة السينمائية «sous-titrage»، واكتسحت الترجمة كل أنواع ميادين العلم الحديثة فاقتضى التخصص في الترجمة العلمية، والتقنية، والقانونية، والاقتصادية، والإدارية وغيرها من أنواع الترجمة التي تمس الحياة اليومية للفرد، ومع تطور نظريات الترجمة الذي رافق انتشار ممارستها، اختلفت المعايير التي استند إليها التصنيف؛ فمنها من يستند إلى طبيعة السنن «code»، ومنها من ينطلق من المنهجية المتبعة، ومنها من يقيمها على أساس من اختلاف بين أنواع النصوص.

ومهما يكن، فإن أغلب هذه التصانيف تستند إلى مبدأ الثنائية من قبيل تعريف الشيء بضده، كمقابلة الترجمة الإنسانية بالترجمة الآلية، والترجمة الوفية بالترجمة الحرة، والترجمة الأدبية بالترجمة التقنية أو التداولية، والترجمة التعليمية بالترجمة المهنية. وهو تقسيم متداول في الملتقيات الدولية وفي ثنايا المجلات والدوريات والمؤلفات، ويبدو أنه ناجم عن طبيعة العلاقة التي ترتضيها هذه النظرية أو تلك للعلامة ومرجعها[(31)]. وإذا ما نظرنا إلى بعض الممارسات النظرية لوجدناها تميز - مثلا - بين المنطوق والمكتوب كي تتميز عن الترجمة الفورية «interprétariat»، ثم تفصل بين ما هو أدبي عما هو غير أدبي؛ لتضع على قائمة الجنس الأدبي: الترجمة الأدبية وما تجمعه من شعر ونثر، والترجمة الفلسفية، وعلى قائمة الجنس غير الأدبي: ترجمة النصوص العلمية، والتقنية، وغيرها من النصوص المتخصصة الأخرى، التي أصبحت تسمى بالنصوص التداولية التي تكتفي بنقل المعلومة وتقل فيها مظاهر الأثر الفني[(32)].

---

(30) J. C. Vegliante, D'écrire la traduction, Paris, Presses de la Sorbonne Nouvelle, 1996, p. 41.

(31) A. Brisset, «Les théories de la traduction et le partage des champs discursifs: Fonctionnalisme et caractérisation du littéraire», Néohelicon, XXXI, 2, p. 263.

(32) J. Delisle, L'analyse de discours comme méthode de traduction, Initiation à la

وقد توطدت أركان هذا التقسيم الثنائي[33] حينما تبنت اللسانيات الحديثة الترجمة حقلا من حقول تحرياتها، وادعت إمكانية إخضاعها لتشريح علمي صارم كما نجدها ممارسة من قبل فيدوروف «Fedorov»، وفيني وداربلني، في الوقت الذي كان فيه بعض العاملين في حقلها لا يراوحون اعتقادهم بأنها لا تعْد أن تكون مجرد فن، لاسيما ما يتعلق بترجمة الأدب والشعر، وهي في غنى عن هذا العلم الجديد الذي لم يجدوا فيه سوى تجريدا صوريا بحتا، كما هو صنيع كاري «Cary» - مثلا. وقد احتد الجدل بين الفريقين، وأحسن مونان[34] وصفه وتحليله، وأوضح جليا أن الترجمة بولوجها درب الصرامة والعلمية إنما كانت تقدم نفسها كقضية إبستيمولوجية أيديولوجية.

صحيح أن تطور نظريات النص والخطاب التي بدأت تروج بداية السبعينيات، واتساع رقعة الممارسة الترجمية إلى عدد من الحقول المعرفية، أسهما في نقل الجدل المحتدم بين الفريقين من فضائه المعهود إلى فضاء آخر، لكنهما لم يفلحا في إزالته، أو التقليل من شأنه، بل ظل إتيمبل «René Etiemble»[35] يندد بالسطوة التي ما فتأت المصطلحات تمارسها على النص، كما لم يخف ستاينر «Steiner»[36] حيرته إزاء نقد سيميائي جديد

traduction française des textes pragmatiques anglais. Théorie et pratique, Ottawa, Editions de l'Université d'Ottawa, 1980, p. 22.

(33) ومن بين التصانيف الحديثة التي حاولت عدم الاستناد إلى هذا النوع من التقسيم الثنائي تصنيف كزغراند «Casagrande» الذي صنف منذ 1945 أنواع الترجمة وفق الأهداف التي ترومها، إذ ميز بين الترجمة التداولية، والترجمة الشعرية الجمالية والترجمة الإثنوغرافية، والترجمة اللسانية. أما الترجمة التداولية فإن همها نقل المعلومة بطريقة وظيفية كما هو الشأن بالنسبة لترجمة الوصفات «notice» - مثلا.

ينظر:

J. Redouane, La traductologie. Science et Philosophie de la Traduction, Alger, O. P. U., 1985, p. 76.

(34) G. Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction, Paris, Gallimard, 1963, pp. 13-15.

(35) René Etiemble, «Antigone et Babel. Peut-on traduire les autres?», Le monde des livres, 24 nov. 1978, p. 25.

(36) «Comment un mythe nous permet de survivre aux questions insolubles», Entretien avec Georges Steiner, Le monde des livres, *op. cit.*, p. 24.

ذي نزعة بنوية، ماركسية التوجه، ونقده اللاذع للتصور النظري الذي صاغه فليزيو «Valesio». ولا ريب - إذن - في أن هذا الجدل، الذي لا يراوح الانتصار للطابع الفني لعملية الترجمة أو لطابعها العلمي، يؤدي إلى طريق مسدود، لأنه ينبني على تقسيم إداري محدود، يخص فيه الجنس الأدبي برعاية خاصة.

ولئن سلمنا بضرورة هذا التقسيم الإداري أو المؤسساتي لحقل الترجمة فإن ذلك لا يعني بأن النظريات الترجمية تمكنت من صوغ نسق من المفاهيم المتجانسة وجهاز من المصطلحات المتناسقة ما يسهم في تأسيس علم للترجمة، وهو قصور ناجم عن ثراء، عن كثرة نظريات الترجمة وتنوع مصادرها؛ من تاريخية، ودينية، وفلسفية، ولسانية، وأدبية، إلى غيرها من المصادر الأخرى من مثل مصادر التحليل النفسي. ولذلك لا تزال الترجمة تفتقر إلى الأسس الإبستيمولوجية اللازمة، بل إن السؤال الذي ما فتئ يشغل الباحثين؛ ما الترجمة؟ لم يجد له إلى وقتنا هذا إجابة متوافقة، ونحن واقفون على عدد من التعريفات، ينحو كل واحد منها منحى مختلفا.

ولقد شهد القرن العشرين بروز عدد من الدراسات التي اتخذت الترجمة موضوعا لها، منها ما انتهج سبيل الموضوعية «objectivité» أثناء البحث في الوقائع المرتبطة بعملية الترجمة، ومنها ما حاول استخلاص بعض الدروس من ممارسة الترجمة. وتندرج ضمن الدراسات ذات النزعة الموضوعية جملة المواد العلمية التي تنتمي إلى قطاعات معينة، ومن الوهم الاعتقاد في إنجاز نظرية وحيدة لفعل الترجمة، تشمل كل أنواع الإبداع الإنساني الفكرية والفنية، من شعر، ومسرح، ونثر، وفلسفة، وقانون، وألسن، والتغاضي عن أن فضاء الترجمة متعدد الحقول، غير متجانس لا يمكن البتة توحيد أطرافه المترامية[37].

وعلى الرغم من كل هذا الإنتاج الفكري وإعمال الترجمة فيه، وكل ما أنتجته الأمم من ترجمة لآثار الحضارات، لا تزال آلياتها غير معروفة بالقدر

(37) A. Bernan, «La traduction et ses discours», Meta, vol. 34, 1989, p. 674.

الذي مورست به. فالترجمة لم تعد تقتصر على نقل المعاني وتجارب الإنسانية من نسق لساني إلى آخر، بل إن اللغة لم تعد الرافد الأوحد للثقافة الإنسانية، وهي إذا كانت - ولا زالت - بالنسبة لعلم اللسانيات أحد مسائله الهامة، فهي بالنسبة للسيميائيات مسألتها الأساسية في نظر غريماس(38)، كما أن الباحثين كثيرا ما لاحظوا لجوء بورس «C. S. Peirce» إلى مفهوم الترجمة من أجل تعريف العلامة(39).

وانطلاقا من هذا المعطى، اجتهدت كثير من الدراسات في السنوات الأخيرة في إعمال المفاهيم وطرائق التحليل السيميائية في مقاربة الترجمة مقاربة سيميائية لا تقف عند حدود الإطار اللساني، ونظرا لتعدد مراتب الأشياء في الوجود، واختلاف طرائق تناولها، ينزع البحث العلمي الحديث، إلى توزيع الدراسات إلى عدد من المستويات، والفصل بينها فصلا منهجيا. ويجسد هذا المبدأ في السيميائيات وغيرها من العلوم الإنسانية الأخرى، مفهوم الملاءَمة؛ إذ عادة ما يلزم الباحث نفسه سلوك وجهة نظر واحدة، ولا يستدعي إليها إلا ما هو ملائم من أدوات إجرائية، وطرائق في التحليل. وترتيب مستويات البحث السيميائي، إلى سيميائيات عامة، وخاصة وتطبيقية، ليس بدعا منها، بل إن اللسانيات هي الأخرى، أقرت بمقولة دو سوسير(40) الإبستيمولوجية القائلة بأن وجهة النظر هي التي تحدد الموضوع، كما إن جورج غورفيتش(41) «G. Gurvitch»، أطلق هو الآخر مصطلح المستوى على عدد من مراتب البحث في علم الاجتماع، من منطلق أن المجموعات الاجتماعية خليقة بأن ترتب ترتيبا تميز به الظواهر الاجتماعية تصاعديا بين ما هو بارز مثل تكوينها وما هو خفي مثل الأوضاع النفسية العامة.

---

(38) A. J. Grimas, «La traduction de la Bible: un problème sémiotique», Sémiotique et Bible, nº32, déc. 1983, p. 1.

(39) U. Eco, Dire presque la même chose. Expériences de traduction, tr. par M. Bouzehar, Paris, Grasset, 2003, p. 267.

(40) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 23.

(41) G. Gurvitch (sous la dir.), «sociologie en profondeur», in Traité de sociologie, Paris, P. U. F., T1, 1967.

إن النظر إلى الترجمة من منظور السيميائيات العامة يقودنا إلى طرح جملة من القضايا التي من العسير استظهارها من منظور سيميائيات خاصة أو تطبيقية، لارتباطها بطبيعة الأسئلة المثيرة لها ومرتبتها من المعرفة العامة المحصلة في هذا المجال من البحث، فمفهوم النسق - مثلا - يمكن التحقق من إجرائيته في المستويين الآخرين، بيد إن صياغته وتحديد ضوابطه العلمية والفلسفية شأن سيميائي خالص، ومعطى سابق. ومن شأن السيميائيات الخاصة أو التطبيقية أن تضفيا مزيدا من المصداقية على مصادرات السيميائيات العامة، كما يمكنهما أن تحددا لها الأطر التي ينبغي صياغة هذا المصطلح أو ذاك فيها، ليظل كل فرع من الفروع الثلاثة - أو كل مرتبة من مراتب المعرفة السيميائية - في علاقة جدلية متجددة مع الفرعين الآخرين.

ونعتقد أن هذا التقسيم من شأنه أن يسهم في رسم مناحي ارتباط السيميائيات بالترجمة، ورسم معالم انتقال المعرفة السيميائية إليها، كما يمكن من خلال ترتيب الأعمال السابقة التي أسهمت في تحريك التبادل المعرفي الناشئ بين السيميائيات وعلم الترجمة «traductologie» إلى أبواب ثلاثة هي: 1) الترجمة بوصفها فعلا سيميائيا، 2) بوصفها موضوعَ بحثٍ سيميائي خاص، و3) بوصفها تطبيقا سيميائيا بين مختلف الأنساق الدالة، من تلمس مدى تجانس البحث وقيمة تطبيقاته. لكن هذا العمل يتطلب لا محالة جهدا ووقتا يتجاوزان ما نحن ماضون فيه، ويتطلب الإلمام بشتى ضروب المعرفة السيميائية التي ما انفكت تجتاز حدود المدارس والمذاهب وطرائق التحليل المختلفة. ولذلك، وعملا بمقولة دو سوسير السابقة، لا ينفك هذا العمل في إتباع مسار واحد ننظر وفقه إلى الترجمة من منظور سيميائي واحد، هو منظور سيميائيات غريماس، وأولى خطواتنا نحوه أن نقف عند مفهوم الترجمة من وجهة نظر غريماس.

الترجمة من وجهة نظر غريماس

تعد الترجمة، في نظر السيميائيات، أهم خصيصة من خصائص الأنساق الدالة، وهي ليست خاصة للألسن من دون سائر الأنساق التواصلية الأخرى، ولا ينحصر مدلولها - نتيجة لذلك - في مجرد الانتقال «passage» من لسان إلى آخر، بل إنها أشمل من ذلك، إنها كل نشاط مبدع للمعنى، سواء أكان تعبيرا، أو تفسيرا، أو تأويلا، أو أي نشاط آخر واصف للمعنى. وغايتنا فيما يلي من هذا البحث أن نستخلص من سيميائيات غريماس، بغية مقاربة ترجمة القرآن مقاربة سيميائية، ما يفيدنا من طرائق تحليلها، ومفاهيمها الإجرائية. ولذلك كان لزاما علينا أن نقف في مستهل هذا الفصل عند مدلول الترجمة وتصور غريماس للعملية الترجمية من ناحية، ونعرض، من ناحية أخرى، للقرآن بوصفه نسقا دالا إذ أننا نفترض إمكانية مقاربة ترجمته مقاربة سيميائية.

إن الترجمة ليست من منظور السيميائيات نشاطا لسانيا خالصا، بل إن تواصلنا اليومي مع أفراد مجتمعنا لا ينفك عن الاستعانة بمختلف الأنساق السيميائية التواصلية، فكثيرا ما تعجز الكلمات عن أداء مرادنا وتقصر فنلجأ تارة إلى الإشارة، وتارة أخرى إلى الرسم، وأخرى إلى النصبة، وأخرى إلى الحركة، وهكذا دواليك كلما بدا ذلك أوفى في القصد وأرجى لاستجابة المتلقي.

ولعل المعاني التي أحصاها الزرقاني[42] للمركب الإضافي 'ترجمة

(42) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية، 2001، الجزء الثاني، ص29 وما بعدها.

القرآن' قريبة إلى التصور السيميائي للترجمة، وهي معان أربعة، ثلاثة منها ترجع إلى اللغة وحدها، والرابع تشترك فيه اللغة والعرف العام الذائع بين الأمم. أما 'ترجمة القرآن' استنادا إلى اللغة فيراد بها تارة تبليغ ألفاظه، وتارة أخرى تفسير القرآن بلغته العربية لا بلغة أخرى، وتارة أخرى تفسيره بلغة أجنبية، وأما الرابع فهو بمعنى نقله إلى لغة أخرى، أي التعبير عن معاني ألفاظه العربية ومقاصدها بألفاظ غير عربية، مع الوفاء بجميع المعاني والمقاصد.

برز مفهوم الترجمة ضمن مشروع غريماس السيميائي منذ الكتابات الأولى التي مهدت له، فقد جاء ذكره، مقترنا بمفهوم النقل «transposition»، في الفصل الأول من كتاب 'الدلاليات البنوية'[43] الذي يعد - على الرغم مما يوحي به عنوانه - أول بحث منهجي في السيميائيات اللسانية. ولم تستو السيميائيات اللسانية على قواعدها حتى خصص غريماس بحثا خاصا بالترجمة قدمه للملتقى المنعقد بنانسي «Nancy» (فرنسا) في أكتوبر سنة 1977، بعنوان: 'ترجمة التوراة: مسألة سيميائية'، نشرتها أول مرة مجلة 'السيميائيات والتوراة'[44]، الصادرة عن مركز تحليل الخطاب الديني بليون «Lyon» الفرنسية، تناول فيه - قبل أن يعرض لمسألة ترجمة التوراة وأبعادها السيميائية - علاقة السيميائيات بالترجمة، من خلال تحديد طبيعة الفعل الترجمي، وتصنيفه، ووصف آلياته. ولقد تجلت في هذا المقال أهمية الترجمة بالنسبة للمشروع السيميائي، وفيه تبدو السيميائيات وكأنها بلغت مرحلة من النضج، فقد تمخض عن هذه المرحلة إصدار المعجم السيميائي الذي ما انفك يستقطب اهتمام الباحثين في مختلف علوم اللغة والسيميائيات على وجه العموم، وفيه خصص غريماس وكورتاس «J. Courtés»، مدخلا من مداخله للتعريف بالترجمة.

(43) A. J. Greimas, Sémantique structurale, Paris, P. U. F, 1986, (Larousse, 1966), pp. 5-17.

(44) A. J. Greimas, «La traduction de la bible : un problème sémiotique», Sémiotique et Bible, nº 32, déc. 1983, p. 1.

وقبل أن نخوض في تفاصيل مسار اهتمام السيميائيات بالترجمة، لا بد من الإشارة إلى موقع الترجمة من السيميائيات، فإذا كانت بالنسبة للسانيات إحدى أهم مسائلها فإنها المسألة الرئيسة للسيميائيات، فخصيصة الترجمة «traductibilité» تعد من بين أهم خصائص الأنساق السيميائية ومرتكز المقاربة الدلالية، من منطلق أن الكلام عن المعنى هو في الآن ذاته - في نظر غريماس[45] - ترجمة للدلالة وإنتاج لها.

الترجمة ميزة الألسن الطبيعية عن سائر المجموعات الدالة

لا ريب في أن كتاب 'الدلاليات البنوية' يعتبر البحث المنهجي الأول الذي ارتسمت فيه معالم السيميائيات اللسانية وفيه صيغت أولى مفاهيم النظرية السيميائية التي ما انفكت تصبو إلى تشييد سيميائيات عامة من شأنها مقاربة مختلف الموضوعات السيميائية غير اللسانية. إن الدلاليات، إذا ما أرادت أن تتخذ لنفسها مكانا في الحقل اللساني العام، وتحقق لفرضياتها وجهاز مصطلحاتها الاندماج والانسجام مع سائر المصطلحات اللسانية، فإن عليها أيضا - في نظر غريماس[46] - أن تصبو إلى طابع الشمول الذي يكفل لطرائقها التوافق مع الأبحاث الأخرى التي تعنى بالدلالة. وهذا يعني أن الدلاليات، إذا كان موضوعها الألسن الطبيعية، فإن وصف هذا الأخيرة ينتمي إلى علم دلالي أوسع وهي السيميولوجيا كما أرسى قواعدها دو سوسير. وقد تضمن الفصل الأول من كتاب 'الدلاليات البنوية'، بوصفه مقدمة له، الشروط التي تكفل تأسيس دلاليات علمية، لا تعنى بالألسن الطبيعية وحسب بل تعنى أيضا بكافة الأنساق السيميائية الأخرى من منطلق أن البحث في المعنى، وهو القاسم المشترك بين كافة العلوم الإنسانية، لا يجب أن يقتصر على المجال اللساني إذا ما أراد تحقيق بعده العلمي الذي ينشده، حتى وإن اعترف بالوضع المميز الذي تتميز به الألسن عن سائر الأنساق السيميائية الأخرى.

---

(45) A. J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Paris, Hachette, 1979, p. 398.

(46) A. J. Greimas, Sémantique structurale, p. 7.

تكتسي الألسن بالنسبة لمشروع غريماس[47] السيميائي وضعا مميزا مقارنة بباقي الأنساق السيميائية الأخرى نتيجة لخصيصتي النقل والترجمة. أما خصيصة النقل «transposition» فهي من نوعين، فالألسن بالنظر إلى مدلولها «signifié» تتمظهر «se manifeste»، أي يمكن التعبير عنها، بدالين «signifiant» أو أكثر، يختلفان باختلاف الحاسة التي ينتميان إلى مجالها، فالألسن يمكن التعبير عنها بالنطق والكتابة. كما إن الألسن - بوصفها مجموعات دالة - تنتقل من مجال حواسي إلى آخر، فلغة الحلم «langage onirique» أو اللغة السينمائية ليستا سوى نقل للألسن إلى نظام بصري خاص. أما الترجمة فهي لا تختلف عن خصيصة النقل إلا بالاتجاه الذي تنحوه، إذ إن الألسن هي الأنساق السيميائية الوحيدة التي تترجم إليها، بقدر متفاوت من الدقة، كافة الأنساق السيميائية الأخرى، فالرسم مثلا خليق بأن يترجم إلى نقد تصويري .«picturale»

الترجمة فعل أيديولوجي وموضوع أكسيولوجي

إن الترجمة نشاط إنساني ذو طابع معرفي «cognitif»، وهو نشاط مبرمج، يسير على شكل إنجاز مشروع يحتوي على غاية «visée» وهدف، ومن ثم فلا وجود - في نظر غريماس - للترجمة الموضوعية «objective»، البريئة، فهي لا محالة أداء مقصدي، أي أداء أيديولوجي .ومن جهة أخرى، كثيرا ما نصف هذه الترجمة أو تلك بالجودة أو بالرداءة، ونحن إذ نفعل ذلك إنما نفترض وجود مؤسسة «instance» تصادق على هذا النشاط وتُقوِّم ما أنجزه المترجم. وبعبارة أخرى، إن الترجمة أداء أيديولوجي وموضوع أكسيولوجي: ففي حين يستند منتج النص الجديد إلى أيديولوجية، يستند قارئه في تقديره للنص إلى أكسيولوجيا «axiologie»، سواء أكانت هذه الأكسيولوجيا ضمنية أم صريحة.

يمكن أن تنجز الترجمة في سبيل الكينونة «être»، بمعنى لغاية المطابقة

---

(47) Idem, p. 12.

«adéquation» بين النصين، يكون النص الثاني بمثابة عرض «compte-rendu» للأول، وفي هذه الحالة، كما في مجال الترجمة الآلية، يعمد اللساني إلى صياغة نحوين - أحدهما للسان المدخل والآخر إلى اللسان المخرج - ولغة وسيطة «interlingua» هدفها الربط بينهما. ويمكننا من ناحية أخرى النظر إلى الترجمة بوصفها ترجمة غايتها فعل «faire» لاحق، كما هو شأن النصوص القانونية التي يتم إعدادها وصياغتها في ألسن مختلفة. وليست الدقة الغاية من هذه الترجمات، بل الأثر المرجو منها. فهذه الترجمات غايتها التوصل إلى تشريعات متوافقة فيما بينها، ومن ثم فإن المطابقة لا تخص النصين، ولكن تخص النص المحصل عليه والسياق القانوني الحالي، وهي مطابقة تستلزم مراقبتها وضع مؤسسات تعنى بالتحقق من ذلك. كما يمكن أن تنجز الترجمة لأجل المعرفة «savoir»، فترجمة التوراة مثلا وصياغة الجهاز النقدي الذي يدور حولها، يمكن أن تروم إعادة تشكيل الوضع الأصلي للنص من خلال إخضاع قراءتها للنسق الثقافي للعصر. ويتمثل الهدف الذي تسعى إليه في معرفة الثقافة اليهودية في هذه الحقبة أو تلك، بمعزل عن وجود نص توراتي في الثقافة العبرية أو المسيحية في الوقت الحالي. ومثل هذه الممارسة، القريبة من الناحية المنهجية من وصوف الميتولوجيات الهندية، اليونانية والهندية الأمريكية «amérindiennes» التي تستند إلى مسلمة المسافة «distanciation» الفاصلة بين الملفوظ والمتلفظ، تمثل هي الأخرى، من بين مشاريع أخرى، مشروعا أيديولوجيا.

إن آخر مشروع أيديولوجي قد يهم مباشرة مترجم التوراة هو مشروع الترجمة من أجل الإعلام «faire-savoir»، ففي حين تسعى الترجمة في المقاربات السابقة أن تكون مناسبة «adéquate» بالنظر إلى النص الأصلي أو إلى سياق الأصل، هي الآن تسعى إلى تأسيس مؤسسة وسيطة تهدف إلى بلوغ، بصورة كاملة ما أمكن، المرسل إليه، المعطى أو المحدد سلفا، وليس بوصفها إنجازا لنص موضوع. إن المبدأ المسير للترجمة التي تسعى إلى المعرفة «savoir-faire» هو مبدأ الكفاءة الذي يتضمن بدوره نشر فعل إقناعي. ولا يهم أن يكون هذا الفعل الإقناعي ضمنيا أو صريحا، واعيا أو غير واع، إنما يعمل المترجم من خلال وضع مجموعة من الطرائق

«procédures» الموجهة لإنجاز التواصل والمحتويات المرسلة.

الترجمة فعل معرفي ونشاط مبدع للمعنى

إن الترجمة، كما أشار غريماس، فعل معرفي ونشاط مبدع للمعنى، ويبرز هذا النشاط الترجمي على كل المستويات: فالألسن الطبيعية تمتاز بكونها الفضاء الذي يُترجم فيه عالم الحس المشترك «sens commun»، فتغدو إذن كلغات واصفة «métalangages» تمكننا من الكلام على العالم. كما إن الألسن الطبيعية أفضية تُنجز فيها ترجمة عدد لا يحصى من السيميائيات غير اللسانية. وهي أيضا تعمل كلغات واصفة لنفسها، مبتكرة أفضية جديدة للمعرفة ونقدها.

إن الترجمة – في نظر السيميائيات[48] – فعل معرفي «faire cognitif» يمكن وصفه بأنه جملة من العمليات اللسانية الواقعة بين النص المبتدى «ab quo» والنص المنتهى «ad quem»، غايتها تحقيق تضايف «corrélation» بين النصين، نتيجة تحويلْ حاصلٍ بينهما، وهو تحويل موجه «orienté» يمضي من النص الأصلي إلى النص الهدف، وليس عكس ذلك. هذا يعني أن الترجمة إنما هي عمليات تحويل «transformation» وأن مجموعها عبارة عن نسق تضايفي «un système de corrélation»، وهذا النسق عبارة عن موضوع سيميائي مستقل. وفي حين يقع التحويل على المستوى الدلالي المنطقي والتجريدي للغة «langage» فإن تمظهره على مستوى السطح يكون في شكل عمليات ينجزها الأفراد العارفون «sujets cognitifs»، وهي عمليات خليقة بأن تنتظم في شكل برنامج من مرحلتين.

التكفل بالنص المترجم

تتمثل المرحلة الأولى من البرنامج في التكفل بالنص المبتدى «*ab quo*»، وهذا الصنيع من قبيل الفعل التفسيري «faire interprétatif» الذي

(48) A. J. Greimas, «La traduction de la Bible: un problème sémiotique», p. 4.

يشمل عمليات الشرح، والتقطيع، وتسمية «titulature» المقطوعات. إن المترجم، عندما ينشأ هذا التفسير، ينجز في الوقت ذاته لغته الواصفة «métalangage» الخاصة به، التي تعد في مرحلة أولى لغة غير علمية، لا يمكنها أن ترقى إلى درجة العلمية إلا بجهد إضافي من الانسجام في البناء، ومراعاة أحادية المصطلحات المستعملة وتعريفاتها المترابطة «interdéfinition». إن ترجمة النص إلى لغة واصفة من هذا النمط تتخذ حينذاك اسم التحليل السيميائي للخطاب.

إعادة إنتاج نص الترجمة

تبدأ المرحلة الثانية من البرنامج عندما يشرع في إعادة إنتاج «re- produit» النص المؤوّل في اللسان المنتهى «*ad quem*»، ولا يجب الاقتصار على التأكيد على ضرورة التكافؤ مع النص الأصلي، والطابع الإنتاجي لهذا النشاط المعرفي الذي يتضمن معرفة الفضاء الدلالي الذي يُنتج فيه النص الجديد، بل يجب التأكيد أيضا على ضرورة التكفل بمجموع عمليات الإنتاج.

الفصل الثاني

سيميائيات النص القرآني

آليات التحليل السيميائي

لا يمكننا أن نعرض في هذا الفصل إلى كل مكونات المقاربة السيميائية، بل فيه سنكتفي بالتعرف على مفهوم التناظر «isotopie» الذي ألمحنا إليه في المبحث الأول من الفصل السابق، عند حديثنا عن مكونات القراءة السيميائية عند إيكو ودور مفهوم التناظر فيها، من خلال تبيان إجرائيته في التعرف على مستويات تجانس المعنى، ثم النظر وفق هذا المفهوم في بعض آيات سورة القمر. لكن يجدر بنا قبل الشروع في ذلك، أن نضع، في المبحث الأول من هذا الفصل، مفهوم التناظر موضعه من النظرية السيميائية التي نحن آخذون بها في هذا العمل، ونعني بذلك موقعه من مستويات التحليل السيميائي وعلاقته ببعض المفاهيم التي له صلة بها.

السيميائيات وأصولها اللسانية والفلسفية

تتعدد الأصول اللسانية والمنطلقات الفلسفية التي استند إليها غريماس في تأسيس نظريته السيميائية، أو منهجه السيميائي؛ وعلى الرغم مما في المسار العلمي الذي تبلورت على امتداده هذه النظرية من معالم مفيدة وضرورية لفهم محطاتها التكوينية، إلا أننا نقتصر على الإشارة إلى أهم العلوم التي استقى منها غريماس لبنات بنائه النظري، ولعل أولى هذه اللبنات ذات الأصل اللساني، إذ مافتئ سعي غريماس إلى تأسيس علم يُعنى بالمعنى ينتقل من علم إلى علم، من المفرداتيات «lexicologie»، إلى الدلاليات «sémantique»، ليستقر عند السيميائيات[1].

---

(1) ينظر: J.-C. Coquet, Sémiotique. L'école de Paris, p. 15 et s.

أما المفرداتيات فلأنها كانت - على حد تعبير غريماس[2] - العلم الوحيد الذي كان يعنى بمسائل الدلالة اللسانية قبل أن تصبح الدلاليات فرعا مستقلا من النحو، وكان يعتقد - في المرحلة الأولى من مشروعه العلمي - أن المفرداتيات من شأنها أن توفر الأدوات النظرية والمنهجية التي كثيرا ما سعت العلوم الإنسانية إلى اكتسابها، لكنه سرعان ما تبين له قصورها في تحقيق الغاية التي كانت تنشدها، ولم تتمكن من تجاوز العجز الذي آلت إليه جراء اكتفائها بتصنيف الوقائع الدلالية من جهة، ووقوفها عند حدود الكلمة من جهة أخرى[3].

وقد سجل راستي[4] هذا الانتقال أثناء حديثة عن ظهور مصطلح التناظر «isotopie»، مشيرا إلى أن غريماس كان قد قام أول الأمر ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية حتى بداية الستينيات، بأبحاث في المفرداتيات، بيد أنه منذ كتابه «الدلاليات البنوية»[5] راح يبتعد عنها على صعيدين؛ الأول، نزولا إلى مستوى أدنى من الكلمة كما تشهد على ذلك المحولات في التحليل السيمي «analyse sémique» التي تتضمنها الصفحات 42 إلى 54 من الكتاب، وثانيهما؛ تجاوز مستوى الجملة كما يبينه الفصل الذي خصصه للتناظر الدلالي للخطاب «isotopie du discours». كما نقل راستي أيضا عن غريماس قوله: «وقد تبين لي بالفعل بعد دراسات صارمة، ألا فائدة من اللكسيمات «lexèmes»، أي أن الكلمات لم تكن وحدات تمكن من وصف نسق ما، سواء أكان نسقا فكريا أم أي نسق دال آخر، فكان من الضروري إذن البحث عن وحدات أدنى من الكلمات»[6]، وكان يعني بها آنذاك السيمات.

لا يسعنا المجال هاهنا كي نفيض القول فيما تدين به سيميائيات

(2) A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p.209.

(3) J. Courtés, Sémiotique, L'école de paris, p 16.

(4) F. Rastier, Sémantique interprétative, Paris, P. U. F., 1987, p 103.

(5) A. J. Greimas, Sémantique structurale, Paris, Larousse, 1966.

(6) F. Rastier, Sémantique interprétative, p. 103.

غريماس للسانيات، ولو رام الباحث ذلك لطال به البحث والتقصي، فمنطلقات السيميائيات اللسانية متعددة متنوعة، ويكفي المرء أن ينظرَ في كتاب «الدلاليات البنوية» ليتبين حجم إسهام الفكر اللساني في بلورة المشروع السيميائي، ويعودَ إلى المقال الذي نشره غريماس قبل عشر سنوات خلت من إصدار الكتاب، أي العام 1956، ليتبين الدعائم الإبستيمولوجية التي بنا عليها مشروعه السيميائي، وقد عمل في هذا المقال 'الحداثة السوسيرية' «L'actualité du saussurisme»(7)، على «إبراز الفوائد التي يمكن للعلوم الإنسانية أن تجنيها من التقابلات السوسيرية الكبرى»(8)، وهو يعبر عن رغبة ملحة ميزت كثيرا من الأبحاث اللسانية آنذاك، هي الرغبة في العودة من جديد إلى دو سوسير وإعادة استكشاف المفاهيم التي جاء بها، وقراءتها قراءة جديدة مثمرة؛ لكن ذلك لم يكن ممكنا في غياب قراءة فيلولوجية تعنى أساسا بالبحث التكويني لمحاضراته اللسانية وتمكن من تجاوز الخلافات العقيمة التي انطلقت من فهم خاطئ أو جزئي للمحاضرات. ومن هذا المنظور يعد مقال غريماس عملا سباقا في هذا الميدان، ففيه تبرز أولى المرتكزات التي سوف ينبني عليها الصرح السيميائي والتي تتلخص في اعتبار اللسان موضوعا صوريا ذا طبيعة متجانسة بوصفه شكلا وليس جوهرا، وموضوعا دلاليا واجتماعيا، ومعمارية «architecture» من الأشكال الحاملة للدلالة.

وفضلا عن الأخذ عن دو سوسير، فقد أخذ غريماس، في المجال اللساني، أيضا عن لسانيات حلقة براغ «Cercle de Prague» المتمثلة تحديدا في النزعة الثنائية للسانيات البنوية التي رسم معالمها كل من تروبتسكوي «N. S. Troubetzkoy»، وجاكبسون «R. Jakobson» ومارتني «A. Martinet»، إذ أفاد منها غريماس ما مكنه من ترتيب أجزاء هامة من صرحه النظري، وهي البنيات البسيطة للدلالة، بعد التخلص من بعض المعوقات النظرية للبنوية ذات النزعة الثنائية وذلك بالاستناد إلى توجهات فيكو برندال «V. Brendal»،

(7) A. J. Greimas, «L'actualité du saussurisme» in Le français moderne, n3, 1956.

(8) C. Zilberberg, Raison et poétique, Paris, P. U. F., 1988, p 66.

ولويس يمسليف «L. Hjelmslev». كما لا يخفى ما استمده غريماس من نظرية العوامل التي أبدعها تنيير[9] «L. Tesnière»، من أجل استثمار عمل بروب[10] «V. Propp» في الرواية الشعبية.

لقد اقتصر اهتمام اللسانيات، منذ رسالة دو سوسير في النسق القديم لصوامت الألسن الهندية الأوروبية العام 1878[11]، مرورا بمبادئ تروبتسكوي[12] في الفونولوجية، محاولات ياكبسون في اللسانيات العامة[13] وأعمال يمسليف ومارتني، أساسا بالوصف الصوتي والفونولوجي للألسن الطبيعية، ثم ما لبثت المفرداتيات أن شهدت بعد ذلك انطلاقتها الفعالة فتتطور ثم تتحول بتأثير أعمال يمسليف ومن انتهج منهجه إلى دلاليات معجمية. وإلى جانب اهتمام اللسانيات بالكلمة خلال هذه الفترة أضحت الجملة الموضوع المفضل للسانيات ليكون للتركيبيات بدورها حظ في الدراسات الحديثة إلى درجة أن الاتجاهات التركيبية لم تعد تعد ولا تحصى، حتى أضحى من العسير الإحاطة بكل ما جد في ميدانها، سواء في أوروبا أو في أمريكا[14]. لكن، وعلى الرغم من هذا التطور الكبير والتحولات العديدة، فإن اللسانيات بقيت هذه المرحلة من تاريخها لا تتعدى حدود الكلمة والجملة، لا صعودا أعلى من هذه ولا هبوطا أدنى من تلك ولم يكن الخطاب آنذاك يمثل موضوعا يجلب اهتمام الباحثين إذ لم تتوفر لهم بعد الوسائل التي تمكنهم من إرساء قواعد علمية لمادة تحليل الخطاب. وإن درجت اللسانيات البنوية منذ نشأتها الأولى على اعتبار الجملة المستوى الأخير الذي لا يمكن للتحليل اللساني أن يتجاوزه، ولا يمكن أن تكون وحدة لسانية مستقلة يمكن إدراجها ضمن وحدة أوسع منها كما ذهب

---

(9) ينظر:

L. Tesnière, Eléments de syntaxe structurale, Paris, Klincksieck, 1959.

(10) ينظر:

V. Propp, Morphologie du conte, Paris, Seuil, 1970.

(11) F. de Saussure, Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, 1878.

(12) N. S. Troubetzkoy, Principes de phonologie, tr. J. Cantineau, Paris, Klincksieck, 1986.

(13) R. Jakobson, Essais de linguistique générale, tr N. Ruwet, Paris, Minuit, 1963.

إلى ذلك بلومفيلد، فإن هذا التصور ناتج أساسا عن تمييز دو سوسير بين اللسان والكلام وإقصاء هذا الأخير من مجال تحري اللسانيات[15]، ولما كانت الجملة تنتمي في تقدير دو سوسير إلى الكلام لم يكن لها أن تصبح وحدة لسانية[16].

لكن الفكر اللساني ما لبث أن برهن على ضرورة تخطي هذه الحدود والدعوة إلى إنشاء لسانيات جديدة، وكان الفضل في تخليص اللسانيات من ربقة هذا التمييز وتبعاته بالدرجة الأولى لـ بنفينست «E. Benveniste» الذي جعل منذ مطلع الستينيات من الجملة بدورها الوحدة اللسانية الصغرى لمجال أوسع هو الخطاب، وبذلك «نغادر ميدان اللسان بوصفه نسقا من العلامات لنلج فضاء آخر، فضاء اللسان بوصفه وسيلة للتواصل، تعبيره هو الخطاب ... وهما، أي الجملة والخطاب، ميدانان مختلفان بالرغم من أنهما ينطويان على نفس الحقيقة، وينتجان نوعين مختلفين من اللسانيات بالرغم من أن سبيليهما يتقطعان في أي لحظة؛ فهناك من جهة، اللسان بوصفه مجموعة من العلامات الصورية، التي يتم إبرازها بإجراءات صارمة، وترتيبها ضمن أقسام، وتنظيمها ضمن بنيات وأنساق، ومن جهة أخرى تمظهر اللسان ضمن التواصل الحي»[17].

كما بينت أبحاث بروب وليفي ستروس «C. Lévi-Strauss» وديميزيل «G. Dumézil» أن السلطة التي كانت تفرضها الجملة على جمهور اللسانيين المحدثين قد تهاوت على جدران الخطاب، وتبين أنه لا يعدم هو الآخر - بوصفه سلسلة من الجمل - تنظيما داخليا، وأن التفكير حوله كفيل بأن ينتج لسانيات جديدة؛ لها وحداتها ومستويات تحليلها الخاصة، فتغدو كل من اللسانيات ولسانيات الخطاب ميدانين مستقلين؛ سواء بالنظر إلى موضوع

(14) J. Courtés, Analyse sémiotique du discours. De l’énoncé à l’énonciation, p 64.

(15) F. Marchand, Manuel de linguistique appliquée, Tome 3, Les analyses de la langue, Paris, Delagrave, 1979, p 119.

(16) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p 172.

(17) E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Paris, Gallimard, 1966, p 130.

ونحو كل منهما أو إلى وحداته التي يرتضيها ومبادئ الملاءمة التي يتعامل بها[18]. وكان الشكلانيون الروس قد مهدوا الطريق كذلك نحو احتواء اللسانيات لما أضحى ينعت بالخطاب، وذلك بتجاوز تمييز دو سوسير بين اللسان والكلام، ولو بطريقة غير مباشرة في دراستهم للآثار الأدبية، وذلك بإخضاع ملفوظات أكبر من الجملة لمفهوم النسق والعمل بمبدأ المحايثة ودراستها دراسة بنوية. وقد مكنت دراساتهم من الكشف عن تنظيم منطقي لتتابع الملفوظات خاصة في ميدان الحكاية الشعبية[19].

وفي هذا الشأن فقد لاحظ غريماس[20] أن مقارنة النتائج التي خلصت إليها أبحاث بروب حول الفلكلور[21]، وليفي ستروس حول بنية الأسطورة وسوريو حول المسرح مكنت، في وهلة أولى، من التأكيد على وجود ميدان بحث مستقل. ثم شهد هذا المسعى الأولي تطويرات منهجية زادت من تنويع المقاربات النظرية مثلما فعل برومند «C. Bremond» عندما راح يفسر السرد من منظور منطقي، أو ما قام به داند «A. Dundes» حين كان يرمي إلى إعطاء التنظيم السردي شكل نحو سردي.

---

(18) C. Chabrol, «De quelques problèmes de grammaire narrative et textuelle» in Sémiotique narrative et textuelle, Paris, Larousse, 1973, p 7.

(19) D. Maingueneau, Initiation aux méthodes de l’analyse du discours, Paris, Hachette, 1976, p 6.

(20) A.-J. Greimas: Du sens - p 157.

(21) لقد كانت لمورفولوجية بروب تأثير واضح على بنوية ليفي ستروس الذي أثار انتباه اللسانيين المحدثين منذ مطلع الستينيات إلى عمل بروب الرائد ضمن مقاله «البنية والشكل»، على تحاليل غريماس للأساطير، على دراسات بريموند حول الحكايات، حول دراسات بارت، تودوروف وجيرار جينات. فما بين العامين 1963 و1964 خصص غريماس جزء كبيرا من محاضراته حول الدلاليات التي ألقاها ما بين بمعهد بوانكاري «Institut H. Poincaré»، لتقديم عمل بروب ومناقشته، وفي العام 1964 نشر بريموند مقاله حول المرسلة السردية «message narratif» ضمن العدد الرابع من مجلة التواصل «communications»، ثم نشر تودوروف في السنة الموالية بعض نصوص الشكلانيين الروس، وفي العام 1966، صدر كل من دلاليات غريماس البنوية الذي نشأت عنه السيميائيات السردية، وخاصة العدد الثامن من مجلة التواصل التي احتوت على مقالات بارت، بريموند، إيكو «U. Eco»، جينات، غريماس، ماتز «C. Metz»، وهو العدد الذي نشأت عنه السرديات «narratologie» ذات الاتجاه البنوي.

ينظر:

J. M. Adam, Le récit, Paris, P. U. F., 3e éd., 1991, p 5.

لا يمكن للباحث أن يتوصل إلى تكوين صورة شاملة عن كافة أصول سيميائيات غريماس لو لم يتجاوز المعرفة اللسانية الخالصة، ولعل المؤلف الجماعي الذي أشرف عليه إيريك لندوفسكي[22] «E. Landowski»، لقراءة نظريته «Lire Greimas»، كفيل بأن يجعل القارئ يتعرف على بعض المشارب البنوية والفلسفية والفينومينولوجية للسيميائيات، فتنضاف إلى الأصول اللسانية منطلقات الفينومينولوجية المستقاة من موريس مرلو- بونتي[23] «M. Merleau-Ponty» البارزة منذ الصفحات الأولى من كتاب في كتاب «الدلاليات البنوية»[24]، فقد مكنت غريماس من تحديد تصوره الخاص للبنية استنادا إلى مفهوم الإدراك «perception».

مستويات التحليل السيميائي

كنا في المبحث الأول من الفصل الأول من الباب الأول ذكرنا أن البحث العلمي الحديث ينزع - نظرا لتعدد مراتب الأشياء في الوجود، واختلاف طرائق تناولها - إلى توزيع الدراسات إلى عدد من المستويات «niveaux d'analyse»، والفصل بينها فصلا منهجيا. ويجسد هذا المبدأ في السيميائيات وغيرها من العلوم الإنسانية الأخرى، مفهوم الملاءمة؛ إذ عادة ما يلزم الباحث نفسه سلوك وجهة نظر واحدة، ولا يستدعي إليها إلا ما هو ملائم من أدوات إجرائية، وطرائق في التحليل، وقلنا أن هذا الترتيب في مستويات البحث السيميائي ليس بدعا منها، بل إن اللسانيات أقرت هي الأخرى بمقولة دو سوسير الإبستيمولوجية التي مفادها أن وجهة النظر هي التي تحدد الموضوع، وأن علم الاجتماع أخذ هو الآخر بمصطلح المستوى كما اعتمده جورج غورفيتش[25] من منطلق أن المجموعات الاجتماعية

(22) E. Landowski (sous la dir.de), Lire Greimas, Limoges, P. U. L., 1997.

(23) M. Merleau-Ponty, Phénoménologie de la perception, Paris, Gallimard, 1945.

(24) A. J. Greimas, Sémantique structurale, p. 19.

(25) G. Gurvitch (sous la dir. de), «sociologie en profondeur», in Traité de sociologie, Paris, P. U. F., T1, 1967.

خليقة بأن ترتب ترتيبا تميز به الظواهر الاجتماعية تصاعديا بين ما هو بارز مثل تكوينها وما هو خفي مثل الأوضاع النفسية العامة.

يندرج استعمال التمييز بين البنيات السطحية والبنيات العميقة في السيميائيات ضمن النظرية العامة لتوليد الدلالة، وتتأسس في الآن ذاته على المبدأ التوليدي الذي تنتج وفقه البنيات المركبة انطلاقا من بنيات عميقة، ومبدأ «نمو المعنى» «accroissement du sens» والذي يضيف بمقتضاه كل تركيب «complexification» للبنيات إضافة في المعنى. ولهذا فإن كل مرحلة من المسار التوليدي يجب أن تحتوي على المركبين التركيبي والدلالي[26]. وتسهم الطريقة هذه، التي تدعى بالتحويل «conversion»، في الانتقال من مستوى تمثيلي إلى مستوى تمثلي أكثر ثراء من الناحية التركيبية و/أو الدلالية، علما أن التركيبيات والدلاليات إن كانتا منفصلين على مستوى السطح، فإن البنيات العميقة تستعمل هذين المكونين في آن واحد[27].

وليست فكرة التمييز بين البنية السطحية والبنية العميقة بالشيء الطارئ على الفكر الإنساني الحديث؛ فقد أشار كلود حجاج[28] إلى أن علوم اللغة وعلم النفس وعلوم الطبيعة لم تكن تتجاهل الخفي إزاء الجلي، أو الباطن إزاء الظاهر، لكن الفضل في الترويج لهذا التمييز في اللسانيات يعود إلى النحو التوليدي والتحويلي بإدراج هذه الثنائية ضمن جهازه المصطلحاتي؛ فلا تكاد تنفصل عن مفهوم الكفاية «compétence»، أو عن البحث عن الكليات «universaux» أو مبدأ الفطرية «innéisme». لكن الثنائية هذه لا تخص ضمن النظرية التوليدية والتحويلية سوى البعد التركيبي للسان، وهي تتأسس على علاقة التحول - أو سلسلة التحولات - التي يتم الكشف عنها بين تحليلين للجملة ذاتها، بحيث يقع التحليل الأكثر بساطة وتجريدا بالمستوى العميق، ومن ثم يغدو هذين النوعين من البنيات مجرد تصورات

---

(26) A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p 295.

(27) J. Courtés, Analyse sémiotique du discours, p 137.

(28) C. Hagège, La grammaire générative, Paris, P. U. F., 1976, pp 97-98.

لسانية واصفة «métalinguistiques» تمكن من تمثيل سلسلة من التحولات تبدو في شكل مسار توليدي[29].

كما إن البنيات العميقة ليست دائمة بسيطة بالضرورة مقارنة بالبنيات السطحية، بل إن الطريقة التي تنطلق من البسيط «élémentaire» إلى المركب «complexe» ليست مجدية في كل الحالات؛ فهي تبقى عاجزة مثلا عن تفسير ظاهرة أساسية في كثير من الألسن؛ ألا وهي التعابير الاصطلاحية «expressions idiomatiques» التي لا يمكن استخلاص معناها من بنية المورفيمات «morphèmes» التي تؤلف هذه التعابير والتي لا تدخل بدورها في تكوين وحدة أوسع منها[30]. و لم يسلم مفهوم البنية العميقة هو الآخر من كثير من الانتقادات التي شككت حتى في إمكانية تحققه؛ بوصفها من قبل هوكت «C. F. Hockett» مجرد تجريد لا علاقة له بطرائق العلم التجريبي «science empirique». كما لم تلق فكرة انبعاث البنية السطحية من البنية العميقة هي الأخرى إجماع جمهور اللسانيين كافة؛ فويزنس «E. Buyssens» يرى أنه حتى يكون تفسير حدث ما بحدث آخر مقبولا، يجب ألا يتم ابتكار هذا الحدث المفسِّر من أجل هذا الغرض، فالبنية العميقة - حسب رأيه - مجرد وهم ابتكر لغايات ما، وإن البنية السطحية هي التي تفسر البنية العميقة وليس العكس[31] وإذا كانت اللسانيات التوليدية لم تسعى إلى تجاوز إطار الجملة بل حملت النحو مسؤولية جرد أنظمة القواعد «systèmes de règles» التي تمكن من إنتاج عدد غير محدود من جمل لسان ما ووصفها وصفا بنويا، إلا أنها فتحت مع ذلك أفقا جديدا للتساؤل مجددا حول مفهوم الجملة وحدودها، من خلال تحويل الوصف عن البنية السطحية، وطرح مفهوم البنية العميقة والتحولات المرتبطة بها[32].

---

(29) A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p 295.

(30) J. Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, pp 249-250.

(31) C. Hagège, La grammaire générative, p 108.

(32) C. Chabrol, «De quelques problèmes de grammaire narrative et textuelle» in Sémiotique narrative et textuelle, Paris, Larousse, 1973, p 8.

ووفق تصور غريماس السيميائي تبقى البنيات السطحية قريبة من تمظهر الخطاب «manifestation discursive» وهي بذلك أيسر للتحليل، بينما تعد البنيات العميقة أكثر بعدا وشمولية، كما تعد التمفصلات التي تنعقد على مستواها بسيطة ومحدودة العدد مقارنة بتلك التي تظهر على مستوى البنيات السردية السطحية[33]. فالبنيات السطحية إن كانت تتركب فيما وراء «au-delà» الكلمات من خلال نسج علاقات مسارات «relations de parcours» وبرامج سردية «programmes narratifs» تتعالى على لكسيمات النص، فإن البنيات العميقة تتركب من تحت «en deçà» الكلمات من خلال تنظيم ما يتم به إنشاء هذه المسارات والبرامج السردية[34].

هذا الانتقال من البنيات العميقة إلى البنيات السطحية، ومنها إلى التمظهر، يمثل المسار التوليدي «parcours génératif» الذي تنحوه الموضوعات السيميائية أثناء إنتاجها، ويعني أن المكونات التي تشارك في عملية الإنتاج هذه تتمفصل الواحدة مع الأخرى وفق مسار ينطلق من البسيط «élémentaire» إلى المركب «complexe»، ومن المجرد «abstrait» إلى المجسد «concret»[35]. «إن النظرية التي نحاول صياغتها... تسعى إلى استكشاف كل الموضوعات السيميائية (وليس فقط عن الألسن الطبيعية) وبناء نماذج من شأنها أن تولد خطابات (وليس جملا). وبما أن كل الأصناف، حتى المجردة منها (بما في ذلك البنيات التركيبية) ذات طبيعة دلالية، ومن ثم دالة «signifiantes»، فإن هذه النظرية لا تجد أي حرج في التمييز بين مركبات ثانوية «sous-composantes» تركيبية ودلالية، وذلك على كل مرحلة من مراحل المسار التوليدي[36]. و تميز هذه النظرية بين ثلاث حقول مستقلة عن بعضها البعض، بوصفها مواضع لتمفصل الدلالة وبناء ميتاسيميائي «lieux

---

(33) J. Courtés, Analyse sémiotique du discours, p 136.

(34) Groupe d'Entrevernes, Analyse sémiotique des textes, Lyon, P. U. L., 4e éd, 1984, p 115.

(35) A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, pp 157-158.

(36) Idem, p. 159.

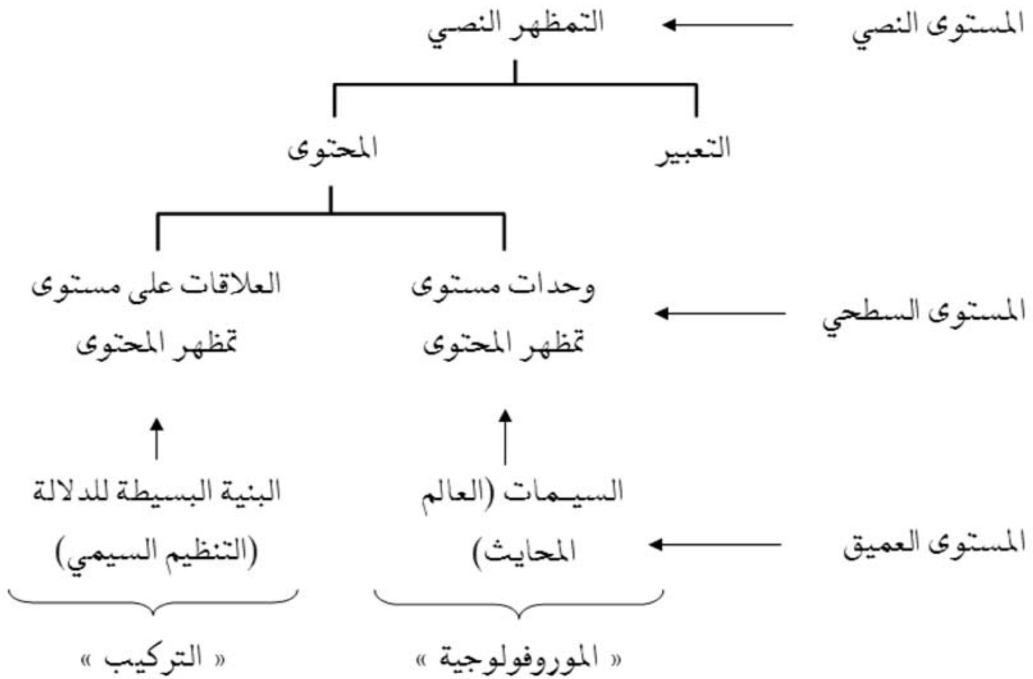
:«d'articulation de la signification et de construction méta-sémiotique البنيات السيميائية السردية «structures sémio-narratives»، البنيات الخطابية «structures discursives» والبنيات النصية «structures textuelles»[37].

لقد وقفنا في المبحث الأول من هذا الباب على بعض معالم سورة النور لعلها تبرز لنا، الآن، بعض ملامح تنظيم بنية دلالتها العميقة، ولا يمكن للسيميائيات تناول جوهر المحتوى «contenu» بالتحليل إلا في إطار شكل «forme» ما، فالمعنى - كما أشار إليه غريماس - مفهوم لا يمكن تحديده، ولا شيء يمكن إيراده بشأنه ما لم يتحقق أو يتمظهر على شكل دلالة متمفصلة، تقوم بإنتاج الفوارق الخلافية التي تحدد طبيعة الموضوع السيميائي، وتُمكن من إدراكها. وهذا يعني أن وصف المركب الدلالي «composante sémantique» للموضوع السيميائي، بمعزل عن المركب التركيبي «composante syntaxique»، إنما يتلخص في الكشف عن تمفصل؛ أي عن تقطيع صوري إلى وحدات دلالية مختلفة على كلا مستويي جوهر المحتوى: المستوى المحايث «immanent» أين تتمفصل السيمات «sèmes»، ومستوى التمظهر «niveau de la manifestation» الذي يتجزأ إلى سيميمات «sémèmes» وميتاسيميمات «métasémèmes»[38]، كما يبينه الشكل الآتي:

---

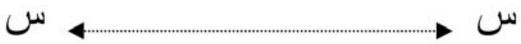
(37) Ibid.

(38) J. Courtés, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, p 45.

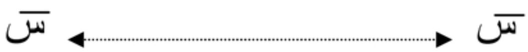

المستوى النصي
التمظهر النصي
التعبير
المحتوى
المستوى السطحي
وحدات مستوى
تمظهر المحتوى
العلاقات على مستوى
تمظهر المحتوى
المستوى العميق
السيمات (العالم
المحايث)
البنية البسيطة للدلالة
(التنظيم السيمي)
« الموروفولوجية »
« التركيب »

المربع السيميائي

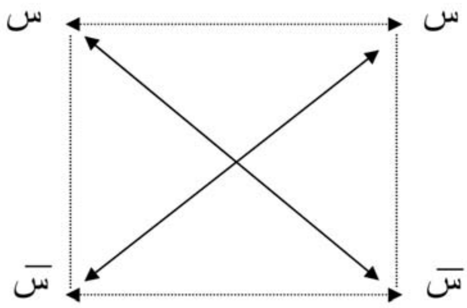
إن المعنى لا ينبثق من اللكسيمات وحدها وإنما يتحقق بإدراك العلاقات التي تنعقد فيما بين هذه اللكسيمات، وفي مستوى أعمق من تمظهرها أي على مستوى السيمات التي هي بمثابة خصائص لهذه اللكسيمات. وهذه السيميات بدورها لا وجود لها في ذاتها، وإنما تستمده من انتمائها إلى أصناف سيمية، أي أن السيم لا وجود له إلا بوجود ضده.

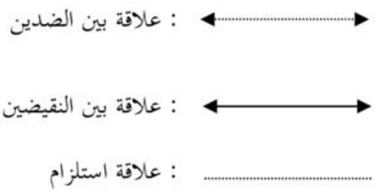


و إذا ما أخذنا كل سيم على حدا فإنه يفترض وجود نقيض له.



ثم إذا أخذنا بعين الاعتبار أن س يمكن تحديده، بعد تحديد تمفصلاته السيمية، على أنه سيم مركب «sème complexe» يجمع س$_1$ وس$_2$ بعلاقة الوصل والفصل، يمكن إذن تمثيل البنية البسيطة للدلالة على النحو التالي:





التناظر

ارتبط مفهوم التناظر «isotopie» منذ استعمالاته الإجرائية الأولى بالخطاب المكتوب، فقد كان ولا يزال مفهوما إجرائيا بالنسبة للسيميائيات السردية التي ابتكرته في مقاربتها للخطاب، وحددته بأنه مجموعة من الأصناف الدلالية المتواترة التي تتيح قراءة السرد قراءة منتظمة[(39)]. ويعرفه راستي[(40)] بأنه كل ترديد لوحدة لسانية ما، مشيرا[(41)] إلى توسيعه لتعريف غريماس[(42)] لهذا المصطلح ضمن كتابه الدلاليات البنوية؛ إذ اتسع ليشمل نظريا عددا غير محدود من الوحدات التي تتجاوز حدود الجملة، ولا يقتصر على مستوى بعينه، بل يتعداه إلى سائر مستويات النص الأخرى؛ مثل الجناس الصوتي، والجناس الاستهلالي أو القافية على المستوى الفونولوجي، والتطابق عن طريق توارد الميزات على المستوى التركيبي، والتكافؤ التعريفي، والتثليث السردي، وينتقل بذلك من مجال السيميائيات إلى اللسانيات[(43)]، ومن مستوى المحتوى إلى مستوى التعبير.

ولعل الشرح الذي يقدمه كورتاز[(44)] عن مفهوم التناظر أقرب إلى الأذهان؛ فإذا ما نظرنا - مثلا - السيميمين «sémèmes» 'ذهاب' و'حفل' منفصلين، فهما يشتملان على عدد من السيمات التي تميزهما، بيد إن نحن استعملناهما متجاورين في خطاب ما، كما في الملفوظ 'ذهب إلى الحفل' مثلا، يَنشأ التناظر الذي يُنشأ بدوره علاقة قرابة بين السيميمين تتأسس على تواجد سيم «sème» مشترك بينهما، هو سيم /المكانية/. وعلى الرغم من أن السيميم ذهب قد ينصرف إلى دلالات أخرى تقصي سيم /المكانية/ ، كما

(39) A. J. Greimas, Du sens, Paris, éd. Du Seuil, 1970, p. 188.

(40) F. Rastier, Systématiques des isotopies in A.-J. Grimas, Essais de sémiotique discursive, Paris, éd. Larousse, 19, p. 82.

(41) F. Rastier, Sémantique interprétative, Paris, éd. P. U. F., 1987, p. 92.

(42) A.-J. Greimas, Sémantique structurale, Paris, éd. P. U. F., 1986, p. 53.

(43) F. Rastier, Sémantique interprétative, p. 103.

(44) J. Courtés, Analyse sémiotique du discours, de l'énoncé à l'énonciation, Paris, éd. Hachette, 1991, 193.

هو الشأن في الملفوظات الآتية مثلا: 'ذهب حزنه'، أو 'ذهب عقله'، فإن تجاوره مع السيميم 'حفل' هو الذي يجعل المتلقي ينزع إلى اختيار سيم مشترك يقيم به تناظر الملفوظ، هو سيم /المكانية/.

بيد إن مفهوم التناظر لا يقتصر على الخطاب المكتوب فحسب، بل إن الخطاب المنطوق، على الرغم من عفويته، يلجأ هو الآخر إلى التناظر لينتظم محتواه، ويسهم في إنجاز الاستراتيجيات الخطابية أو الحوارية التي ينتهجها المتحدثون قصد تحقيق الغايات التي اجتمعوا لأجلها. ولعل المثال الذي ساقه غريماس(45) للدلالة على دور التناظر في رفع أي التباس معجمي بين المتحدثين، الذي قد يحدث نتيجة عدم تجانس فضاءات خطاب المتحدثين، أحسن دلالة على ذلك. ولذلك لا يمكن وصف مرسلة، أو أي مقطوعة من خطاب، بالتناظر إلا إذا اشتملت على سيم سياقي، أي على كلاسيم، يتردد في وحداتها المعجمية، وإذا كان التناظر يرتبط ارتباطا وثيقا بالنصية المستندة إلى علاقات الاتساق التي تقيمها أجزاء النص فيما بينها (أي وحداته المعجمية)؛ إذ لا يمكن تأويل أحدها دون معرفة ما قبله وما بعده، فالنصية تخص إذن كل التنظيم الصوري للنص بما أن هذا التنظيم هو الذي يضمن تتابع النص الدلالي، أي تناظره.

---

(45) A. J. Greimas, Sémantique structurale, p. 70.

سيميائيات النص القرآني
- سورة القمر -

أولا: النص المبتدى

نستند في عملية تنجيم سورة القمر إلى مجموعات ثلاث على النحو التالي، قصد تحليلها، إلى المبحث الثاني من الفصل الآتي:

المجموعة الأول

■ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ (2)
وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ (3) وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا
فِيهِ مُزۡدَجَرٌ (4) حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ
إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ (7)
مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ (8)﴾.

المجموعة الثانية

■ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ
فَٱنتَصِرۡ (10) فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ (11) وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ
أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ (12) وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ (13) تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14)
وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (15) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ
لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (17)﴾.

- ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ
مُّسۡتَمِرّٖ (19) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ (20) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدۡ
يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (22)﴾.

- ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (23) فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ (24)
أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ (25) سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ
ٱلۡأَشِرُ (26) إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ (27) وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ
كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ (28) فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّآ
أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ (31) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن
مُّدَّكِرٖ (32)﴾.

- ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ (33) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ (34)
نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ (35) وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ (36)
وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً
عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ (38) فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن
مُّدَّكِرٖ (40)﴾.

- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ (41) كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ (42)﴾.

المجموعة الثالثة

- ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ (43) أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ (44)
سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (45) بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ (46) إِنَّ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ (47) يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ (48)
إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ (49) وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ (50) وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ
أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (51) وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٖ
وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ (53) إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ (54) فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ
مُّقۡتَدِرِۭ (55)﴾.

المجموعة الأولى

يمكن أن نقسم هذه المجموعة إلى مقطوعتين «séquences»[46]؛

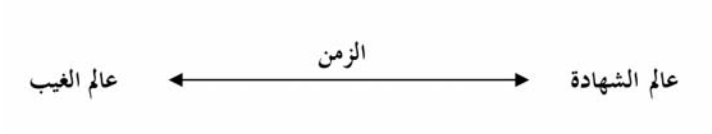
- تمتد المقطوعة الأولى حتى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، (وعليه وقف لازم كما أشرنا من قبل)، وهي تخبر عن تكذيب الكافرين للآيات وتنتهي بأمر النبي ﷺ بالتولي عنهم.

■ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾

- وتمتد المقطوعة الثانية حتى نهاية الآية الثامنة، وفيها تخبر الآيات عن يوم البعث، يومٌ يصفه الكافرون بالعسر.

■ ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (7) مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)﴾.

وبدءا يمكن التمييز بين هاتين المقطوعتين وفق المحور الدلالي 'الزمن'، على النحو التالي:



المقطوعة الأولى

1. ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ (1)﴾
2. ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2)﴾
3. ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (3)﴾

---

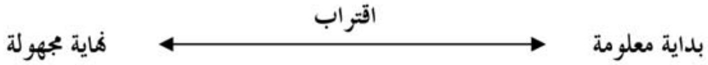
(46) ينظر بخصوص تعريف المقطوعة:
A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p. 348.

4. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿4﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿5﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾

الملفوظ الأول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾

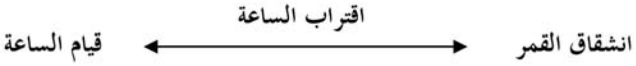
ترتهن الترجمة بتحديد طبيعة التناظر «isotopie» في الملفوظ، فهو -كما سبق أن ذكرناه عن إيكو- خليق بأن يسهم في توجيه قرارات المترجم عندما يعمد إلى اختيار هذه الترجمة أو تلك، واختيار - من بين مستويات التجانس التي يفرزها تعدد أنواع التناظر - ما هو أقرب إلى المعنى التداولي منه إلى المعنى الوصفي. فلو افترضنا أن التناظر الظاهر الذي يحققه المعنى الوصفي هو تناظر زمني يؤسس له العامل «actant» 'الساعة' الذي يقترن بفعل «acte» الاقتراب، فما علاقته بانشقاق القمر الذي لو نظرنا في تناظره لألفيناه يختلف، من حيث معناه الوصفي، عن التناظر الزمني لاقتراب الساعة؟ إن التناظر الواقع في وَانْشَقَّ الْقَمَرُ تناظر كوني، من حيث أننا اخترنا إلى أنه حدثٌ وقع في الكون في زمن معلوم وعاينته جماعة من الناس مقصودة. صحيح أننا سنلمس فيما يأتي من الملفوظات إثراء للمعنى، وتكثيفا تناظريا يحوِّل ظاهرة 'انشقاق القمر' الكونية إلى آية، فيبرزان في النص القرآني تناظرا جديدا هو من قبيل الإعجاز. إن سبيلَنا إلى مقاربة هذا السؤال النظرُ إلى طبيعة الوصل «conjonction» الحاصل بين اقتراب الساعة، ذي التناظر الزمني، وانشقاق القمر ذي التناظر الكوني.

إن الاقتراب مسار زمني ذو ابتداء وانتهاء، وهو فعل حصلت بدايته بتصريح النص به، فالبداية معلومة والنهاية مجهولة، ويمكن أن نرمز إليه على النحو التالي:



إن العامل 'الساعة' عندما يقترن بفعل الاقتراب يتخذ هو الآخر مسارا

ذو ابتداء وانتهاء، من حيث إن انتهاءه هو حصولها، أما ابتداءه فيستخلص من طبيعة الوصل بين انشقاق القمر وقيام الساعة من حيث كون الأولى ظاهرة كونية والثانية مجموعة من الظواهر الكونية، أي أن طبيعة الوصل تكمن في الاشتمال، فالثانية شاملة «englobant» والأول مشمول «englobé»، فإذا علمنا أن الابتداء إذا حصل فهو معلوم، أمكننا أن نحدد مسار الاقتراب على النحو التالي:



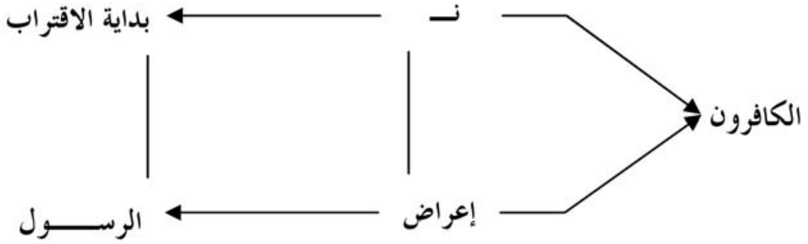
على هذا النحو يتضح التناظر القائم بين الاقتراب والانشقاق، ويضع في متناول القارئ المترجم تمثيلا بصريا «représentation visuelle» للتمفصل الدلالي للملفوظ فيسهم في توجيه الترجمة.

الملفوظ الثاني ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾

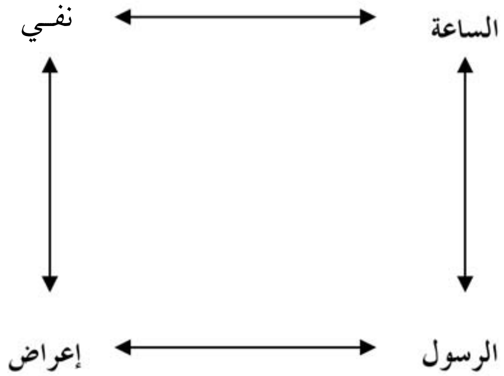
احتجنا، على المستوى السردي، إلى أن نحدد العامل الذي يعود عليه «anaphorise» ضمير الجماعة 'الواو'، فاستقر الرأي لدينا، بعد النظر في كتب التفسير، أنه 'الكافرون'. والعامل في الملفوظ الثاني يقف موقفا من محتوى الملفوظ الأول، وهو من وجهة النظر السيميائية فعل أكسيولوجي «faire axiologique»، إذ يضفي العامل 'الكافرون' حكما على الانشقاق، وهو حكم بالنفي من قبيل «dysphorie»[47]، وترتب على هذا النفي إعراض عمن وقع الانشقاق من أجله، أي الرسول ﷺ. هذا التدرج التيمي «progression thématique» للنص القرآني يصل، من جهة، الإعراض بالحكم، ومن جهة أخرى، بداية فعل الاقتراب بالمُعرَضِ عنه، على النحو التالي:

---

(47) ينظر:
A. J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p. 112.



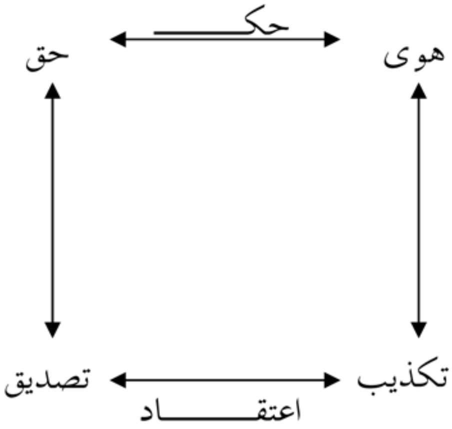
واستنادا إلى هذا، يمكننا تمثيل موقف العامل 'الكافرون' التمثيل البياني التالي:



الملفوظ الثالث: ﴿وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾

أشرنا، في تحليلنا للملفوظ السابق، إلى الفعل الأكسيولوجي الذي يحدد - على المستوى السردي - الموقف السلبي «dysphorique» الذي يتخذه العامل 'الكافرون' إزاء 'بداية اقتراب الساعة' الدال عليها 'انشقاق القمر'، المتمظهر «manifesté» في الإعراض والنفي، وقلنا أنه موقف مزدوج، إزاء النبي وإزاء الساعة. ثم يضيف التدرج التيمي في النص القرآني ميزتين أخراوتين للعامل 'الكافرون'، تتمثلان في فعلي التكذيب واتباع الهوى، أما التكذيب فهو يمثل أحد طرفي المحور الدلالي 'الاعتقاد'، طرفه

الآخر التصديق، وأما اتباع الهوى فهو يمثل أحد طرفي المحور الدلالي 'الحكم'، طرفه الآخر هو الحق. وفي الكشاف[48] أن المعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق. فلما كان الهوى يصد عن التصديق، والتكذيب يرد الحق ويدفعه، أمكننا أن نرمز إلى الفضاء الدلالي الذي يكتمل بهذا الملفوظ، من جهة العامل 'الكافرون'، بالمربع التالي:

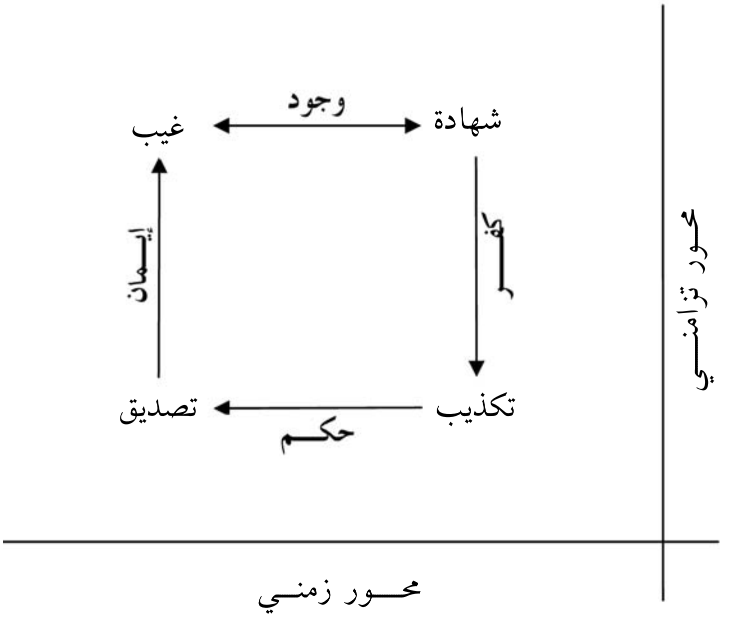


المقطوعة الثانية

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

تنتقل بنا المقطوعة الثانية من عالم الشهادة، الذي اختصت به المقطوعة الأولى فأخبرت عن موقف العامل 'الكافرون' من 'بداية اقتراب الساعة' الدال عليها 'انشقاق القمر'، المتمظهر «manifesté» في النفي، وموقفه من الرسول ﷺ بالإعراض عنه، تنتقل بنا إلى عالم الغيب، الذي تختص به فتخبر عن مآل العامل 'الكافرون'.

(48) محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، الجزء الثاني، ص1745.



إن هذا المربع السيميائي يتعلق بالعامل الأساسي في آيات المجموعة الأولى وهم الكافرون، ويمكننا المربع هذا من تتبع مساره، فهو يختار ضمن المحور السيمي 'الحكم' موقع التكذيب من الوجود بقطبيه عالم الشهادة وعالم الغيب، وهي المرحلة الأولى من المسار السردي، ثم ينتقل إلى المرحلة الأخيرة من المسار ذاته، ليتغير موقعه في محور الحكم، من التكذيب إلى التصديق، فيحصل الإيمان.

المجموعة الثانية

قال الله تبارك وتعالى

■ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿9﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ
فَٱنتَصِرْ ﴿10﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿11﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ
أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿12﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿13﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿14﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿15﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿16﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿17﴾﴾.

- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (19) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (22)﴾.

- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (32)﴾.

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (34) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (40)﴾.

- ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (42)﴾.

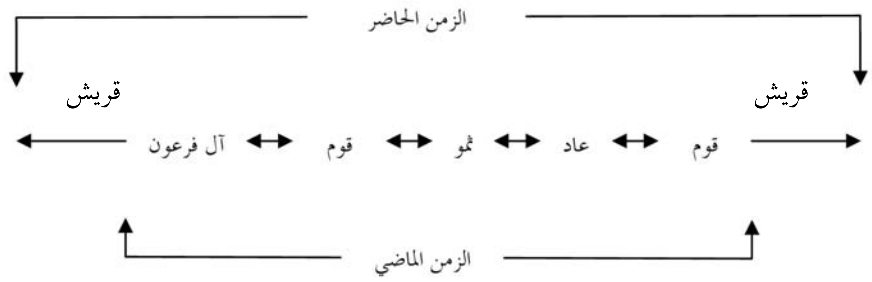
خلافاً للمجموعة السابقة من النص القرآني التي لم نلتزم في مقاربتها بمستوى واحد من مستويات التحليل السيميائي، بل زاوجنا بين التحليل اللساني، والبلاغي والسيميائي، وكانت غايتنا في مقاربة هذه المجموعة التوكيد على أهمية البعد اللساني والبلاغي معا في كل مقاربة تستهدف استكشاف المعنى وتمفصلاته، فإننا سنسعى إلى الالتزام قصد مقاربة هذه المجموعة، بمستوى واحد من مستويات التحليل السيميائي، إذ سنقترب منها انطلاقا من دلاليات الخطاب التي تألف، في إطار المسار التوليدي «parcours génératif»، مع تركيبيات الخطاب «syntaxe discursive»، مكوني البنيات الخطابية. ونحن لا نزعم من مقاربة هذه المجموعة امتلاكنا للمعرفة السيميائية والقدرة على تطبيق آلياتها ومفاهيمها الإجرائية على أي مجموعة

من مجموعات النص القرآني، بل إن قراءتنا لتفاسير هذه المجموعة هي التي أوحت إلينا بالنظر في دلاليات الخطاب «sémantique discursive» التي تعنى باستكشاف تمفصلات المعنى الناجمة عن عمليتي «thématisation»، و«figurativisation».

إن النظر في هذه المجموعة من حيث كونها مجموعة مستقلة، مكتفية بذاتها، يستند إلى التناظر «isotopie» الذي هو ميزة بارزة فيها، فهي، في مقابل تفرد كل قسم منها (عدد من الآيات) بذكر قصة بعينها (على التوالي: قوم نوح، عاد، ثمود، قوم لوط ثم آل فرعون)، تتحد في المقصد الذي سيقت من أجله في هذا المقام، وهو مقام التكذيب بالرسل وعاقبة ذلك في الدنيا. قال سعيد حوى بخصوص هذه المجموعة: «نلاحظ أن المجموعة الآتية تحدثنا عن مجموعة أمم كذبت فعوقبت، وصلة ذلك في المجموعة الأولى واضحة، فالمجموعة الأولى ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وتأتي المجموعة الثانية لترينا نماذج من المكذبين السابقين، وعقوبتهم في الدنيا قبل الآخرة، كما ورد في المجموعة الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، وتأتي المجموعة الثانية لتقص علينا من قصص السابقين ما فيه مزدجر»[49]. ولا نعني باستقلال هذه المجموعة واكتفائها بذاتها افتقادها لأي صله، تركيبية أو دلالية، بباقي مجموعات الصورة، فأول ما يطالعنا في مطلع هذه المجموعة ضمير الجماع 'هم' في ﴿قَبْلِهِمْ﴾ العائد في النص على ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وهو الرابط الأول الذي يربط المجموعة هذه بالمجموعة التي سبقتها، قال ابن كثير في تفسيرها: «أي قبل قومك يا محمد»، كما لا تفقد صلتها بما يليها من الآيات التي تتحقق، أوّل ما تتحقق، على المستوى النصي في مطلع الآية ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ التي يعود فيها اسم الإشارة ﴿أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ على كل من ذُكر اسمه في المجموعة الثانية من الأقوام السابقة. ومن هذا المنطلق، تمثل هذه المجموعة، بنية نصية في داخل بنية نصية أوسع، لا نعلم في الوقت الراهن لأسلوبها هذا سميا، ومن وجهة نظر أخرى، تمثل هذه البنية النصية

(49) سعيد حوى، الأساس في التفسير، المجلد العاشر، ص5606.

الأوسع السياق النصي الذي وردت فيه المجموعة التي نحن بصدد مقاربتها من منظور دلاليات الخطاب، يقول الجابري: «وإذا كانت سورة 'ق' تكتفي بهذا الاستعراض للأسماء بهدف تأكيد الغرض العام من القصص القرآني: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾(50)، فإن سورة القمر ورتبتها 37(51) تعود إلى كل من عاد وثمود وفرعون - مع إضافة لوط - لتسرد أخبارهم بإيجاز، وفي سياق واحد سياق التنديد بتكذيب قريش للنبي ﷺ»(52). ويمكننا أن نمثل لذلك بالشكل التالي:



ليست غايتنا من هذا الرسم سوى أن نرمز إلى البنية الصورية التي من شأنها أن نتتبع من خلالها تطور تيمتي التكذيب والتعذيب في هذه المجموعة، وقبل مباشرة هذه المقاربة يجدر بنا أن نشير إلى علاقة الاستلزام التي تنعقد بين التيمتين، من خلال التعرف على الوظيفة التي تؤديها أداة الوصل 'الفاء' التي تصل قسمي كل مقطوعة من مقطوعات هذه المجموعة.

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ... ﴿105﴾﴾
- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿23﴾﴾

(50) سورة ق، الآية 14.

(51) في ترتيب النزول، إذ الكاتب ها هنا يعالج القصص القرآني من هذا المنظور.

(52) محمد عابد الجابري، مدخل إلى دراسة القرآن، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2006، ص267.

- ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾
- ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ... ﴿٤٢﴾﴾

قال المالقي: «اعلم أن الفاء المفردة لها في الكلام ثلاثة مواضع: الموضع الأول: أن تكون حرف عطف في المفردات والجمل... وأما التي تكون عاطفة في الجمل فمُشْرِكةٌ في الكلام خاصة... والربط والترتيب لازم، وتكون معها السببية تارة ولا تكون»[53]. وقال فيها الزجاجي: «تكون عاطفة تدل على أن الثاني بعد الأول ولا مهلة، وتكون جوابا للجزاء، فيكون منقطعا مما قبله في الإعراب»[54] وقال أبو البقاء العكبري: «ومعنى (الفاء) ربط ما بعدها بما قبلها، فالعاطفة تربط بين المعطوف والمعطوف عليه، فيما نسب إلى الأول، إلا أنها تدل على أن الثاني بعد الأول بلا مهلة. وإذا وقعت جوابا علّقت ما بعدها بما قبلها، ومن هنا قال الفقهاء تدل (الفاء) على أن ما قبلها سبب لما بعدها، ومعتبر فيه»[55]. واستئناسا بهذه الأقوال، نقول إن تيمتي التكذيب والتعذيب موصولتين وصل استلزام

تكذيب ⟵⟶ تعذيب

يقع التمييز بين المستوى التصويري والمستوى التيمي، في إطار السيميائيات السردية، موقع التمييز بين الدال والمدلول، أو التمييز بين التعبير والمحتوى، أما التصويري فهو كل مدلول، ضمن فضاء دلالي ما، له مقابل «correspondant» في الواقع المحسوس، وبعبارة أخرى، هو كل ما يمكن رده إلى الحواس الخمس، أي ذي علاقة بالإدراك الحسي للعالم

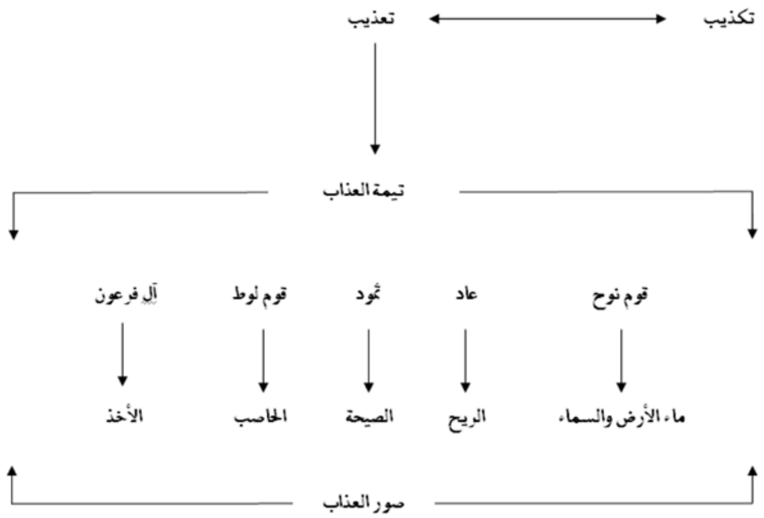
---

(53) أحمد بن عبد النور المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، صص. 377-378.

(54) أبو القاسم بن إسحاق الزجاجي، كتاب حروف المعاني، تح. علي توفيق الحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1986، ص39.

(55) أبو البقاء العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب، تح. غازي مختار طليمات، بيروت، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، 1995، الجزء الأول، ص421.

الخارجي. وأما التيمي فهو عكس ذلك، إذ هو محتوى، أو مدلول، لا صلة له مباشرة بالعالم الخارجي، فهو ذي طابع مفهومي صرف[56]. ففي أقسام المجموعة تتحقق تيمة العذاب في صور متعددة، أما قوم لوط فكان تعذيبهم بالطوفان، وكان تعذيب عاد بالريح الصرصر، وثمود أخذتهم الصيحة، وقوم لوط بالحاصب، وآل فرعون بالإغراق.



إن ما انفكت تؤكد عليه دلاليات الخطاب عدم استقلال المستوى التصويري في الخطاب عن المستوى التيمي، فإن كانت الألسن البشرية من شأنها التعبير عن مختلف التيمات دون اللجوء إلى تصويرها من خلالها ربطها بالعالم الخارجي، فإن المستوى التصويري الذي يلجأ إلى تجاربنا اليومية للتعبير عن أفكارنا، لا ينفك عن اللجوء إلى المستوى التيمي الذي يمكن من فهمه[57]، والأمر كذلك في أقسام المجموعة، إذ إن صور العذاب

---

(56) ينظر:

J. Courtés, Analyse sémiotique du discours. De l'énoncé à l'énonciation, p. 163.

(57) J. Courtés, Analyse sémiotique du discours. De l'énoncé à l'énonciation, p.164.

المختلفة والمتعددة التي تطال كل قوم من الأقوام السابقة لا تفهم إلا من خلال تيمة العذاب الذي كان جزاء التكذيب.

تقترح دلاليات الخطاب فضلا عن تمييزها بين التصويري والتيمي، وافتراض استقلالها النسبي في الخطاب، تصنيف التصويري إلى قطبين: تصويري أيقوني «iconique» وتصويري تجريدي «abstrait»، والفرق بينهما يمكن في أن التصويري الأيقوني يكاد يتطابق مع الواقع في حين أن التصويري التجريدي لا يستخدم عادة إلا القدر الكافي من الوقائع الحسية، ومما هو أقرب إلى هذا التمييز، بين ما هو تصويري أيقوني وما هو تصويري تجريدي الصورة الشمسية لشخص ما والرسم الكاريكاتوري للشخص ذاته، فبينما تستعيد الصورة الشمسية كافة معالم الشخصية، يقتصر الرسم الكاريكاتوري على صفة من صفات الشخصية دون غيرها من الصفات[58]. إن الفارق بين التصويري الأيقوني والتصويري التجريدي فارق في التكثيف الدلالي أو التكثيف السيمي «densité sémique»، وهو ما نلحظه في تصوير العذاب الذي لحق بآل فرعون في القسم الأخير من هذه المجموعة، فهو خلافا لصور العذاب الأخرى تصويري تجريدي وأقل تكثيفا منها.

(58) J. Courtés, Analyse sémiotique du discours. De l'énoncé à l'énonciation, p.169.

الفصل الثالث

آليات توجيه الفعل الترجمي

العوالم المفترضة والمعارف الموسوعية ودورها في توجيه الفعل الترجمي

أوّل المترجم قارئ، هذا ما استخلصنا من مداخلة غريماس التي اعتمدنا عليها في الباب السابق، وهي قراءة من قبيل الفعل التفسيري «faire interprétatif» كما قلنا، تثير جملة من القضايا المرتبطة بالتفسير - إذ يتعلق الأمر هاهنا بالنص القرآني -، وتنجيمه، وتسويره، وأسماء سوره، وغير ذلك من المسائل التي ما انفكت علومه تثيرها وتجدد العهد بها. ويستند هذا الفعل التفسيري إلى جملة من الأدوات الإجرائية والمفاهيم التي تشكل ما تصطلح عليه السيميائيات باللغة الواصفة.

ولا ريب في أن مصطلح القراءة ينطوي على عدد من المفاهيم التي تختلف باختلاف النظريات والمدارس التي تداولته، وإن تطوره شبيه من نواح بالتطور الذي حصل لمصطلح الكتابة، ولئن ظلت القراءة تختزن مدلولها الأول المتعارف عليه في استعمالاته العادية ومنها «التعرف على غرافيمات «graphèmes» النص أو الحروف، وتجاورهما وما ينجم عن ذلك من تحويل صور مرسومة على صفحة بيضاء إلى مستوى للتعبير عن النص»[1]، فإن المسؤوليات الجديدة التي أوكلت إلى القارئ أضفت حمولة معرفية أخرى على المفهوم، ولعل الطفرة التي أحدثها بشلار «G. Bachelard» على مفهوم القراءة بالانتقال به من استعماله العادي إلى

(1) A. J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p.206.

مفهوم القراءة الفاعلة المنتجة «active et (re)créatrice»، كان له إسهام في نشأة القراءة النقدية في أثناء سبعينيات القرن الماضي، والتي سرعان ما تم التحول عنها بسلبها صفة النقدية وإحلال التحليل اللساني (السيميولوجي أو السيميائي) محلها، غايته تثوير النص واستكشاف معانيه ودلالاته الكامنة المحتلمة. هذه القراءة الجديدة، التي مبدأها الأول تعدد القراءة، وتعدد مناحي النص فيها، لعلها هي التي استدعت بوح بارت قائلا: «إنني أكتب قراءتي»[2].

وأقرب إلى هذا المنحى ما قلنا أن إيكو سار عليه في كتابه الأخير في ميدان سيميائيات الترجمة، وخاصة في الفصل الثاني 'من النسق إلى النص' «Du système au texte»[3]، وهي قراءة سيميائية تستند إلى نوعين من المعارف، أما النوع الأول منها فيشمل المعارف اللسانية التي تكفل للقارئ التعرف على المعنى الحرفي «sens littéral»، الذي يُفترض خلوُه من اللبس «ambigüité»، وهي ميزة الملفوظات التي تحتمل عددا من القراءات أو التفسيرات الممكنة[4]، وأما الثاني فيشمل المعارف الموسوعية «connaissances encyclopédiques» التي تكفل له إزاحة هذا اللبس «désambigüisation»، من خلال استكشاف التناظر «isotopie»، أي مستويات المعنى المتجانسة، وتحديد العالَم الذي ينتمي إليه محتوى النص، وبصورة أدق، العوالم المحتلمة التي يمكن أن ينبثق فيها المعنى، إذ لا يزال حينئذ معنى مغفلا، لم تتحدد تمفصلات محتواه تحديدا كافيا يتيح للقارئ تحديد معالم العالَم الذي ينتمي إليه.

ونحن إذ نُعنى بقراءة نص قرآني، نشير إلى أن الزركشي كان قد أكد على ضرورة توفر هذين النوعين من المعارف للعمل بعلم التفسير، قال: «التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه. واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات. ويحتاج لمعرفة أسباب

---

(2) R. Barthes, S/Z, Paris, Le Seuil, 1070, p.15.

(3) U. Eco, Dire presque la même chose, pp. 41-65.

(4) A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p.13.

النزول، والناسخ والمنسوخ»[5]. فهاهنا في قول الزركشي إشارة إلى المعارف اللسانية المرتبطة باللسان العربي عموما، والنص القرآني على وجه الخصوص، وهي، علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان والقراءات، تُلِم بجميع مستويات التحليل اللساني المعهودة، من الصوت إلى المعنى مرورا بتصريف الكلمات وتركيبها، وأما ما تبقى من ذلك، من أصول الفقه، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول فلا ترتبط بالنص القرآني ذاته، بل تعنى بتلقي النص القرآني، في مجال العبادات والمعاملات، والعمل به، وقد أدرجنا المعرفة بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ في هذا النوع الثاني على الرغم من كونها أداة تسهم في الإبانة عن معنى الآيات ومقاصدها، لأنها خليقة بأن تدرج ضمن إطار البعد التداولي للنص، وكذلك شأن أصول الفقه فهي معرفة دلائل الفقه إجمالا وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد، فخرجت إذن عن إطار النص في ذاته. وهذا يعني - في عرف الزركشي - أن القارئ لا بد له، إذا ما رام نجاح أداءه التفسيري، أن يتوفر على الأدوات اللسانية والمعارف التداولية ما يكفل له تحقيق ذلك.

العوالم المفترضة

ليست المعارف اللسانية والموسوعية أسبق إحداها من الأخرى في أثناء عملية القراءة، بل هن تتضافرن معا لتثبيت النص، ومفرداته معه، في سياقين، خارجي وداخلي، محتملين. إن تحديد العالم الذي تحيل إليه مفردات النص يستند إلى استدلالات «inférence»، تتيحها قرائن نصية، يعمل السياق الداخلي للمفردات على توكيدها أو نفيها، فإذا نظرنا في تواردات مفردة الماء في القرآن لألفيناها تدل على معاني مختلفة، متعددة، مألوفة وغير مألوفة، معلومة ومجهولة، ذلك لأنها تنتمي تارة إلى عالم الشهادة، عالم العيان، العالم الذي نحي فيه ونعلم من تجاربنا وما توفره لنا حواسنا من معلومات عنه، فهو ماء لا ذوق له، ولا رائحة فيه، ولا لون له، وهو سائل ينساب، يتبخر كلما ارتفعت حرارته وتزداد كثافته كلما تدنت، وعلى

(5) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، الجزء الأول، ص27.

هذا المنوال نعرفه في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ﴾(6)، وما مثله، وتارة أخرى تنتمي مدلولاته إلى عالم الغيب فلا نعلم حقيقتها ولا كنهها في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾(7)، لأنها مدلولات تتجاوز الإدراك الحسي والعقلي معا. وفي كلتا الحالتين، يأتي السياق ليضفي مزيدا من التبيان، ولو نظرنا في بعض الآيات الآتية المشتملة على مفردة الماء،

- ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(8)
- ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾(9)
- ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾(10)
- ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾(11)
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(12)
- ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾(13)
- ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾(14)
- ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾(15)

---

(6) سورة البقرة، الآية 22.
(7) سورة هود، الآية 7.
(8) سورة البقرة، الآية 164.
(9) سورة الجن، الآية 16.
(10) سورة القمر، الآية 11
(11) سورة القمر، الآية 12.
(12) سورة الأعراف، الآية 50.
(13) سورة الواقعة، الآية 31.
(14) سورة الكهف، الآية 29.
(15) سورة إبراهيم، الآية 16.

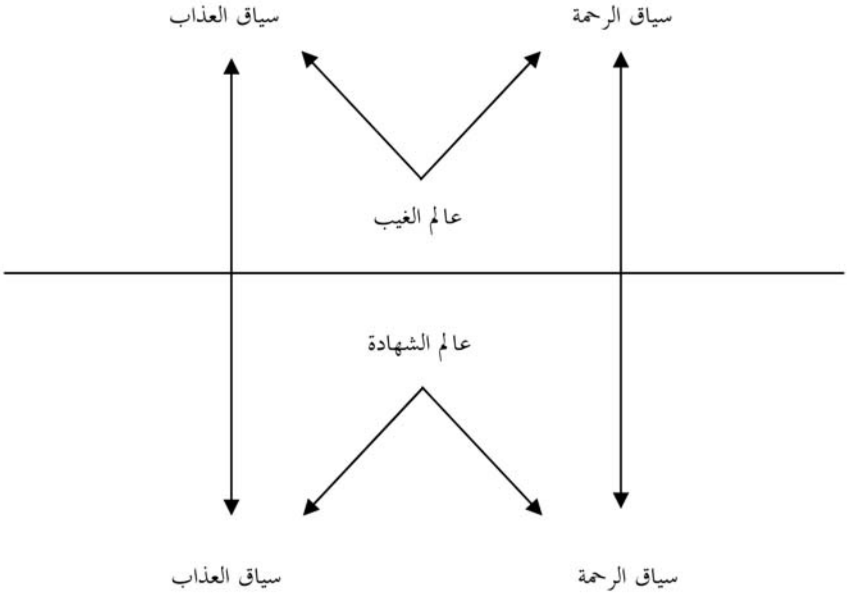
لألفينا معانيها تتمفصل على النحو الآتي:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾



﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾

﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾

﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾

لم نستقص كل تواردات الماء في النص القرآني جملة وتفصيلا، وقد بلغت أكثر من خمسين تواردا، ومن ذلك دلالة الماء، في بعض الآيات من مثل قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾(16)، وقوله سبحانه وجل ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾(17)، على غير معناه الصريح، كدلالته مجازا على المني. كما إننا اقتصرنا على السياق النصي المباشر، أو الضيق «restreint» الذي وردت فيه مفردة الماء، ذلك أننا إن أفسحنا فيه ليشمل كل الآية أو يجاوزها إلى آية مجاورة أو أخرى، لألفينا أن دلالة الماء لا تقف عند هذا الحد من التدلال، بل تجاوزه إلى دلالات سياقية أكبر كما في قوله جل وعلى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(18)، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(19)، التي تدل على البعث والنشور.

وليس خفيا إذن أن الماء، بوصفه عاملا «actant» من وجهة نظر السيميائيات السردية، يضطلع بوظائف تحدد معناه ويُحيِّنها «actualise» السياق، وهي وظائف خليقة بأن تنتظم في شكل أزواج، أو أصناف سيمية «catégories sémiques»، من قبل الموت/الحياة، الرحمة/العذاب، الخلق/النشور، وتحدد حين إذن العالم الذي تحيل إليه، وتوجه القارئ المترجم إلى اختيار المكافئ الأقرب.

المعارف الموسوعية

إن التطور والتجدد اللذين ما انفكا يميزان الممارسة الترجمية في عصرنا الحالي ما فتئا يفرضان على المترجم الاستعانة بالمعارف الموسوعية لنقل مختلف النصوص، سواء أتعلق الأمر بالنصوص الأدبية أم النصوص

(16) سورة المرسلات، الآية 20.
(17) سورة الطارق، الآية 6.
(18) سورة فصلت، الآية 39.
(19) سورة الزخرف، الآية 11.

العلمية وغيرها، ولقد كان ساو جوزي[20] «L. Saâo José» منذ خمسينيات القرن الماضي قد على ضرورة توفر مثل هذه المعارف في المترجم، ومن ذلك علم الجيولوجيا، فمن رام ترجمة كتاب مدرسي في الجيولوجيا لا يجب أن تقتصر معارفه على اللسان المجري ويطمئن إليها، بل يجب أن تكون له فضلا عن ذلك معرفة بعلم الجيولوجيا. وقد كان لديرال[21] «J.-René Ladmiral» قد خلص في مبحثه عن الترجمة المصطلحاتية «terminologie» إلى ضرورة توافر المعارف اللسانية والعلمية والموسوعية قصد تجاوز العقبات التي تحول دون نقل موقف للمصطلحات من لسان إلى آخر.

ولنضرب من ثقافتنا الإسلامية لذلك مثلا، فإذا رام أحدهم (من المستشرقين أو غيرهم) أن ينقل مصطلح 'النص' كما يستعمله الأصوليون إلى أحد الألسنة الغربية، لا بد له أن يعلم أن المصطلح يطلق على معان، وأن تحديد معناه منوط بمعرفة مختلف مذاهب علماء الأصول، واختلاف المدارس الفقهية، ومسائل المتكلمين، وطرائقهم في «وضع قوانين تتخذ أساسا في استنباط الأحكام التي تنشأ دائما بتجدد الأحداث والوقائع نتيجة تطور الزمن وتقدمه من ناحية، وامتزاج شعوب الحضارات المختلفة التي تلاقت مع الحضارة الإسلامية من ناحية أخرى»[22]، وغير ذلك من المعارف الموسوعية الأخرى التي لا مناص للمترجم من الحصول عليها بغية الحصول على المكافئ الأفضل ولو في ميدان المصطلحات.

معرفة أسباب النزول

خلصت البحوث التداولية الحديثة إلى ضرورة إدراج السياق كمكون أساسي في إنتاج المعنى وفهمه، وذلك بالتمييز بينه وبين دلالة العلامات

(20) Cité par I. Oseki-Dépré, Théoris et pratiques de la traduction littéraire, p.61.

(21) J.-R. Ladmiral, Traduire: théorèmes pour la traduction, Paris, Gallmiard, 1994, p.222.

(22) السيد أحمد عبد الغفار، التصوير اللغوي عند الأصوليين، إسكندرية، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، 1981، ص10.

اللسانية التي تتألف منها الجمل، والتخلص نهائيا من الاعتقاد التقليدي الذي يعتبر المعنى الإجمالي للجملة مجرد مجموع دلالات كلماتها التي تتكون منها. وقد خلصت كذلك إلى تقسيم السياق إلى سياق لساني مباشر، أو ما يسمى بالسياق النصي «cotexte» والسياق العام وهو مجموع الظروف الاجتماعية والتاريخية والسيكولوجية وغيرها، ولكل من السياقين دور في تحديد المعنى، فالسياق النصي يحد من تعدد دلالات العلامات ويخصصها عن طريق قرينة نصية مرتبطة بها الدلالة التي يمكن استخلاصها من بين مجموع الدلالات، أو الحقل الدلالي الذي يمكن أن يستدعيه حضورها في هذا المكان من السياق النصي أو ذاك. أما السياق العام، فإنه يمكن المتلقي من فهم قصد المتكلم الذي قد لا يكون بالضروري مكافئا للمعنى العام، كما نجحت في بلورته نظرية أفعال الكلام. وإذا ما نظرنا إلى النشاط الترجمي، جاز لنا أن نرسم الخطوات العامة للمترجم وفق التمييز الذي أقمناه بين السياق النصي والسياق العام، فالمترجم ينطلق لا محالة من السياق النصي لتحديد دلالة العلامات اللسانية ثم تأويل هذا النص وفقا لمؤشرات السياق العام حتى يصوغ ترجمة قادرة على المحافظة على المعنى الإجمالي والأثر الذي كان يرجى تحقيقه في النص الأصلي.

إن نظريات التلفظ، السيميائية واللسانية منها، التي عنيت بدراسة السياق وأثره في إنتاج الدلالات وفهمها كثيرة ومتعددة، ولا ريب في أن الترجمة، ممارسة وعلما، قد تستفيد كثيرا مما خلصت إليه هذه النظريات، سواء أتعلق الأمر باللسانيات الاجتماعية «sociolinguistique» التي تسعى جاهدة إلى استكشاف العلاقات التي تقيمها الألسن مع المجتمعات التي تنشط فيها، أو بالتداوليات اللسانية التي نشأت عن نظرية أفعال الكلام التي جعلت من السياق محور تحليلاتها، أو أيضا بنظرية تحليل الخطاب وغيرها من النظرية العلمية الأخرى التي أسهمت في بلورة مفهوم للسياق خاص بها. كما إن النظرية السياقية للدلالة وارتباط نشأتها لدى ملينوفسكي بالترجمة، مؤشر آخر على ارتباط الترجمة بالتداوليات من مناح عدة، ففضلا عن السياق، سواء تمثل في الحال التي تحيط بالمتخاطبين أو ما يحيط مباشرة بالنص، أي السياق النصي، فإن كثيرا من القضايا التي عالجتها التداوليات

تفيد كثيرة علم الترجمة وممارستها. ولعل نظرية أفعال الكلام، التي نشأت على يد أوستين «J. Austin» وبدأت في التطور ابتداء من كتابات سيرل «J. Searle» وديكرو «O. Ducrot» وغيرهما[23].

ولا ريب في أن فهم دلالة مفردات القرآن، والمعاني والمقاصد التي يمكن استخلاصها من آياته وسوره كثيرا ما كان يرتبط عند مفسريه - على اختلاف توجهاتهم - بفهم الظروف الاجتماعية والسياسية التي رافقت تلقي القرآن واستدعت نزول الآية والسورة. ولعل مبحث أسباب النزول من بين المباحث القرآنية التي عملت على توكيد هذه المعطى. قال ابن عقيلة المكي[24]: قال الجعبري: «نزول القرآن على قسمين، قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال. انتهى. أقول: وهذا يجب أن يبحث عنه لفوائد: منها معرفة الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها أن اللفظ قد يكون عاما، وحمله على العموم يشكل، لمعارضته لآيات أخر أو نحو ذلك، فإذا علم السبب قصر على صورة المسبب. وقول ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب. ومهما كانت الأسباب التي دعت نزول الآية، فإن معرفة سببها بين أن المعنى غير ما تبادر من اللفظ. ومن فوائد علم أسباب النزول أن اللفظ قد يراد به المعارضة، والرد على قوم لإثبات أمر أو حكم، فإذا علم أن السبب هو الرد والمعارضة اتضح المعنى، وإذا لم يفهم استشكل. وقال ابن تيمية قولهم إن الآية نزلت في كذا يراد به تارة أن ذلك سبب نزولها، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن سببا، كما يقال عني بالآية كذا».

وقال الشاطبي في موافقاته: «معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن. والدليل على ذلك أمران: (أحدهما) أن علم المعاني والبيان التي

---

(23) ينظر:

J. Latraverse, La pragmatique. Histoire et critique, Bruxelles, P. Mardaga, 1987, Ch. 5, pp. 161-191.

A. Reboul et J. Moeschler, La pragmatique aujourd'hui, Paris, Seuil, 1998.

(24) بن عقيلة المكي، الزيادة والإحسان في علوم القرآن، الشارقة، جامعة الشارقة، ط 1، 2006، ج1، ص299.

يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، كالاستفهام، لفظه واحد، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك؛ وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها. ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال: وليس كل حال ينقل ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب هو معرفة مقتضى الحال. وينشأ عن هذا الوجه (الوجه الثاني) وهو أن الجهل بأسباب النزول موقع في الشبه والإشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع، ويوضح هذا المعنى ما روى أبو عبيد عن إبراهيم التيمي، قال: خلا عمر ذات يوم، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين. إنا أنزل إلينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما نزل وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يدرون فيما نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. فزجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه، فقال: أعد علي ما قلته، فأعاد عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه، وما قاله صحيح في الاعتبار»[25].

قال أبو حيان الأندلسي: «هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقيل: هي مما نزل يوم بدر، وقال مقاتل: مكية إلا ثلاث آيات أولها ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ﴾ وآخرها ﴿أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، وسبب نزولها: أن مشركي قريش قالوا للرسول: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل،

(25) الشاطبي، أبو إسحاق بن موسى، الموافقات، تح. أبو عبيدة بن حسن، السعودية، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1997، ص348.

وكانت ليلة بدر، فسأل ربه، فانشق القمر نصف على الصفا، ونصف على قيقعان، فقال أهل مكة: آية سماوية لا يعمل فيها السحر، فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاؤا فأخبروا بانشقاق القمر،، فأعرض أبو جهل، وقال: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾»[26].

معرفة السياق

إن تعريف الترجمة بأنها فهم معاني النصوص المراد نقلها وصياغتها وفق القواعد التركيبية للسان المنقول إليه، قد يوحي بأن المترجم لو اكتفى بمراعاة هذين المطلبين؛ أي إدراك المعنى وتمثله، ثم صياغته صياغة تركيبية سليمة، تمكن من إنجاز ترجمة دقيقة ووفية. بيد إن الأمر ليس بسيطا كما قد يبدو، لأن المعنى، وهو المراد نقله، يشترك في إنتاجه وإدراكه، فضلا عن مكونيه التركيبي والدلالي، مكون آخر يرتبط بالفرد المنتج للنص، والسياق الذي أنتج فيه، والغايات التي ألف من أجلها. وبعبارة أخرى، لا يمكن للمترجم أن يقتصر على نقل المعنى الوصفي للنص المراد ترجمته، بل يجب أن يسعى – كذلك – إلى إدراك معناه التداولي والحرص على نقله، فعلى الرغم من الإسهامات التي ما فتأت تقدمها التركيبيات والدلاليات في سبيل استكشاف الآليات التركيبية والدلالية التي تستند إليها الترجمة، وعلى الرغم كذلك من المعرفة اللسانية المتقدمة التي أصبحت في متناول المترجمين، فإنه من الشطط الاعتقاد في قدرة اللسانيات وحدها على الإلمام بكل القضايا الناجمة عن ممارسة الترجمة واقتراح الحلول المناسبة لها. وبين هذا الاعتقاد والدعوة إلى تخليص الترجمة كلية من هيمنة اللسانيات، اتخذ مونان «G. Mounin» موقفا وسطا، فمن الخطأ – في رأيه[27] – احتجاز الترجمة، بقضاياها وحلولها، في حدود اللسانيات، وفي حدود اللسانيات الوصفية الحديثة واللسانيات البنوية على وجه الخصوص.

(26) أبو حيان التوحيدي، تفسير البحر المحيط، الجزء الثامن، صص. 170–171.

(27) G. Mounin, les problèmes de théoriques de la traduction, p.228.

وإذا سلمنا بأن الترجمة غايتها نقل المعاني من لسان إلى آخر، فإن هذا النقل لا يمكنه أن يقتصر على انتقاء الصيغ اللسانية المناسبة من النسق المنقول إليه، الكفيلة بالتعبير عن المعنى المراد نقله، ذلك لأن المعنى ليس فقط حصيلة اتحاد بين دال ومدلول، ولا هو مجموع دلالات الألفاظ التي يتكون منها النص أو الملفوظ أو الجملة. إنما المعنى، فضلا عما تقدمه له الصيغ التركيبية قصد تشكله، يرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف الخارجية التي تحيط به، في تفاعل مستمر بين الأدوات اللسانية الداخلية التي تعين على نقله، والعوامل الخارجية التي تحدده وتمكن من تأويله أو تفسيره، ومن ثم ترجمته إلى فعل من قبل متلقيه. وقد يكون هذا خلاصة ما أشار إليه جورج مونان[28] بقوله إن معرفة الكلمات لا تكف، بل يجب معرفة الأشياء التي يتحدث عنها النص المراد ترجمته، أي إن الترجمة لا تخص ما هو لساني بحت، بل يشترك في ذلك ما هو غير لساني، وما يتصل بالسياق والحال، ويستلزم معرفة موسوعية «savoir encyclopédique» وإثنوغرافية، فالترجمة تستلزم في رأي مونان[29] شرطين أساسيين لا غنى لأحدهما عن الآخر، معرفة الألسن الأجنبية، وإثنوغرافيا «ethnographie» الأمم التي تتكلم هذه الألسن، وهو يعني بها، أي الإثنوغرافيا، الوصف الشامل للثقافة كلها، ويعني بالثقافة، مجموعة الأنشطة ومؤسسات هذه الأمم، (التكنولوجيات، المجتمع وبنيته، تنظيم نسق المعارف، القانون، الدين، الأخلاق، والأنشطة الجمالية)، مشيرا إلى قول ترغر[30] «Trager»، بأن العلاقات التي تنعقد بين اللغة وكل الأنساق الثقافية الأخرى هي التي تختزن دلالات الصيغ اللسانية.

ولا يتلخص البعد التداولي للفهم، بوصفه مقدمة ضرورية للترجمة، في معرفة العوامل الخارجية، أو السياق الذي أنتج فيه النص، ولا بالفرد المنتج له، أو الغايات التي ألف من أجلها، بل إن كثيرا من الكلمات والجمل التي نستخدمها في أثناء معاملاتنا اليومية، سواء أتعلق الأمر بالمنطوق أو

---

(28) G. Mounin, Linguistique et traduction, Paris, Sessart et Mardaga, 1976, p.44.

(29) G. Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction, p.236.

(30) Trager, The field of linguistics, S. I. L., Occasional papers, n1, 1949.

المكتوب، مثل أسماء الإشارة، وعبارات التحية وغيرها، تكتسي في ذاتها طابعا تداوليا من الضروري أن تلتزم عملية الترجمة بنقله هو، كي لا تتعرض للنقد والقدح في مصداقيتها، ومدى وفائها للنص المراد ترجمته، وبعبارة أخرى، فإن مقصدية «intentionnalité» النص يجب أن تبرزها الترجمة هي الأخرى.

إن عدم ثبات معنى النص «instabilité du sens» تعد من بين الميزات التي كثيرا ما تؤرق المترجم، فالنص - كما يراه إيكو(31) «E. Eco» - عبارة عن نسيج من المسكوت عنه «non-dit»، بمعنى أن عددا من مكونات المعنى غير معبر عنها في المستوى السطحي للنص. ولهذه الميزة أسباب عديدة، قد تكون - في نظر إسرائيل(32) - لغايات جمالية، أو إن المتلفظ، لثقته في فهم المتلقي وإدراكه لما هو مسكوت عنه، لا يرى ضرورة في إبراز بعض معطيات النص التي تشارك في إظهار المعنى. وعموما، فإن مبدأ الاقتصاد اللغوي «économie du langage» يفضي إلى إسكات كل ما هو عرضي في فهم مقول القول، لاسيما تلك التي يتكفل السياق أي الوقائع غير اللسانية بإبرازها. إن المعنى وثيق الصلة إذن بكل عناصر التلفظ، وهو خلاصة تفاعل مستمر بين ما هو لساني وما أسماه راستيي(33) «F. Rastier» بمحيط «entour» النص، واستنادا إلى هذا، فإن المترجم إن لم يوفق في نقل ما هو ضمني فإن ترجمته ستكون لا محالة غير مكتملة ويعتريها النقص.

السياق النصي أو المناسبة بين الآيات

وإن كان مفهوم السياق كما جئنا على بسط مكوناته أقرب إلى مفهوم أسباب النزول من حيث إحالته إلى العالم المحيط بالنص، فإن مفهوم السياق النصي يرتبط بالنص ارتباطا وشيجا، إذ يضع المفهومُ النصَ بين

(31) U. Eco, Lector in Fabula, tr. M. Bouzaher, Paris, Grasset, 1985, p.65.

(32) F. Israël, Souvent sens varie. Le traducteur face à «l'instabilité» du sens», in M. Lederer (éd.), Le sens en traduction, Caen, Lettres modernes Minard, 2006, p.13.

(33) F. Rastier, Sens et textualité, Paris, Hachette, 1989, p 20.

نصين، نص سابق، وآخر لاحق، يقول غريماس وكورتاس[34]: «نعي بالسياق، مجموع النص الذي يسبق، و/أو يرافق الوحدة التراطبية «unité syntagmatique»، الذي يرتبط معناها بها»، ولما كان السياق النصي من بين الآليات المؤسسة للفعل التفسيري للنصوص القرآنية، فقد اعتنى به علماء القرآن ووضعوا له مصطلح المناسبة.

يستند مفهوم المناسبة كما يطرحه الزركشي، ومفهوم التناظر «isotopie» كما يعرفها كورتاس، كلاهما إلى مفهوم القرابة «parenté»، يقول الزركشي[35]: «المناسبة في اللغة المقاربة وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه ويشاكله ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة ومنه المناسبة في العلة في باب القياس الوصف المقارب للحكم لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها والله أعلم إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»، ولو نظرنا إلى تعريف كورتاس[36] لألفيناه هو الآخر يرتكز إلى مفهوم القرابة، إذ إن الكلمات (السيميمات «sémèmes» على مستوى المحتوى) لا تتجاور حتى تشترك في واحد أو أكثر من السيمات التي تتكون منها، لكن التعبير الأمثل عن مسألة التناظر ما عبر عنه غريماس في أثناء تحليله لأقصوصة من أقاصيص موبسان

(34) A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, pp. 66-67.

(35) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، الجزء الأول، ص41.

(36) J. Courtés, Analyse sémiotique du discours, p.193 et s.

«Maupassant»، يقول غريماس[37]: إن المسألة التي تعترضنا - على المستوى النصي - عندما نروم الانتقال من جملة إلى التي تليها، هي مسألة انسجام «cohérence» الخطاب، إذ إن وجود الخطاب - وليس فقط تتابعا من الجمل المستقلة - لا يمكن الإقرار به ما لم بإمكاننا افتراض تشاكل لمجموع الجمل التي يتألف منها، وهو تشاكل يمكن التعرف عليه من خلال توارد صنف لساني أو مجوعة من الأصناف اللسانية على امتداد النص.

وإن أدرك عدد من الباحثين المحدثين أهمية مفهوم المناسبة في انسجام الخطاب، وقد ألفينا محمد خطابي[38] يدرجه بأنواعه ضمن الآليات النصية التي تكفل للخطاب انسجامه، فإننا في مجال السيميائيات، ونعني بها تحديدا آلياتها التي وضعت لاستكشاف تمفصلات المحتوى من مثل مفهوم التناظر، نلفي إسهام البقاعي، والسيوطي، وغيرهما، في الكشف عن طرائق ترابط الآيات والسور فيما بينها ترابطا يكفل لها انسجامها، من بين الإسهامات الجليلة في ميدان هذا البحث، وهو ما نرجو إيضاحه في سياق حديثنا عن التناظر في سورة القمر، دون أن نغفل عن الغاية التي نرومها من هذا العمل، نعني به إسهام بعض الآليات الإجرائية للسيميائيات وما اخترناه مما ينوب عنها، من علوم القرآن، ما يتوافق وتحليل النص القرآني، توجيه الترجمة ونقدها.

إن الناظر في ترجمة القرآن، على مستوى تشاكلها، لا بد له، من منظورنا هذا، أن ينظر أولا في تناسب الآيات على مستوى دلالاتها - طبعا - ثم ينظر إلى ترجمتها وفق مفهوم التناظر الإجرائي، ويقابل حينئذ ما توصل إليه من نتائج في كلا التحليلين، وقد يمكنه ذلك من الوقوف على مدى وفاء الترجمة في نقل مسار الدلالات وتشاكلها، ومن ثم توجيه الترجمة.

---

(37) A. J. Greimas, Maupassant. La sémiotique du texte : exercices pratiques, Paris, Seuil, 1976, p.28.

(38) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، الدار البيضاء المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2006، صص. 193-205.

المعارف اللسانية ودورها
في توجيه الفعل الترجمي

المعارف اللسانية

تستلزم ممارسة الترجمة اكتساب جملة من المعارف اللسانية الكفيلة باستخراج المعنى من صلب التركيب الذي صيغ فيه، وصبه في تركيب آخر مختلف عنه اختلاف الألسن فيما بينها، وتفرد كل واحد منها في التعبير عن الواقع ووصفه. ولعل من نواحي التفرد بين الألسن وتمايزها تنوع طرائقها في تنظيم وحداتها ضمن جمل ونصوص وملفوظات، فإذا خفي عن المترجم بعض سننها في ترتيب وحداتها وتعدد مجاري الكلام بها، تعذر عليه الإحاطة بجميع المعنى. وبقدر ما يتجاوز المعنى مجموع دلالات الألفاظ التي يتكون منها النص، بقدر ما للتركيب من أهمية في التعبير عنه، باختيار الترتيب المناسب ومراعاة مقتضيات النحو فيه، فإذا فقه المترجم ذلك، وعلم من الجرجاني[39]، أن ليس النظم شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم، تكشفت له سبل التعبير عن المعنى المنقول، وانتظمت بيسر أمامه وحدات اللسان المنقول إليه.

(39) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمد محمود شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، 2000، ص55.

التنظيم التركيبي للسورة

لا ريب في أن المعرفة بالقواعد التي تحكم مواقع الوحدات اللسانية داخل الجمل، تعد من بين أهم المعارف اللسانية التي يجب على المترجم تحصيلها. ولعل اختلاف الألسن في تركيب وحداتها اللسانية، وتنوع طرائق المتكلمين بها في الإفصاح عن تجاربهم، من بين التحديات الكبرى التي ما انفكت تواجه المترجم، إلى درجة أن مستوى التعبير ظل الشغل الشاغل لدى من سبق من منظري الترجمة، من فرط اطمئنانهم إلى القدرة على نقل المعاني من لسان إلى لسان آخر، والاعتقاد بأن العقبة الوحيدة تكمن - في نظرهم - في التمكن من التعبير عن هذا المعنى وصياغته صياغة تُحسن الوفاء له والصدق في نقله، فتبوأت التركيبيات مكانة هامة ضمن الدرس اللساني وشغلت حيزا معرفيا هاما في تعليم الترجمة وأصولها.

ولما كانت طبيعة البشر في التخاطب فصل الكلام بعضه عن بعض حتى تُستوفَى المعاني البسيطة ويَتدرج الكلام في التعبير، وكان أُنزل القرآن بلسان عربي، اشتمل النص القرآني على صفة فصل الكلام ووصله. ولا ريب حينئذ أن المعرفة بمواطن الفصل والوصل في النص القرآني من بين المعارف لا يستغنى عنها قط في سبيل الوقوف على تشكلات فضاءه الدلالي، وتمفصلاته. فالمعنى من وجهة النظر السيميائية التي انتهجنا في هذا البحث مفهوم لا يمكن تحديده، ولا شيء يمكن إيراده بشأنه ما لم يتحقق أو يتمظهر في شكل دلالة متمفصلة، تقوم بإنتاج الفوارق الخلافية التي تحدد طبيعة الموضوع السيميائي، وتمكن من إدراكها.

وحتى نتمكن من إبراز التنظيم التركيبي للسورة، نحاول تقسيمه «découpage»، وهو أول إجراء تعمد إليها السيميائيات في تحليلها للنصوص(40)، إلى مقاطع نصية «séquences»، استنادا إلى المعايير التالية: نعمد أولا إلى معرفة الموضوع العام الذي يشتمل عليه النص القرآني، ثم نحاول الوقوف على المقاصد الرئيسة التي اشتملت عليها، من خلال تقسيم

(40) A. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p.84.

النص إلى مقاطع نصية تف بهذا الغرض، ثم نحاول تقسيم هذه المقطوعات إلى ملفوظات بالاسترشاد بعلامات الوقف وأقوال علماء القرآن فيها. ولقد تتبعنا جملة من كتب التفسير لعلنا نجد فيها ما نحن نرومه، وطال بنا البحث والتحري حتى وقفنا على تفسير الشيخ سعيد حوى[41]، 'الأساس في التفسير' الذي انتهج فيه منهجا يعمد أولا إلى تقديم نظرة شاملة كلية عن سور القرآن ومحاورها، ثم إطلالة عن سياقها، وبعدها يقوم بتقسيم السورة إلى مقاطع وفقرات، وقد استأنسنا كثيرا إلى مصطلح المحور الذي يستخدمه سعيد حوى، لما له، إن كان على مستوى المحتوى، قرابة بمصطلح «axe sémantique» الذي تستخدمه السيميائيات السردية، والمحور الدلالي، في عرف السيميائيات، عبارة عن علاقة بين عنصرين، وهي تؤول في التحليل السيميائي إلى الصنف السيمي الذي يتمفصل بصفة منطقية بموجب البنية البسيطة للدلالة.

موضوع سورة القمر

يرتبط مصطلح المقصد، ببعض المصطلحات المتقاربة التي اصطنعتها السيميائيات السردية، والتحليل النصي على وجه العموم، كمصطلح التيمة «thème»، عند غريماس[42]، ومصطلح المدار «topic» لدى إيكو[43] وغيرهما، ويمثل مصطلح التيمة، في غير الأبحاث السيميائية، إجراءا نقديا لا غنى عنه، وهو لا ريب أحد ركائز المقاربات التيمية «critique thématique»، المنضوية ضمن تيار النقد التيمي الذي تمثله بفرنسا أعمال بشلار«G. Bachelard»، وبولي «G. Poulet»، وستروبنسكي «J. Starobinski»، وريشار «J. P. Richard»، فتيمة النص هي المبدأ الذي ينتظم

(41) سعيد حوى، الأساس في التفسير، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1985.

(42) A. J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p.396.

(43) U. Eco, Lector in *fabula*, tr. M. Bouzaher, Paris, B. Grasset, 1985, pp. 114-115.

وفقه هذا النص[44]، وتعرف هذه المقاربة في أدبيات البحث العربي الحديث بالنقد الموضوعي[45]، أما من جملة من عني بموضوعات سور القرآن الكريم، فقد استقر لدى بعضهم أن للسورة وحدة موضوعية تتحد فيها آياتها، ولا شك في أن العلم بموضوعات السور من المعارف التي عني بها التفسير الموضوعي[46] «exégèse thématique»، فهو العلم الذي يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر، وفي هذا الشأن يقول الشاطبي[47]: «إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها تكون قضية واحدة، أي تهدف إلى غرض واحد أو تسعى إلى إتمامه، وإن اشتملت على العديد من المعاني» ولعل ما حكاه البقاعي[48] عن شيخه أبي الفضل محمد البجائي توكيد لهذا المعنى، قال الشيخ: «الأمر الكلي المقيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات من القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف

(44) M. Collot, «Le thème selon la critique thématique», in Communications, n 47, 1988, p.80.

(45) ينظر مثلا:

محمد عزام، المنهج الموضوعي في النقد الأدبي، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999.

(46) ينظر:

- عباس عوض الله عباس، محاضرات في التفسير الموضوعي، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، 2007.

- عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية، 1991.

- مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دمشق، دار القلم، الطبعة الأولى، 1989.

- عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية، 1991.

(47) الشاطبي، كتاب الموافقات، المجلد الثالث، ص249.

(48) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الجزء الأول، ص17.

إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة، والله الهادي».

تذكر بعض التفاسير[49] التي عنيت بمواضيع سور القرآن أن المحور الرئيسي الذي تدور حوله سورة القمر هو التذكير بالآيات والنذر، وبيان مصير المكذبين بها، وهذه الآيات هي آيات اقتراب الساعة، قال الفخر الرازي[50]: «فلما رأوا انشقاق القمر أعرضوا لتلك العادة، وفيه مسائل: الأولى، قوله ﴿ءَايَةً﴾ ماذا؟ نقول: آية اقتراب الساعة، فانشقاق القمر من آياته، وقد ردوا وكذبوا» وفي موضوع السورة الإجمالي يقول سعيد حوى[51]: «والحقيقة أن السورة كلها - تقريبا - حديث عن الإنذار، والتكذيب، وعدم استفادة الكافرين من الإنذار، وجزائهم في الدنيا والآخرة».

أقسام السورة بحسب مقاصدها أو تنجيم النص

ليست عملية تنجيم النص (أو تقسيمه) «découpage» إلى مقطوعات نصية إجراء «procédure» استأثر به التحليل السيميائي الناشئ عن مدرسة باريس[52]، بل هو إجراء تشترك في العمل به عدد من النظريات النصوصية، وفي هذا الشأن نلفي بارت[53] «R. Barthes» ضمن «S/Z»، يعبر عنه بعبارة 'النص المنجم' «Le texte étoilé»، وهو إجراء يعمد إلى النص فينجِّمه إلى

(49) مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، الشارقة، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، 2010، ص512.

(50) محمد الرازي فخر الدين، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1981، صص. 29-30.

(51) سعيد حوى، الأساس في التفسير، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1985، ص5602.

(52) A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p.84.

(53) R. Barthes, S/Z, p.18.

وحدات نصية «lexies»، يقول بارت[54]: «إن النص سيقع إلى سلسلة من شذرات قصيرة متجاورة، ستسمى هنا وحدات قرائية، لأنها وحدات القراءة. ولا بد من القول إن هذا التقطيع يسكون اعتباطيا تماما، ولن يتضمن أي مسؤولية منهجية، لأنه سيتناول الدال، في حين أن التحليل المقترح سيتناول المدلول، فحسب. وستشمل الوحدة القرائية تارة بضع كلمات، وتارة أخرى بضع جمل، فهي مسألة تتعلق بتسهيل المعالجة: يكفي أن تكون الوحدة القرائية أفضل فضاء ممكن حيث يمكن معاينة المعنى؛ إن حجم تلك الوحدات، المتحدِّد تجريبيا وتخمينيا، سيكون تابعة لكثافة الإيحاءات، التي تتفاوت بحسب لحظات النص: والمطلوب ببساطة هو أن لا تتضمن الوحدة، على الأكثر، سوى ثلاثة أو أربعة معان يجري تعدادها» وفضلا عن ذلك فقد أشرنا في الباب الأول إلى أن تنجيم النص إلى مقطوعات «séquences» يعد إحدى الإجراءات المهمة التي يلجأ إليها المترجم للإعداد لترجمته، ويستند إليها الفعل التفسيري الممهد للفعل الترجمي.

وكثيرا ما نجد هذا الإجراء مرتبطا ببحوث علم المناسبة في النص القرآني، وهو يتتبع فيه توالي المعاني والعلاقات الوشيجة التي ترتبط فيما بينها، فيعمد المفسر أو عالم القرآن إلى تنجيم النص إلى وحدات ذات تيمة عامة، وهو النهج الذي يسلكه البقاعي في نظم الدرر ومصاعد النظر، وابن الزبير الثقفي في برهانه[55]، قال البقاعي[56]: «مقصودها بيان آخر النجم في أمر الساعة، من تحققها، وشدة قربها، وتصنيف أهلها باعتبار ما ذكر هنا، من العجب من القرآن، والضحك والبكاء والعمل، إلى طالب علم مهتد به فهو فائز، وإلى مُتْبع نفسهُ شهواتها، ضال بإهمالها فهو خائب.

(54) رولان بارت، التحليل النصي، تر. عبد الكبير الشرقاوي، الرباط، دار التكوين، 2009، ص13.

(55) أحمد بن الزبير الثقفي، البرهان في تناسب سور القرآن، تح. سعيد بن جمعة الفلاح، تونس، دار بن الجوزي، الطبعة الأولى، 2007.

(56) البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، الجزء الثالث، ص39 وما بعدها.

وذلك لأنه سبحانه وعد بذلك، باخبار نبيه ﷺ عنه به، وتحقق صدقه بما أيده به من آياته التي ثبت بها اقتداره على ما يريد، من الإيجاد والإعدام، فثبت تفرده بالملك، وأيد اقترابها بالتأثير في آية الليل، بما يدل على الاقتدار على نقض السموات المستلزم لإهلاك الأرض، فأذن ذلك بأنه ما بقي إلا تأثير آية النهار، وعندما يكون طي الانتشار، وعموم البوار، المؤذن بالإحضار، لدى الواحد القهار. وأدل ما فيها على هذا الغرض كله: أول آياتها، فلذلك سميت بما تضمنته من الاقتراب والقمر. وكانت تسميتها بالقمر أشهر، لدلالته على الاقتراب المختتم به النجم، بالإشارة، لا بالعبارة، ولم تسم بالانشقاق، لأنه إذا أطلق، انصرف إلى الإثم، فكانت السماء به أحق».

وقال الطيب عاشور في تفسيره: «أغراض هذه السورة: تسجيل مكابرة المشركين في الآيات البينة، وأمر النبي ﷺ بالإعراض عن مكابرتهم. وإنذارهم باقتراب الساعة بوما يلقونه حين البعث من الشدائد. وتذكيرهم بما لقيته الأمم الأخرى أمثالهم من عذاب الدنيا لتكذيبهم رسل الله وأنهم سيلقون مثلما لقي أولئك إذ ليسوا خيرا من كفار الأمم الماضية. وإنذارهم بقتال يهزمون فيه، ثم لهم عذاب الآخرة وهو أشد. وإعلامهم بإحاطة الله علما بأفعالهم وأنه مجازيهم شر الجزاء ومجاز المتقين خير الجزاء. وإثبات البعث، ووصف بعض أحواله. وفي خلال ذلك تكرير التنويه بهدي القرآن وحكمته»[57]. أما سعيد حوى[58]، فقد قسم السورة إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأول: وتمتد حتى نهاية الآية 8، المجموعة الثانية: وتمتد حتى نهاية الآية 42، المجموعة الثالثة: وتمتد حتى نهاية الآية 55.

(57) الطيب بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984، الجزء السابع والعشرون، ص166.

(58) سعيد حوى، الأساس في التفسير، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1985، ص5602.

المجموعة الأول

- ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2)
وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا
فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ
إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (7)
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)﴾.

المجموعة الثانية

- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ
فَٱنتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ
أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14)
وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (17)﴾.

- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (18) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ
مُّسْتَمِرٍّ (19) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (22)﴾.

- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (23) فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (24)
أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ
ٱلْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ
كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (30) إِنَّآ
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ (32)﴾.

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ (33) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ (34)
نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ (36)

وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿37﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿38﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿39﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿40﴾﴾.

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿41﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿42﴾﴾.

المجموعة الثالثة

- ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿43﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿44﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿45﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿46﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿47﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿48﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿49﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿50﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿51﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿52﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿53﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿54﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿55﴾﴾.

أقسام السورة بحسب الوقف فيها

أشرنا في المبحث الثاني من الفصل الثاني من الباب الأول، في سياق حديثنا عن مسألة انغلاق النص القرآني أن الانغلاق يرتبط بالوقف ارتباطا وثيقا، ولم يكتف المتقدمون بالإشارة إلى أنواع الوقوف بل نبهوا كذلك إلى المواضع، من النص القرآني، التي يلزم عدم الوقف عليها، وبينوا عللها، فقد أشار السجاوندي[59] إلى ما لا يجب الوقف عليه في سورة القمر، التي نحن بصدد مقاربتها مقاربة سيميائية، بحرف (لا) على ما يلي: ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ لأن قوله ﴿حِكْمَةٌ﴾ بدل من ﴿مُزْدَجَرٌ﴾، وعلى ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ للعطف، مع اتصال المعنى، وعلى ﴿نُّكُرٍ﴾ و﴿مُّنتَشِرٌ﴾، لأن ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ حال بعد

(59) أبو عبد الله السجاوندي، علل الوقوف، تح. محمد العيدي، الرياض، مكتبة الرشد، الطبعة الثانية، 2006، ص980 وما بعدها.

حالين، وعلى ﴿وَدُسُرٍ﴾ لأن ﴿تَجْرِي﴾ صفة لها، أي على سفينة ذات ألواح ودسر جارية، وعلى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ لأن ﴿تَنزِعُ﴾ صفة الريح، وعلى ﴿ٱلنَّاسَ﴾ لأن ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال للناس، وعلى ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ لتعلق ﴿إِذًا﴾ بها، أي إنا إذا اتبعناه لفي ضلال، وعلى ﴿بِسِحْرٍ﴾ لأن ﴿نِّعْمَةً﴾ مفعول له.

فإذا نظرنا إلى العلل التي ساقها السجاوندي للحكم بعدم الوقف عند بعض رؤوس الآي التي عادة ما يعتبرها علماء القرآن باللازمة، لوجدناها – في الغالب – عللا نحوية، وليس خفيا ما بين النحو والدلالة من ارتباط عضوي؛ فهما كالجسد للروح، ولا يقول في الوقف إلا عالم باللغة العربية ونحوها، فابن الأنباري – كان نحويا وبهذا النعت عرف – عندما يسرد، في 'باب ذكر ما لا يتم الوقف عليه'، أنواع المقامات التي لا يجب الوقف عليها، إنما يعمد في ذلك إلى طرائق تعلق الكلام بعضه ببعض، يقول: «اعلم أنه لا يتم الوقف على المضاف دون ما أضيف إليه، ولا على المنعوت دون النعت، ولا على الرافع دون المرفوع، ولا على المرفوع دون الرفع، ولا الناصب دون المنصوب وعلى المنصوب دون الناصب، ولا على المؤكد دون التوكيد، ولا على المنسوق دون ما نسقته عليه، ولا على 'إن وأخواتها' دون اسمها، ولا على اسمها دون خبرها، ولا على 'كان' و'ليس' و'أصبح' و'لم يزل' وأخواتهن دون اسمها، ولا على اسمها دون خبرها، ولا على 'ظننت' وأخواها دون الاسم ولا على الاسم دون الخبر، ولا على المقطوع منه دون القطع، ولا على المستثنى منه دون الاستثناء، ولا على المفسر منه دون التفسير، ولا على المترجَم منه دون المترجِم، ولا على 'الذي' و'ما' و'من' دون صلاتهم، ولا على صلاتهن دون معربهن، ولا على الفعل دون مصدره، ولا على المصدر دون آلته، ولا على حروف الاستفهام دون ما استفهم بها عنه، ولا على حروف الجزاء دون الفعل الذي يليها، ولا على الفعل الذي يليها دون جواب الجزاء، فإن كان جواب الجزاء متقدما لم يتم الوقف عليه دون الجزاء ولا على الجزاء دون جوابه. و'الفاء' تنصب في جواب ستة أشياء، في جواب الأمر والنهي والاستفهام والجحود والتمني والشكوك، لا يتم الوقف على هذه الستة دون 'الفاء'. ولا يتم الوقف على الأيمان دون جواباتها، ولا على 'حيث' دون ما بعدها ولا

على بعض أسماء الإشارة دون بعض. ولا يتم الوقف على المصروف عنه دون الصرف، ولا على الجحد دون المجحود، ولا على 'لا' في النهي دون المجزوم، ولا على 'لا' إذا كانت بمعنى غير دون الذي بعدها، ولا على 'لا' إذا كانت تبرئة دون الذي بعدها، ولا على 'لا' إذا كانت توكيدا للكلام غير جحد، ولا على 'لا' إذا كان الحرف الذي قبلها عاملا في الذي بعدها، فإن كان غير عامل صلح للمضطر أن يقف عليه. ولا يتم الكلام على الحكاية دون المحكي، ولا على 'قد و'سوف' و'لما' و'إلا' و'ثم' لأنهن حروف معان تقع الفائدة بعدهن. ولا يتم الوقف على 'أو' و'لا' و'بل' و'لكن' لأنهن حروف نسق يعطفن ما بعدهن على ما قبلهن»[60]. فهذه هي إذن العلاقات التركيبية، وهي بنوية صورية، التي ترشد القارئ في سبيله نحو استنطاق معاني النص القرآني، وهي عموما علاقات متبادلة بين وظائف نحوية تستلزم إحداهما الأخرى في شكل صنف سيمي «catégorie sémique».

إعراب النص القرآني

لم تفرد المؤلفات النحوية العربية القديمة للجملة بابا تخصها فيه بالبحث والدراسة، وتتناولها من حيث التأليف والتركيب، إنما تطرق النحاة إلى الجملة كلما كان ذلك معينا على فهم ما قصدوا إليه في دراسة المفردات، إلى أن جاء ابن هشام فخصص لها بابا سماه 'في تفسير الجملة وذكر أقسامها وأحكامها'، من كتابه مغني اللبيب عن كتب الأعاريب[61] الذي ألفه في النصف الأول من القرن الثامن الهجري. وإن صح الاستدلال من هذا على أن الدراسات النحوية القديمة لم تكن تتجاوز حدود المفرداتيات، فهذه الميزة ليست خاصة بها، فقد غيب النحو الغربي هو الآخر دراسة بنية الجملة وظل حتى ستينيات القرن الماضي حبيس المفرداتيات[62]. لكن الحكم على النحو العربي بهذه الميزة فيه كثير من

(60) ابن الأنباري، كتاب إيضاح الوقف والابتداء، الجزء الأول، ص116 وما بعدها.

(61) ابن هشام، عبد الله جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح. مازن المبارك وآخرون، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1964، الجزء الخامس، الباب الثاني.

(62) R. H. Robins, Linguistique générale : une introduction, p.192.

النسبية، فاستئثار الكلمة باهتمام النحاة على حساب الجملة خلال هذه الفترة، لا يمكن الجزم معه بتجاهلهم للسياق الأدنى الذي تتبلور فيه المفاهيم النحوية، فهاهو سيبويه، عندما يتطرق إلى 'مجاري أواخر الكلم من العربية'[63]، وهو مبحث من مباحث المفرداتيات، ويجيء إلى النصب والجر والرفع في الأسماء، إنما يمثل لها بجمل يحسن السكوت عليها، مستوفية المعنى للدلالة على الإعراب (رأيت زيدا، مررت بزيد، هذا زيد)، وهي من باب 'المسند والمسند إليه'، الذي يليه مباشرة، وهو مبحث من مباحث التركيبيات، وفي ذلك دلالة - في رأينا - على وعي سيبويه بأن الكلمات المفردات إنما تستقي إعرابها الظاهر في أواخرها من السياق الذي ترد فيه.

وقد بدا لكثير من النحاة المحدثين أن علماء اللغة القدامى إنما اهتموا باللفظ على حساب الجملة، فأشار عز الدين محجوب[64] إلى أن المحدثين لم يكتفوا باتخاذ تعريف القدامى للنحو دليلا على عدم دراستهم الجملة دراسة مرضية بل استدلوا أيضا على هذا التقصير المفترض بعدة قرائن أخرى تدعم قولهم استقرؤوها من ممارسة النحاة القدامى وكيفية تبويبهم لمصنفاتهم وكتبهم. وقد ركزوا خاصة على الجوانب التالية: عدم تبلور مصطلح خاص بالجملة، وعدم العناية بالجملة لذاتها. وكان إبراهيم مصطفى[65] أول من أشار إلى هذا القصور في النحو العربي، فالنحاة عندما قصروا النحو على أواخر الكلمات وعلى تعرف أحكامها قد ضيقوا - في نظره - من حدوده الواسعة، وسلكوا بها طريقا منحرفة، إلى غاية قاصرة، وضيقوا كثيرا من أحكام نظم الكلام وأسرار تأليف العبارة، فطرق الإثبات، والنفي، والتأكيد، والتوقيت، والتقديم، والتأخير، وغيرها من صور الكلام قد مروا

---

(63) سيبويه، الكتاب، ص13 وما بعدها.

(64) عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي. قراءة لسانية جديدة، سوسة، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، 1998، صص. 116-117.

(65) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، القاهرة، طبع لجنة إحياء التراث، الطبعة الثانية، 1992، ص3.

من غير درس، إلا ما كان منها ماسا بالإعراب، أو متصلا بأحكامه، وفاتهم لذلك كثير من فقه العربية، وتقدير أساليبها. وأردف قائلا[66] أنهم ربما تعرضوا لشيء من هذه الأحكام حين يضطرون إليها لبيان الإعراب وتكميل أحكامه؛ فقد تكلموا في وجوب الصدارة لأسماء الاستفهام وبعض أدوات النفي، حين أرادوا شرح التعليق وبيان مواضعه، ولزمهم أن يحصوا من الأدوات ما يحجب ما قبله عن العمل فيما بعده. وبينوا بعض الأدوات التي يجب أن يليها فعل، والتي لا يليها إلا اسم، حين أرادوا تفصيل أحكام الاشتغال. ولكن هذه المباحث جاءت متفرقة على الأبواب، تابعة لغيرها، فلم يستوف درسها ولا أحيط بأحكامها.

وقد اقتفى أغلب ناقدي التراث النحوي أثر إبراهيم مصطفى[67] في دعواه القائلة بأن النحاة أكبوا على دراسة الإعراب وقواعده فوق ألف عام، لا يعدلون عنه شيئا، ولا يرون من خصائص العربية ما ينبغي أن يشغلهم دونه، وألفوا فيه الأسفار الطوال، وأكثروا من الجدل والمناقشة في تعليله وفلسفته، حتى تركوا نحو العربية أوسع الأنحاء أسفارا وتأليفا وفلسفة وجدلا، مستندا في ذلك إلى بعض كتب النحاة التي عرفت النحو بأنه علم يعرف به أواخر الكلم إعرابا وبناء، واستدل به على أنهم أهملوا بذلك التركيب ولم يعنوا بقضايا الجملة إلا ما كان يخدم مبحثهم.

بيد إن هذا الرأي فيه قصور ويجانب الصواب في نواح، فإن نحن عدنا إلى كتاب المفصل للزمخشري الذي استمد منه إبراهيم مصطفى ما حكم به على النحو باقتصاره على الإعراب واقتصار الإعراب على أواخر الكلمات المفردات، لاحظنا أن الزمخشري لا يعتبر الإعراب عناية بالكلم المفردة بل نجد عنده ما يفيد عكس ذلك تماما لأنه يقول في باب المبتدأ والخبر في معرض تبرير تعريف المبتدأ والخبر بأنهما الاسمان المجردان، يقول: «وإنما اشرط في التجريد أن يكون من أجل الإسناد لأنهما لو جردا لا للإسناد

(66) المرجع السابق، ص4.

(67) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص23.

لكانا في حكم الأصوات التي حقها أن ينعق بها»[68]. وقد زاد ابن يعيش تفصيلا لذلك في شرحه للمفصل، كتاب الزمخشري، حين قال[69] بأن المراد بالمعرب ما كان فيه إعراب أو قابلا للإعراب، وليس المراد منه أن يكون فيه إعراب لا محالة. ألا ترى أنك تقول في زيد ورجل أنهما معربان وإن يكن فيهما في الحال إعراب، لأن الاسم إذا كان وحده مفردا من غير ضميمة إليه لم يستحق الإعراب؛ لأن الإعراب إنما يؤتى به للفرق بين المعاني فإذا كان وحده كان كصوت تصوت به. فإن ركبته مع غيره تركيبا تحصل به الفائدة نحو قولك زيد منطلق وقام بكر فحينئذ يستحق الإعراب لإخبارك عنه. ويشفع لهذا التأويل ما ساقه الرضي الاستراباذي[70] في شرحه لابن حاجب في سياق تبرير بداية ابن الحاجب لمصنفه بحد الكلمة وتقديمه على حد الكلام، قوله: إنما قدم حد الكلمة على حد الكلام مع أنه المقصود الأهم من علم النحو معرفة الإعراب الحاصل في الكلام بسبب العقد والتركيب لتوقف الكلام على الكلمة توقف الكل على جزئه.

أما توهم إبراهيم مصطفى ومن حذا حذوه من المحدثين في نقدهم للتراث النحوي العربي بأن الإعراب لفظ لا معنى فقد أشار عز الدين محجوب[71] إلى أنهم استمدوه من أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام حين يقول بأن الإعراب أثر واضح أو مقدر يجلبه العامل في آخر الكلمة، يقول ابن يعيش[72]: هو الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أولها. ألا ترى أنك لو قلت ضرب زيد عمرو بالسكون

(68) الزمخشري، أبو القاسم، المفصل في علم العربية، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، 2006، ص22.

(69) ابن يعيش، ابن علي، شرح المفصل، تح. الأزهر، مصر، إدارة الطباعة المنيرية، دون تاريخ، الجزء الأول، ص8.

(70) الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح الرضي على الكافية، تص. يوسف حسن عمر، بنغازي، منشورات قان يونس، الطبعة الثانية، 1996، الجزء الأول، ص25.

(71) عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي. قراءة لسانية جديدة، ص139.

(72) ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، الجزء الأول، ص72.

من غير إعراب لم يعلم الفاعل من المفعول ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب.

فالمقصد الأهم من علم النحو معرفة الإعراب الحاصل في الكلام بسبب العقد والتركيب[73]. وإنا نسوق لذلك ما قاله الرسول عن إعراب القرآن، إذ قال: أعبروا الكلام كي تعربوا القرآن، والشاهد أن الرسول ﷺ لم يقل أعربوا الكلم، وإنما قال أعربوا الكلام. وإنما وضع النحو لتعليم اللسان العربي إلى غير المتكلمين به من الأعاجم، فكل من عرف النحو لم يترك تقييده بهذه الملحوظة، فقال ابن السراج[74]: النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب، حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة، فاستقراء كلام العرب فاعلم: أن الفاعل رفع، والمفعول به نصب وأن فعل مما عينه ياء أو واو تقلب عينه من قولهم: قام وباع.

كما عرف المرادي[75] النحو يقوله: وقد حد النحو بحدود كثيرة، ومن أقربها قول بعضهم: النحو، علم يعرف به أحكام الكلم العربية إفرادا وتركيبا. ومن أشهرها قول صاحب المقرب: النحو علم مستخرج بالمقاييس المستخرجة من كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها، وأشار[76] في موضع آخر بأن الكلام وما يتألف منه، إنما بدأ بالكلام، لأنه المقصود في الحقيقة، إذ به يقع التفاهم، وإنما قال وما يتألف منه، ولم يقل: وما يتركب، لأن التأليف كما قيل أخص إذ هو تركيب

(73) شرح الكافية الجزء الأول، صص. 7-8.

(74) ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل، الأصول في النحو، تح. عبد الحسين الفتلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1996، ص35.

(75) المرادي، المعروف بان أم قاسم، توضيح المقاصد والمسالك لألفية ابن مالك، شرح وتح. عبد الرحمن علي سليمان، القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 2001، المجلد الأول، ص265.

(76) المرادي، المعروف بان أم قاسم، توضيح المقاصد والمسالك لألفية ابن مالك، المجلد الأول، ص267.

وزيادة، وهي وقوع الألفة بين الجزءين. وقد عرف الدماميني الإعراب بقوله: الإعراب الأول لغوي، والثاني اصطلاحي، أريد به النحو، أو إجراء الألفاظ المركبة على ما تقتضيه صناعة العربية، كما قال: أعرب هذه القصيدة؛ إذا تتبع ألفاظها، وبين كيفية جريها على النحو، ومنه قولهم: هذا كتاب إعراب القرآن. وقال السيوطي[77]: المراد بالإعراب إجراء الألفاظ المركبة على ما تقتضيه صناعة العربية لا مطلق النحو، ثم إن نسبة الإعراب إلى علم النحو كنسبة العلاج إلى علم الطب، ونسبة الإفتاء إلى علم الفقه؛ فما كل من قرأ النحو يحسن الإعراب، كما أن كل من قرأ الطب لا يحسن العلاج، وكل من قرأ الفقه يحسن الإفتاء، لأن تنزيل الصور الجزئية على القوانين الكلية يحتاج إلى قدر زائد. ونقل السيوطي[78] عن كتاب المستوفى لابن الحكم الفرخان قوله: النحو صناعة علمية، ينظر لها أصحابها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم، لتعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى؛ فيتوصل بإحداهما إلى الأخرى.

لقد صدق أحمد سليمان[79] ياقوت عندما رأى في تعريف ابن جني[80] للنحو بأنه انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع، والتحقير والتكسير والإضافة، والنسبة، والتركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية لأهلها، في الفصاحة، أن ابن جني جمع بين نوعين من الدراسات اللغوية في هذا النص: صرفية، وتتضح في التثنية، والجمع والتحقير (التصغير)، ونحوية، وتتضح في الإضافة،

---

(77) السيوطي، الفتح القريب في حواشي المغني اللبيب، مخطوط.
ينظر: يوسف بن خلف العيساوي، علم إعراب القرآن. تأصيل وبيان، الرياض، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2008، ص325.

(78) السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تع. محمد سليمان ياقوت، الشاطبي، مصر، دار المعرفة الجامعية، 2006، ص21.

(79) أحمد سليمان ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، إسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1994.

(80) ابن جني، الخصائص، تح. محمد علي النجار، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2006، ص68.

والإعراب والتركيب. وهذان النوعان من الدراسة هما علم الصرف «morphologie» والتركيبيات «syntaxe» اللذين يكونان الدراسات اللغوية التي تنضوي ضمن باب النحو «grammaire».

وهو ما ذهب إليه محمد عبد السلام شمس الدين(81) إلى أن ابن جني في كلامه السابق يجمع بين علمين أساسيين من العلوم اللغوية. فمن الممكن - في نظر الكاتب - اعتبار العلمين شقي الدراسة التركيبية للغة، على أن يكون المراد بهذه الدراسة تحليل صيغ المفردات من ناحية والتعرف على الوسائل الصرفية المختلفة من سوابق، ولواحق، وحواشي التي تتخذها اللغة وهي تصوغ كلماتها، كما يكون المراد بها التعرف على الوسائل التركيبية التي تتبناها اللغة أثناء رصفها لهذه الصيغ المفردة في تراكيب أكبر، وما قد ينشأ أثناء التركيب من مطابقة بين العناصر المفردة وترتيب بينها، واختيار لحالة إعرابية معينة، وهكذا.

ويتبين حينئذ أن النحاة العرب القدامى إنما كانوا ينطلقون في تحليلهم النحوي من الإطار الذي وصفه ابن يعيش وهو الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أولها، ويؤسسونها ذلك على تقسيم للكلام إلى جمل. ولعل الوقوف على الأحكام التي اعتمدوها في تقسيم الكلام إلى أجزاء من شأنه أن يسهم في فهم ما قصدوا إليه، وهو ما ينطوي ضمن مسألة الوصل والفصل التي اشتغل بها النحاة وعلماء البلاغة على حد سواء. فالنحو إذن ينقسم عند النحاة العرب إلى إعراب وتصريف، ولا يقتصر الإعراب على أواخر الكلم إنما يتعداها إلى الجمل، أما التصريف فقد قال فيه أبو حيان التوحيدي(82): معرفة ذوات الكلم في أنفسها من غير تركيب، وهو قسمان: أحدهما جعل الكلمة على صيغ مختلفة لضروب من المعاني كالتصغير والتكسير، والعادة ذكره مع النحو الذي ليس بتصريف. والآخر

(81) محمد عبد السلام شمس الدين، الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة. دراسة تحليلية، القاهرة، دار مرجان للطباعة، الطبعة الأولى، 1984، صص. 3-4.

(82) أبو حيان التوحيدي، المبدع في التصريف، تح. عبد الحميد السيد طلب، الكويت، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1982، ص49.

تغيرها عن أصلها لا معنى طارئ عليها، وينحصر في النقص والقلب والإبدال والنقل. ولسنا نبالغ إن قلنا أن قول عبده الراجحي[83]، في أن الجملة هي ميدان علم النحو، لأنه العلم الذي يدرس الكلمات في علاقتها بعضها ببعض. وحين تكون الكلمة في جملة يصبح لها معنى نحوي؛ أي تصبح لها وظيفة معينة تتأثر بغيرها من الكلمات وتؤثر في غيرها أيضا. وأنت حين تقول إن هذه الكلمة (فاعل) مثلا فإنك تعني أن قبلها (فعلا) بينه وبين الفاعل علاقة من نوع ما، وهكذا في بقية أبواب النحو.

ونحن إذ لا نغادر اللسان العربي نقول بأن المترجم من اللسان العربي وإليه، إذا فقه بأن إعراب الوحدات المفردة يقيم علاقة وطيدة بالمعنى وأن الوحدات المركبة (أو الجمل) تتصرف بالنظر إلى وظائفها تصرف الوحدات المفردة، جني من ذلك ثمرة حسن الترجمة ووفق في نقل المعنى العام للنص. ولا نريد أن نفصِّل القول هاهنا، لأن ذلك متروك لما يلي من الفصل الثاني من هذا الباب، وها هو الإمام مكي بن أبي طالب يقول في مقدمة مشكله: «ورأيت من أعظم ما يجب على طالب علوم القرآن، الراغب في تجويد ألفاظه، وفهم معانيه، ومعرفة قراءته ولغاته، وأفضل ما القارئ إليه محتاج، معرفة إعرابه والوقوف على تصرف حركاته وسواكنه، ليكون بذلك سالما من اللحن فيه، مستعينا على إحكام اللفظ به، مطلعا على المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات، متفهما لما أراد الله تبارك وتعالى به من عباده؛ إذ بمعرفة حقائق الإعراب تعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد، ويفهم الخطاب، وتصح معرفة حقيقة المراد»[84].

لسانيات النص القرآني

نطلق مصطلح 'لسانيات النص القرآني' على مجموع الإجراءات

(83) عبده الراجحي، في التطبيق النحوي والصرفي، إسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1992، ص77.

(84) مكي ابن طالب، مشكل إعراب القرآن، تح. حاتم صالح الضامن، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2003، الجزء الأول، ص101.

التحليلية التي نقارب بها النص القرآني مقاربة تتعدى مستوى الجملة، ونحن بذلك نرتقي مستوى أعلى وأشمل، وفضلا عما ذكرناه بخصوص إعراب الجمل وعلاقتها بالمعنى، سواء بإنزالها منزلة الكلمات المفردة أو دون ذلك، وضعت اللسانيات النصية جملة من الأدوات اللسانية الكفيلة بإبراز خصيصة النص واختلافه عن الجملة، فكان أول ما عهدت إليه أن اجتهدت في إظهار بعض المفاهيم الممثلة للخصائص اللسانية التي تجعل من النص نصا، من مثل الانسجام «cohérence» والاتساق «cohésion» والتدرج التيمي «progression thématique»، وغيرها.

شهدت ستينيات القرن العشرين نشأة فرع من فروع اللسانيات عني أساسا بالعلامات اللسانية والوقائع غير اللسانية المرتبطة مباشرة باتساق النص أو الخطاب وانسجامهما. وقد عرف باسم نحو النص أو نحو الخطاب انطلاقا من المسلمة التي مفادها أن النص، أو الخطاب، ليسا مجرد سلسلة من الجمل، بل يكونان وحدة لسانية خاصة؛ فلما كان في مقدور الأفراد المتكلمين تمييز اتساق النص من عدمه، فقد أضحى ممكنا القول بامتلاكهم كفاية نصية تمكنهم من إنجاز ملفوظات تتجاوز حدودها أطر الجملة وتأويلها. لكن الانتقال من مجال الجملة إلى فضاء النص لا يعبر عن انتقال كمي، بل عن انتقال نوعي لا يكتفي بتوسيع إطار المعالجة اللسانية التقليدية، فالعوامل التي تسهم في اتساق النص وانسجامه ليست عوامل متجانسة، مثلما يبرزه تحليل منغنو[85] «D. Maingueneau» في تحليله التداولي لقطعة من خطاب فكتور هيغو؛ فبعضها من قبيل النحو وجزء معتبرا منها يفترض معرفة حول العالم. لذلك ناد عدد من اللسانيين المحدثين مثل شارول[86] «C. Charolles» وشبرول[87] «C. Chabrol» وغيرهما إلى ضرورة

---

(85) D. Maingueneau, Eléments de linguistique pour le texte littéraire, Paris, éd. Bordas, 1990, pp. 135-136.

(86) C. Charolles, Les études sur la cohérence, la cohésion et la connexité textuelles depuis la fin des années 1960, in Modèles linguistiques, t. X, f. 2, Université de Lille II, 1988.

(87) C. Chabrol, Discours du travail social et pragmatique, Paris, éd. P. U. F., 1994, p.16.

التفريق بين مفهومي انسجام النص واتساقه - على الرغم من صعوبة التمييز بينهما تمييزا دقيقا كما سنبينه لاحقا - لما لهذا التفريق من أهمية في تحليل مفهوم تتابع النص، وما تفتحه - على حد تعبير بسانو[88] - من آفاق جديدة أمام دراسة فهم الخطاب.

إن دراسة انسجام النص واتساقه تختلف باختلاف وجهات النظر وتنوع المقاربات؛ إذ يمكن تحليلهما في إطار علم النفس واللسانيات النفسية، أو من خلال تحليل الاستراتيجيات النصية والخطابية؛ ففي الحالة الأولى يعنى الباحث بالكاتب وعملية إنتاج الخطاب، وبالقارئ وتلقيه له وتأويله، مستكشفا لقدراتهما في معالجة المعلومات إنتاجا وفهما وتخزينا[89]، أما في الحالة الثانية فإن الباحث يوجه دراسته صوب خصائص النصوص والخطابات؛ الصورية والتنظيمية والبنوية والدلالية، وهو وجهة النظر السائدة في هذه الدراسة بالنظر إلى ما تميله منهجية البحث في موضوعها.

تختلف العلامات اللسانية والوقائع غير اللسانية التي تحقق للنص اتساقه وانسجامه من مدرسة إلى أخرى، فإذا كان الاتساق عادة ما يحصل باستعمال بعض الأساليب اللسانية الملائمة، التي تربط بين عناصر الخطاب المتتالية وتنجز بناءه، وتعين - في الوقت ذاته - المتلقي في أثناء تلقيه للنص وفهمه، فقد نبه بعض اللسانيين - مثل آن ربول «A. Reboul» وجاك موشلير[90] «J. Moeschler» - إلى إن احتواء النص على العلامات التي تحقق اتساقه لا يعني بالضرورة أنه متسق، كما أن خلوه من هذه العلامات لا يستلزم افتقاده إلى الاتساق، مما اضطر عددا من محللي الخطاب إلى الإعراض عن افتراض وجود علاقة بين الانسجام والعلامات التي تحققه.

---

(88) D. Bassano, Traitement du langage: Perception, compréhension, production, in O. Ducrot et J. M. Schaeffer, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Parsi, 2dition du Seuil, 1995, p.503.

(89) ينظر مثلا:

D. Gaonac'h et J.-M. Passerault, Psycholinguistique textuelle. Approche cognitive de la compréhension et la production des textes, Paris, éd. A. Colin, 1996.

(90) A. Reboul et J. Moeschler, La pragmatique aujourd'hui. Une nouvelle science de la communication, Paris, Editions du Seuil, 1998, p.187.

انسجام الخطاب واتساقه

يستند تتابع الملفوظات إلى آليات فونولوجية ونحوية ومعجمية تختلف باختلاف الألسن، تقوم بربط هذه الملفوظات بالسياق التي أنتجت فيه من جهة، وبالأسيقة النصية المتلاحقة من جهة أخرى؛ فتحقق للخطاب أو النص انسجامهما واتساقها، لذلك لا يمكن اختزال مفهوم النص في سلسلة الملفوظات أو الجمل المتوالية التي تكونه، فإذا كان النص يتألف من جمل، فإنه يختلف عنها نوعيا. إن النص وحدة دلالية، وليست الجمل إلا الوسيلة التي يتحقق بها، وكل نص يتوفر على خاصية كونه نصا يمكن أن نطلق عليها النصية، وهذا ما يميزه عما ليس نصا. فلكي يكتسب النص نصيته ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة(91)، مثل وحدة الإحالة أو التكرار وغيرها من الوسائل الأخرى.

ليس من اليسير التمييز بين مفهومي الاتساق والانسجام كما ألمحنا إليه من قبل، على الرغم من استعانة الأول لتحققه بوسائل لسانية لا غير، واعتماد الثاني على آليات معرفية غير لسانية، وإذا كان معنى العبارات إنما يتحقق - حسب أسكومبر «J.-C. Ascombre» وديكرو(92) - بطرائق التتابع الخطابي التي تنجزه، فإنه من الممكن - حسب شيفر(93) «J.-M. Schaeffer» - تفسير بعض المسائل، التي يُعتقد بأنها ترتبط بمفهوم الانسجام، بعبارات لسانية تتصل بمفهوم الاتساق. لكن، على الرغم من اشتراك هذين المفهومين في تحديد ماهية النص أو الخطاب، أحدهما على المستوى الشامل (أي النص بكليته) وثانيهما على المستوى المحلي (أي من الجملة إلى الأخرى)،

---

(91) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، المركز الثقافي العربي، 1989، ص13.

(92) J.-C. Ascombre et O. Ducrot, L'argumentation dans la langue, Paris, éd Margada, 3 éd., 1991, p.46.

(93) O. Ducrot et J.-M. Schaeffer, Nouveau Dictionnaire Encyclopédiques des Sciences du Langage, p.605.

فإن التمييز بينهما -الذي يعبر على حد تعبير منغنو[94] عن وجهتين مختلفتين ومتداخلتين في مقاربة النصية - لا يمكن تجاهله أو الشك في ملاءمته إذ إن عوامل البنينة «structuration» المحلية تميز كل نص بوصفه نصا.

ينشأ الترابط حسب هاليداي وحسن[95] «Halliday & Hasen» عندما يرتبط تأويل عنصر ما من عناصر النص بتأويل عنصر آخر منه، بحيث يفترض أحدهما الآخر فلا يمكن تفسير الأول دون العودة إلى الثاني، فإذا تحقق ذلك، فإن علاقة الاتساق التي تنشأ بين العنصرين تسهم في إدماج العنصرين في النص، ويمنح للنص الوحدة الدلالية. لكن الاتساق لا يقتصر على المستوى الدلالي وحسب، بل يتعداه إلى سائر المستويات الأخرى، النحوية والمعجمية، وهو عنصر من عناصر النسق اللساني من جهة، وناتج من نتاجات التنظيم اللساني من جهة أخرى.

عرف طه عبد الرحمن[96] النصية بوصفها بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات. وقد تربط هذه العلاقات بين جملتين (الربط المثنوي) أو بين أكثر من جملتين (الربط الجمعي)، كما قد تربط الجمل فيما بينها ربطا مباشرا (الربط القريب) أو ربطا تتوسطه علاقات أخرى تصل بين جمل أخرى (الربط البعيد).

إذا كان النص في رأي هاليداي وحسن كلا موحدا من المنظور الدلالي، تميزه كفاية الأفراد المتكلمين عن مجموعة من الجمل التي لا رابط بينها، فإن هذا التصور لا يمكن - حسب آدام[97] «J. M. Adam» - من تحليل جمل تفتقد إلى تيمة عامة بارزة (أي بنية دلالية كبرى) أو بنية تتابعية نوعية تحليلا معمقا، عكس الحكاية التي تلتزم ببنية سردية نموذجية

(94) D. Maingueneau, Eléments de linguistique pour le texte littéraire, p.144.

(95) Halliday & R. Hasan, Cohesion in English, London, Longman, 1976, p.4.

(96) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 2، 2000، ص35-36.

(97) J.-M. Adam, Langue et littérature. Analyses pragmatiques et textuelles, Paris, éd. Hachette, 1991, p.168.

لجنس من أجناس السرد. وعادة ما يلجأ تحليل الاتساق إلى النظر في بعض المسائل المرتبطة به مثل ظواهر العائد والتدرج التيمي والسردية والحجاجية والربط النحوي ووسائله وتتابع المعلومات، والتماسك الدلالي ووسائله، والسياق التركيبي وعلاقته باكتمال الأبنية، والسياق الدلالي والربط الداخلي[98]، والتناظر، وغيرها من المسائل الأخرى، فالاتساق لا يتحقق دون الاستعانة بهذه الأدوات التي تنجزه، وتنظم العلاقات المتبادلة القائمة بين الجمل أو مقطوعات الجمل، وغيرها من الأدوات اللسانية الأخرى التي تكمن وظيفتها في توحيد الإحالة والتوازي والتوارد.

التدرج التيمي

يعد مفهوم التدرج التيمي من بين المفاهيم الإجرائية التي يستعان بها في تحليل اتساق النص، وقد اهتم بعض لساني مدرسة براغ، مثل متسيوس «V. Mathesius» قبل الحرب العالمية الثانية ودان «F. Danes» وفرباس «J. Firbas» ابتداء من الستينيات، بالكيفية التي تنقل بها المجموعات التركيبية المكونة للجملة نوعين من المعلومات؛ تلك التي تعد، في مرحلة من مراحل تطور النص، معلومات قديمة، وتلك التي تعتبر جديدة. هذا يعني أن تحليل الجملة لا يقتصر على كونها بنية تركيبية دلالية، بل بوصفها أيضا بنية حاملة لمعلومات تندرج ضمن دينامية نصية[99].

(98) سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2003، ص100.

(99) D. Maingueneau, Eléments de linguistique pour le texte littéraire, p.145.

الفصل الرابع

التفسير اللغوي ودوره في توجيه الفعل الترجمي في سورة القمر

كنا في الفصل السابق أشرنا إلى عدد من المعارف اللسانية من شأنها الإسهام في توجيه الفعل التفسيري، وبقدر ما هي معارف ارتبطت بالنص القرآني خصوصا بقدر ما يتيح التدرج الذي سقناها وفقه مقاربة النصوص الأخرى على المنوال ذاته، ذلك أن المترجم لا يمكنه أن يمارس فعل التفسير على النص ما لم يحدد تنظيمه التركيبي «organisation syntaxique»، ويقسم النص إلى مقطوعات، والمقطوعات إلى ملفوظات. وإن كنا أسهبنا الحديث عن إعراب النص القرآني ودوره في إبراز دلالات النص ومعانيه، فإن لسانيات النص وضعت هي الأخرى في متناول المترجم جملة من المفاهيم الإجرائية التي تمكنه من تفسير النص وفهم تمفصلاته.

لقد أضحت مقولة : «لا يمكننا أن نترجم ما لم نؤول»[1]، إحدى المقولات الأساسية المقيمة لدعائم العمل الترجمي، ومكونا من مكونات منهجية الترجمة، ولقد ألح غدمار «H. Gadamer»[2]، في أكثر من مناسبة على أن الترجمة تعتبر في حد ذاتها تفسيرا «interprétation»، لذلك نريد في هذا الفصل استخدام بعض آليات التفسير اللساني للنص القرآني، أي «بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب»[3]، وذلك بغية توجيه الفعل الترجمي ونقد نتاجه.

---

(1) U. Eco, Dire presque la même chose, p.272.

(2) ينظر مثلا :

H. Gadamer, Vérité et méthode, tr. P. Frucho, J. Grondin et G. Merlio, Paris, Seuil, 1976, p.406.

(3) مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، الرياض، دار بن الجوزي، 2001، ص38.

تنجيم النص

توصلنا في المبحث الثاني من الفصل السابق إلى تنجيم سورة القمر إلى مجموعات ثلاث على النحو التالي:

المجموعة الأول

- ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ (3) وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ (4) حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ (7) مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ (8)﴾.

المجموعة الثانية

- ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ (10) فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ (11) وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ (12) وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ (13) تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (15) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (17)﴾.
- ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ (19) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ (20) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (22)﴾.
- ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (23) فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ (24) أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ (25) سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ (26) إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ (27) وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ (28) فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ (31) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (32)﴾.

■ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34)
نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36)
وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً
عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ
مُدَّكِرٍ (40)﴾.

■ ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)﴾.

المجموعة الثالثة

■ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ
الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ
وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49)
وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51)
وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)﴾.

دراسة لسانية للمجموعة الأولى

يمكن أن نقسم هذه المجموعة إلى مقطوعتين «séquences»(4)؛

- تمتد المقطوعة الأولى حتى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، (وعليه وقف لازم كما أشرنا من قبل)، وهي تخبر عن تكذيب الكافرين للآيات وتنتهي بأمر النبي ﷺ بالتولي عنهم.

■ ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2)
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا

---

(4) ينظر بخصوص تعريف المقطوعة:
A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p.348.

فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾

- وتمتد المقطوعة الثانية حتى نهاية الآية الثامنة، وفيها تخبر الآيات عن يوم البعث، يومٌ يصفه الكافرون بالعسر.

- ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾﴾.

المقطوعة الأولى

تتكون هذه المقطوعة، استنادا إلى علامات الوقف التي أشرنا إليها، من أربعة ملفوظات موصولة فيما بينها بأداة الوصل 'الواو'، ويستند هذا التقسيم إلى تقسيم دلالي يراعي تسلسل المعاني. وهذا التقسيم، كما هو ظاهر، لا يطابق التقسيم الآيي للنص القرآني، إنما هو تقسيم يحتكم إلى علامات الوقف التي مقتضياتها دلالية، كما بيناه آنفا.

قال الله جل وعلى:

1. ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾﴾
2. ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾﴾
3. ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾﴾
4. ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾

الملفوظ الأول: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾

تحليل لساني

يتكون هذا الملفوظ من جملتين بسيطتين، كلاهما جملة فعلية خبرية، «اقتربت الساعة فعل ماض وفاعل، وانشق القمر عطف على الجملة

المتقدمة»[5]، موصولتين بأداة الوصل الواو ولعل أول ما يستوقف القارئ المترجم لفظ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، والملاحظ في اللفظة أنها جاءت معرفة، فهي إذن زمن محدود معلومة دلالته، قال الأصفهاني: «الساعة: جزء من أجزاء الزمان، ويعبر به عن القيامة»[6]، ويبرز هذا التقابل بين المعنيين في الآية الكريمة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾[7]، قال الأصفهاني: «فالأولى هي القيامة، والثانية الوقت القليل من الزمان»[8].

وتأتي ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في النص القرآني للدلالة على غير معنى واحد، فهي فضلا عن دلالتها على يوم القيامة، تدل أيضا على الموت وعلى البعث أيضا، كما في قوله جل وعلى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[9]، قال الطبري: «يقول: حتى إذا جاءتهم الساعة التي يبعث الله الموتى من قبورهم، وإنما أدخلت الألف واللام في ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾؛ لأنها معروفة عند المُخاطَبين بها، وأنها مقصودة بها الساعة التي وصفت»[10]، وقال القاسمي: «والمعنى: جاءتهم منيتهم، على أن المراد بالساعة، الصغرى»[11].

ولما كان فعل الاقتراب خليق بالاقتران بالمعاني الثلاثة، فإن اختيار إحدى المدلولات يتوقف على القرينة النصية التي تلي في الجملة الموصولة

(5) محي الدين الدرويش، إعراب القرآن لكريم وبيانه، بيروت، دار ابن كثير، الطبعة السابعة، 1999، المجلد السابع، الجزء السابع والعشرون، ص346.

(6) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، 434.

(7) سورة الروم، الآية 55.

(8) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، 434.

(9) سورة الأنعام، الآية 31.

(10) بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح. عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هجر، الطبعة الأولى، 2001، ص214.

(11) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، مصر، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1957، ص2285.

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، وفي الواو – وهي واو غير عاملة – مسألة.

قال الزركشي: «وأما غير العاملة فلها معان: الأول: وهو أصلها، العاطفة تُشرك في الإعراب والحكم. وهي لمطلق الجمع على الصحيح، ولا تدل على أن الثاني بعد الأول، بل قد يكون كذلك، وقد يكون قبله وقد يكون معه، فمن الأول: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢﴾[12]؛ فإن الإخراج متأخر عن الزلزال، وذلك معلوم من قضية الوجود لا من الواو... والثاني واو الاستئناف، وتسمى واو الوقف، وهي التي يكون بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها في المعنى، ولا مشاركة في الإعراب، ويكون بعدها الجملتان»[13].

وتحيل هذه المسألة إلى مسألة أخرى تتعلق بالتقديم والتأخير الملحوظين في هذا الملفوظ، ويُفهم من الزركشي[14] أن الآية تضمنت النوع الثاني من أنواع التقديم والتأخير الواردة في النص القرآني، وهو 'مما قدم النية به التأخير'. وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه. وحكى الشوكاني[15]: «قال ابن كيسان: في الكلام تقديم وتأخير، أي انشق القمر واقتربت الساعة»[16]، ونقل القرطبي عن الفراء قوله أن الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى فلك أن تقدم وتؤخر، وفي هذا المعنى قال أبو القاسم السهيلي: «والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال»[17]، فيكون مما تقدم أن مدلول الساعة إنما هو

---

(12) سورة الزلزلة، الآية 1-2.

(13) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، الجزء الرابع، صص. 264-265.

(14) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، الجزء الثالث، ص175 وما بعدها.

(15) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تح. عبد الرحمن بن عميرة، دار الوفاء، 1994، الجزء الخامس، ص159.

(16) أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح. عبد الله التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2006، الجزء العشرون، ص73.

(17) أبو القاسم السهيلي، نتائج الفكر في النحو، تح. عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الفكر، دون تاريخ، ص209.

القيامة، ويكون على القارئ المترجم أن يبحث في اللسان الذي يروم نقل النص إليه ما يحقق به - في النص المنقول إليه - معنى الانشقاق المؤذن باقتراب القيامة.

وعلى هذا الأساس يكون قول الكرماني: «المعنى: انشق القمر فاقتربت الساعة»[18]، هو التفسير اللساني الأمثل الذي وجب على المترجم إيجاد مكافئ له في اللسان المنقول إليه.

تحليل لساني للترجمة الفرنسية

1) «L'Heure approche. La lune se fond.»[19]
2) «L'heure approche et la lune s'est fondue.»[20]
3) «L'Heure s'approche et la lune se fend.»[21]
4) «L'Heure approche et la lune s'est fendue.»[22]
5) «L'Heure approche; la lune s'est fendue en deux tronçons.»[23]
6) «L'Heure approche et la lune se fend.»[24]
7) «L'heure du jugement dernier approche où la lune volera en éclats»[25]
8) «L'heure approche, et la lune s'est fendue»[26]
9) «L'Heure approche et la lune s'est fendue.»[27]

(18) محمود بن حمزة الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تح. شمران سركال يونس العجلي، جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، 1983، ص1161.

(19) Le Coran, tr. R. Blachère, p.564.

(20) Le Coran, tr. Kasimirski, p.413.

(21) Le Coran, tr. E. Montet, p.263.

(22) Le Coran, tr. N. Ben Mahmoud, revu par A. Harkat, p.739.

(23) Le Coran, tr. S. Mazigh, Tunis, Maison Tunisienne de l'édition, p.1005.

(24) Le Coran, tr. B. Hamza, Alger, ENAG, 1989, T. II, p.459.

(25) Le Coran, tr O. Pesle et A. Tidjani, Paris, Maisonneuve et Larose, 4e éd., 1967, p.360.

(26) Le Coran, tr. C. E. Savary, Amsterdam, Les Libraires Associés, 1826, T. II, p.351.

(27) Le Noble Coran, tr. M. Hamidallah, Al-Madinah Al-Munawarah, Complexe Roi Fahd pour l'impression du saint Coran, 1420, p.528.

10) «Voici que l'Heure est toute proche et que la lune s'est fendue»[28]

يمثل اختلاف الترجمات للنص القرآني الواحد دلالة على صعوبة استكشاف معانيه ما لم يستند الفعل الترجمي إلى فعل تفسير «faire interprétatif»، يجلي مضامينه ويحدد دلالاته، ولعل أول ما يلفت انتباه المتفحص لهذه الترجمات للفظة «Heure»، المكافئة لمفردة ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾، التي وردت في بعض الترجمات بحرف كبير «majuscule»، لإضفاء دلالة المقدس عليها وتمييزها عن لفظة «heure» الدالة على الزمن، كما بيناه في التحليل السابق.

بيد إن الفعل الذي اقترنت به، الدال على الاقتراب صيغ، في هذه الترجمات، بصيغة الحاضر، وهو خلاف النص القرآني الذي صيغ فيه بصيغة الماضي. فهو بهذه الصيغة لا يدل على اقترابها الوشيك، ودنوها، وإن لم تدل عليه قرينة نصية، يظل معنى عاما، شاملا لمعنى الاقتراب دون تحديدٍ لطبيعته.

وما من شك في أن أصحاب الترجمة قد استندوا في ترجماتهم إلى تفسير القرآن، وهو ظاهر في صيغة الفعل «fondre» المكافئ لفعل الانشقاق، فقد صاغه كزمرسكي وبن محمود ومازيغ، وسفاري، وحميدوالله وكشريد، في الماضي للدلالة على حدوث انشقاقه، وبه قول جمهور المفسرين، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، قد كان هذا في زمان رسول الله صله الله عليه وسلم، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه إحدى المعجزات الباهرات»[29]، أبو بكر حمزة، وصاغه

(28) Le Coran, tr. S. Kechrid, Beyrouth, Dar El-Gharb El-Islami, 1981, p.704.

(29) الحافظ بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح. مصطفى السيد محمد وآخرون، الجيزة، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، 2000، المجلد الثالث عشر، ص289.

بلاشير ومونتي بصيغة الحاضر الدالة على المستقبل، وأكثر منهن دلالة على المستقبل ترجمة بال وتيجاني، وبه قال البعض، قال أبو حفص الدمشقي: «وقيل: انشق بمعنى سينشق يوم القيامة، فأوقع الماضي موقع المستقبل لتحققه وهو خلاف الإجماع»[30].

واعتبارا بهذا، تكون ترجمة بن محمود هي الترجمة الأقرب من غيرها إيفاءً بمعاني الملفوظ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، لكنها تبقى كالترجمات الأخرى عاجزة عن الوفاء بفعل الاقتراب، فلو قابلنا الفعل ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ وقد صيغ بصيغة الماضي بالفعل «approche» الذي صيغ بصيغة الحاضر، لظهر الفرق. إن دلالة الاقتراب في الفعل «approche» من الناحية الزمنية غير تلك التي تدل عليها لفظة ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾، فإذا كان فعل الاقتراب فيها قد تحقق فعلا بانشقاق القمر، فهو لا زال يتحقق بصيغة الحاضر المستمر في الفعل الفرنسي «approche»، والفعل «approcher» في هذا السياق من الأفعال الفرنسية غير المتعدية الذي يقترن بالفعل الدال على الأشياء، ومن بين معانيه[31] «Etre imminent, proche (dans le temps)»، لكن الفارق الدلالي بين الفعل «approcher» والفعل «être imminent» واضح، ذلك أن الفعل الثاني أقرب إلى معنى الاقتراب الحاصل في النص القرآني، وهو جلي إذ إن الصيغة التي صيغ بها الفعل ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ صيغة مبالغة، قال محي الدين الدرويش: «في قوله ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ زيادة مبالغة على قرب، كما أن في اقتدر زيادة مبالغة على القدر؛ لأن أصل افتعل إعداد المعنى على المبالغة»[32]، وقال الكرماني: «﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾، أي دنت دنوا قريبا، واقترب أبلغ من قرب، لأن افتعل يأتي لطلب الشيء بالمبالغة فيه، ومثله اقتدر»[33].

---

(30) أبو حفص الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب، تح. عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998، الجزء الثامن عشر، صص. 229-230.

(31) P. Robert, Le nouveau Robert, Paris, Dictionnaires Le Robert, 1993, «approcher», p.121.

(32) محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دمشق، دار ابن كثير، الطبعة السابعة، 1999، المجلد الرابع، الجزء السابع والعشرون، ص348.

(33) محمود بن حمزة الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، ص1161.

لقد أخفقت الترجمات كلها في التعبير عن النص القرآني أحسن تعبير لأنها في نظرنا اكتفت بمحاولة ترجمة الملفوظين المعبرين عن معنى انشقاق القمر واقتراب الساعة، دون الحرص على نقل العلاقة المعنوية التي تربط بينهما. صحيح أن ترجمة بال وتيجاني المشتركة حاولت التعبير عن هذه العلاقة بوصل الملفوظين بأداة الوصل «où» الدالة على الاقتران في المكان والزمان، لكنها أشعرت حدوثها في المستقبل، وهو خلاف الإجماع.

إن التعرف على العلاقات التي تنعقد بين جمل النص المراد ترجمته وملفوظاته خليق بأن يعين المترجم على تحديد الشبكات الدلالية التي ينجسها النص لتشكيل معانيه، وفي هذا الإطار تبرز أهمية الدور الذي تضطلع به حروف المعاني في توجيه معاني النص، فبقدر ما هي أدوات لا يمكن للفعل التفسيري الاستغناء عنها، بقدر ما هي ضرورية في توجيه الفعل الترجمي.

الملفوظ الثاني ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾

تحليل لساني

يتم الانتقال من الملفوظ الأول إلى الذي يليه بأداة الوصل 'الواو'، وهي من النوع الثاني للواو غير العاملة التي أشرنا إليها قبل قليل، إنها واو الاستئناف، وتسمى واو الوقف، وهي التي يكون بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها في المعنى، ولا مشاركة في الإعراب، ويكون بعدها الجملتان. قال المالقي: «فإن عطفت جملة على جملة لم يلزم تشريكٌ في اللفظ ولا في المعنى، ولكن في الكلام خاصة، ليعلم أن الكلامين فأكثر في زمان واحد أو في قصد واحد، فلذلك جاز أن يُعطف بها إذ ذاك جملة خبرية على مثلها»(34) والجملة التي يتكون منها الملفوظ جملة شرط وجوابه(35)، وقال

(34) أحمد بن عبد النور المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تح. أحمد محمد الخراط، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دون تاريخ، ص415.

(35) أبو جعفر النحاس، إعراب القرآن، تح. زهير غازي زاهد، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الثانية، 1985، الجزء الرابع، ص285.

محي الدين الدرويش: «الواو عاطفة، وإن شرطية، ويروا فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، ويعرضوا فعل جواب الشرط، ويقولوا عطف على يعرضوا، وسحر خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا، ومستمر صفة لسحر»[36] وأضاف بهجت عبد الواحد صالح: «﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً﴾: الواو استئنافية، إن حرف شرط جازم، يروا فعل مضارع فعل الشرط مجزوم بإن وعلامة جزمه حذف النون. الواو ضمير متصل في محل رفع فاعل والألف فارقة. آية: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة. ﴿يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ﴾: جواب الشرط تعرب إعراب ﴿يَرَوۡاْ﴾، و﴿يَقُولُواْ﴾ معطوفة بالواو على ﴿يُعۡرِضُواْ﴾ وتعرب إعرابها .﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾: الجملة الاسمية في محل نصب مفعول به - مقول القول - سحر: خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا سحر مرفوع بالضمة، مستتر صفة - نعت - لسحر مرفوعة بالضمة»[37].

وحري بنا قبل الانتقال إلى الملفوظ الذي يلي أن نسأل، أولا: إلى ما يحيل - في النص القرآني - ضمير الجماعة الواو في ﴿يَرَوۡاْ﴾ و﴿يُعۡرِضُواْ﴾ و﴿وَيَقُولُواْ﴾، وهل فيه قرينة تدل على ذلك؟ وثانيا: إلى من هو موجه إليه الخطاب في هذه الآية؟ فنقول - إجمالا - إن الخطاب موجه إلى حاضر مخاطب (أنت) في قوله ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾، يخبر فيه عن حال غائب، (هم)، في ﴿يَرَوۡاْ﴾ و﴿يُعۡرِضُواْ﴾ و﴿وَيَقُولُواْ﴾. وقد أجاز لنا ذلك منطقُ العلاقات التي تنشأ بين المفردات من مواقعها داخل الجمل، و«هذه العلاقات - يقول محمد حسن حسن جبل - حصيلتها ما يسمى المعنى التركيبي. فهو في الجملة الفعلية يتمثل في أن هذا الفعل أوقعه مسمى هذه الكلمة (أي الفاعل) على مسمى تلك (أي على المفعول)، وفي الجملة الاسمية: أن معنى تلك الكلمة (أي الخبر) محكوم على مسمى هذه (أي الخبر) وخبر به عنه، وفي المكملات: أن هذه الكلمة وظيفتها بيان (حال) الفاعل عند وقوع الفعل

(36) محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الرابع، الجزء السابع والعشرون، ص346.

(37) بهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، دار الفكر للنشر والتوزيع، دون تاريخ، المجلد الحادي عشر، ص298.

منه. . . أو (حال) المفعول عند وقوع الفعل عليه، وتلك (تميز) ذلك المقدار، أو تبين أن مسماها أو مدلولها (مستثنى) أي مخرج من الحكم الذي قبله. . . وهكذا»[38].

وليس ها هنا في النص من قرينة تدل على رجوع الواو إلى مسمى ظاهر، ولا يبرز هذا المسمى إلا في المقطوعة الثانية من المجموعة الأولى، في لفظ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، في الآية الأخيرة منها. ونذكر أن المعارف الموسوعية هي الكفيلة بإمداد القارئ المترجم بما يحتاج إليه من معرفة عن عودة الضمائر في هذا الملفوظ، وفي النص القرآني عموما، ويستمد ذلك خصوصا من المعرفة بأسباب النزول التي تنتمي إلى المعارف التداولية التي لا غنى عنها في البحث عن الأبعاد السيميائية للترجمة. قال القرطبي: «عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾» ومن بين المسائل التي أحاط بها الرازي[39] بشأن هذه الآية قوله: «المسألة الثانية: الجمع الذي تكون الواو ضميرهم في قوله غير مذكور، فمن هم؟ نقول هم معلومون وهم الكفار، تقديره: وهؤلاء الكفار إن يروا آية يعرضوا»[40]، فقد ثبت ذلك معنا.

وحتى نتبين العلاقات العائدية «relations anaphoriques»، نتبين ذلك في الرسم المصغر الذي يلي:

1. ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾
2. ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾
3. ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾
4. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾

(38) محمد حسن حسن جبل، دفاع عن القرآن الكريم. أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللغة العربية، مصر، البربري للطباعة الحديثة، الطبعة الثانية، 2000، ص126.
(39) تفسير الرازي، الجزء التاسع والعشرون، ص31.
(40) أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء العشرون، ص73.

5. ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

فنلاحظ الانسجام «cohérence» الإيزتوبي (التشاكلي) الذي تنسجه الضمائر، (الضميرين المتصلين، 'الواو' و'هم'، وتواراداتهما «occurrences») الموصولة فيما بينها بأداة الوصل 'الواو'، ويتحقق الانسجام بفضل الوظيفة المزدوجة التي تضطلع بها العناصر العائدية، فهي - في نظر ديكرو[41] «O. Ducrot» - تسهم في التأليف الدلالي «combinatoire sémantique» الداخلي للجملة من جهة، وتربطها بالجمل الأخرى المكونة للنص من جهة أخرى، أوضح في المقام ذاته أهمية مفهوم العائد في التحليل اللساني، إذ لا يمكن وصف مفردات النص دون معرفة الدور العائدي الذي تضطلع به. وفي مقابل ذلك، تمكننا العلاقات العائدية من معرفة المرجع الذي تحيل إليه مفردة الكافرون في النص، فهُم المعرضون، الذين قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، المكذبون، المتبعي أهواءهم، الذين جاءهم من الأنباء، على حسب الترتيب في النص القرآني.

والملاحظ في هذا الملفوظ خلو ﴿ءَايَةً﴾ من أداة التعريف، وهو بهذا يرتقي إلى مرتبة الجنس التي تنضوي ضمنه كل آيات الله سبحانه وتعالى، وإلى المفهوم الكلي الشامل. قال الرازي: «التنكير في الآية للتعظيم، أي إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا»[42] وقال الفراء: «وقوله ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ يعني القمر»[43].

وهنا نسأل: إذا ما استوفت الترجمة كل ما جئنا على ذكره من مقتضيات التفسير والتأويل، فهل تكون قد أدت مقاصد النص القرآني،

---

(41) O. Ducrot et J.-M. Schaeffer, Nouveau Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p.548.

(42) تفسير الرازي، الجزء التاسع والعشرون، ص31.

(43) أبو زكريا الفراء، معاني القرآن، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1983، الجزء الثالث، ص104.

ونجحت - إلى حد ما - في التعبير عن مكنونه، وتبليغ محتواه أحسن تبليغ وأدق تعريف، نقول: لا. لأن القرآن حمّال وجوه، بمعنى أن المفردة الواحدة، حتى وإن أُحكم محتواه بمحكم السياق النصي والسياق التلفظي، لبقيت تحتمل معان متعددة ومن ذلك لفظة ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾، فقد أورد بشأنها الشوكاني المعاني التالية بقوله: «وقد قال بأن معنى ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾ قوي شديد جماعة من أهل العلم. قال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، وهو شدة فتله، وبه قال أبو العالية والضحاك، واختاره النحاس. ومنه قول لقيط:

حتى استمرت على شر لا يزنه صدق العزيمة لا رثا ولا ضرعا

وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ أي ذاهب، من قولهم مر الشيء واستمر إذا ذهب، وبه قال قتادة ومجاهد وغيرهما، واختاره النحاس، وقيل: معنى ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾: دائم مطرد، ومنه قول الشاعر:

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر ليس على شيء قديم بمستمر

أي بدائم باق. وقيل: ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾: باطل، روي هذا عن أبي عبيدة أيضا. وقيل: يشبه بعضه بعضا. وقيل قد مر من الأرض إلى السماء. وقيل: هو من المرارة، يقال: «مر الشيء صار مرا، أي مستبشع عندهم»[44] وقال محمي الدين الدرويش: «وجميع هذه الاحتمالات صائغة»[45].

فاللفظة الكريمة تحتمل - كما نلحظ من أقوال علماء معان القرآن - دلالات متعددة، فهي تارة القوة والشدة، وتارة الذهاب، وتارة الدوام والاطراد، وتارة البطلان، وتارة المرارة، وتارة الشبه، فكيف السبيل إلى اختيار هذا المعنى دون الآخر، وهل في الألسن الأخرى، واللسان الفرنسي

(44) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تح. عبد الرحمن بن عميرة، دار الوفاء، 1994، الجزء الخامس، ص159 وما بعدها.

(45) محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الرابع، الجزء السابع والعشرون، ص346.

على وجه الخصوص، لفظ يفي بكل هذه الدلالات، وإذ نلحظ أن بلاشير[46] «Magie continuelle» ومونتي[47] «C'est toujours de la magie» اختارا دلالة الاستمرار أي الدوام، بينما اختار كزمرسكي[48] «C'est un enchantement puissant»، دلالة القوة والشدة، لأدركنا استحالة ذلك، ولو رام المترجم استقصاء كل دلالات مفردات القرآن جميعها، لاحتاج لأن يحشو ترجمته للقرآن إلى كم لا يحصى من الإحالات التي تشير إلى الدلالات الممكنة، وما ينجم عن تركيبها من المعاني الهائلة. وهذا لعمري فوق طاقة مترجم واحد، بل إنه يستعصى على المؤسسات جمعاء.

أضف إلى هذا أن المفردة قد تكررت في السورة ذاتها مرتين، فهي في الأولى على لسان كفار قريش، وفي الثانية وصف من الله جل وتعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، فهل لها في كلا السياقين الدلالة ذاتها، كلا. ومن الناحية الإعرابية، فإن الجملة ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ جملة اسمية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا، ومستمر صفة - نعت - لسحر مرفوع مثله وعلامة رفعهما - الموصوف والصفة - الضمة المنونة[49]. والجملة جزء من جواب الشرط، وأتى بهذه الجملة الشرطية تنبيها إلى أن حالهم في المستقبل كحالهم في الماضي[50].

تحليل لساني للترجمة الفرنسية

1) «S'ils voient un signe, ils s'écartent disant : «Magie continuelle !»[51].

2) «Mais les infidèles, à la vue d'un prodige, détournent leurs yeux et dis-

(46) R. Blachère, Le Coran, p.564.

(47) Montet, Le Coran, Tomme II, p.263.

(48) Kasimirski, Le Coran, p.413.

(49) بهجت عبد الواحد شيخلي، بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، عمان، مكتبة دنديس، الطبعة الأولى، 2001، المجلد التاسع، ص602.

(50) أبو حفص الحنبلي، اللباب في علوم القرآن، تح. عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998، الجزء الثامن عشر، ص231.

(51) Le Coran, tr. R. Blachère, p.564.

ent : C'est un enchantement puissant»[52].

3) «S'ils voient un signe, ils se détournent et disent : «C'est toujours de la magie !»[53].
4) «Et s'ils voient un signe, ils s'en détournent et disent : «Une magie persistante»[54].
5) «S'ils voient un prodige marquant, ils s'en détournent, et disent : «la magie se poursuit»[55].
6) «Si les impies voient un signe, ils s'en détournent en disant : «C'es une magie persistante»[56].
7) «Quand ils voient un signe, ils s'en détournent en disant : «C'est la magie qui se perpétue»[57].
8) «Mais les infidèles, à la vue des prodiges, détournent la tête, et disent : C'est un enchantement puissant»[58].
9) «Et s'ils voient un prodige, ils s'en détournent et disent : «Une magie persistante»[59].
10) «S'ils voient un miracle ils tournent le dos et disent : «C'est une sorcellerie continue»[60].

أوّل ما يستوقفنا النظر في هذه الترجمات وظيفة الواو التي استفتح بها الملفوظ الثاني وبها عطف على الأول، ولئن كانت وظيفة الواو المعتادة العطف فحري بأن تترجم بأداة العطف «et» كما فعل بن محمود، فما الذي دعا كزمرسكي إلى أن يضع مكانها «mais» كمكافئ لها؟ ولنا بذلك عودة

(52) Le Coran, tr. Kasimirski, p.413.
(53) Le Coran, tr. E. Montet, p.263.
(54) Le Coran, tr. N. Ben Mahmoud, revu par A. Harkat, p.739.
(55) Le Coran, tr. S. Mazigh, p.1005.
(56) Le Coran, tr. B. Hamza, p.460.
(57) Le Coran, tr. O. Pesle et A. Tidjani, p.360.
(58) Le Coran, tr. C. E. Savary, T. II, p.351.
(59) Le Coran, tr. M. Hamidallah, p.528.
(60) Le Coran, tr. S. Kechrid, p.704.

إلى الملفوظ فنقول: هل في النص القرآني ما يشير إلى أن في 'الواو' معنى 'لكن'، ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، ومن المعروف أن الواو الواقعة في هذا الملفوظ ليست واو الاستئناف، إذ إن واو الاستئناف، ويقال لها واو الابتداء هي «الواو التي يكون بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها، في المعنى، ولا مشاركة له في الإعراب»(61)، وتعلق الملفوظين في المعنى على قول المفسرين ظاهر، إذ إن قولهم بأنه سحر مستمر وصف لانشقاق القمر على أشهر أقوال المفسرين.

بيد إن الواو قد تأتي أحيانا - نقلا عن المرادي(62) والمالقي(63) - بدلا من همزة الاستفهام، إذا كان بعدها همزة كما في قوله جل وعلا، من قراءة قنبل من رواية ابن كثير: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾(64)، وإنما ذلك لكراهة اجتماع همزتين في الأصل. فإذا كان الأمر كذلك، وجاز لنا رد الواو إلى أصل الاستفهام فهو - والله أعلم - استفهام إنكاري ينكر فيه النص القرآني على الكافرين إعراضهم عن الآيات جملة، وآيات الانشقاق خاصة، ويؤيده استعمال الأسلوب الإنكاري في مستهل المجموعة الثالثة من السورة، وهو قوله جل وعلا: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾، وبذلك يتضح جانب آخر من جوانب ارتباط المعنى في الملفوظين، ويتضح وجه المناسبة بينها وتناظرهما «isotopie»، ويَرُّد ترجمةَ كزمرسكي لأننا لم نلف من عدَّ من معاني الواو، المعنى التقابلي الذي تضيفه مفردة «mais» الفرنسية.

ولا بد أن نشير في هذا المقام إلى ما للقراءة، بمدلولها الشفهي، من دور في إبراز المعاني، ومن ذلك التنغيم، ونحن إذ نثير هذه المسألة إنما نثير في الآن ذاته مسألة أخرى ذات بعد إبستيمولوجي، فأغلب الظن أن ترجمات القرآن كلها كان أصحابها قد اعتمدوا على النص القرآني

(61) الحسن بن قاسم المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، ص163.

(62) المرجع السابق، ص163.

(63) أحمد بن عبد النور المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، ص438.

(64) سورة الأعراف، الآية 123.

المكتوب، ولم يتنبهوا إلى ما للأداء الصوتي، وقراءة القرآن، من إسهام في إبراز معانيه وتحديد دلالاته.

وقد عقد علماء القرآن والقراءات لهذه المسائل أبواب متفرقات، وخصوها بمؤلفات جامعات، فبينوا صلتها بدلالة مفردات القرآن الكريم، ومعاني نصوص آياته. ولا يقتصر فضل علم القراءات في تحصيل دلالات المفردات من حيث معانيها على القراءات المتحدة المعنى، بل إن القراءات المتعددة المعنى، وهي - كما قال - «القراءات التي اختلف لفظها ومعناها، واختلاف المعاني في هذا النوع هو من باب اختلاف التنوع لا من باب اختلاف التضاد، لأن اختلاف التضاد منفي عن القرآن... وهذا النوع - أعني اختلا ف التنوع - لا يوجد إلا في الفرش، وإن غالب الفرش من هذا النوع. ومن أمثلة هذا النوع: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، قرئت يصُدون، بضم الصاد، وهي قراءة نافع، وابن عامر، والكسائي، وقرئت بالكسر وهي قراءة الباقين من العشرة. فالقراءة الأولى بمعنى: يصدون غيرهم عن الإيمان، والقراءة الثانية بمعنى: صدودهم في أنفسهم. وكلا المعنيين حاصل منم»(65).

لقد اختلف الترجمات في نقل مفردة ﴿ءَايَةً﴾ إلى اللسان الفرنسي، فبينما اتفقت ترجمات بلاشير، ومونتي، وبن محمود، وأبو بكر حمزة، وبال وتجاني على ترجمتها بلفظة «signe»، نقلها كزمرسكي ومازيغ، وسفاري وحميدوالله بلفظة «prodige»، بينما اختار كشريد لفظة «miracle» فما طبيعة هذا الاختلاف؟

تأتي لفظ الآية دالة في القرآن الكريم على معاني، رتبها الزرقاني على النحو الآتي: «أولها: المعجزة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾(66)، أي معجزة واضحة. ثانيها: العلامة، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن

(65) نبيل ابن محمد إبراهيم آل إسماعيل، علم القراءات، نشأته - أطواره - أثره في العلوم الشرعية، الرياض، مكتبة التوبة، الطبعة الأولى، 2000، ص48.
(66) سورة البقرة، الآية 211.

رَبِّكُمْ﴾[67]، أي علامة ملكه. ثالثها: العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾[68]، أي عبرة لمن يعتبر، رابعها: الأمر العجيب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[69]، خامسها: البرهان والدليل، نحو قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[70]، والمعنى أن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال، خلق عوالم السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان»[71]، وأضاف الأصفهاني إلى هذا الدلالات قوله: «وقيل للبناء العالي، نحو: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾[72]... وقيل: الآيات إشارة إلى الأدلة»[73]، فأي الدلالات تتخذ اللفظة في هذه الآية؟ أي هي المعجزة، أم العلامة، أم الأمر العجيب، أم البرهان والدليل؟

لا شك في أن السياق القرآني وأسباب النزول من شأنهما أن يسهما في تحديد الدلالات التي تتخذها لفظة الآية في هذا المقام؛ فمن ناحية السياق القرآني، وردت اللفظة نكرة على الرغم من إحالتها على انشقاق القمر، لكنها اقترنت بفعل النظر، فهي إذن تدل كما قال به المفسرون على معجزة؛ على معجزة انشقاق القمر من حيث الخصوص وعلى المعجزة من حيث الشمول. وصفة هذه المعجزة أنها دالة، أي أنها دليل على صدق الرسول ﷺ، فالآية ليست في هذا المقام مجرد معجزة («miracle», «prodige») بل هي أيضا دليل «une preuve»، وليس من اليسير أن توفق الترجمة الفرنسية في الإتيان بكل دلالات لفظة الآية إلا أن تتخطى الترجمة الحرفية نحو ما هو أوفى للمعنى.

---

(67) سورة البقرة، الآية 248،

(68) سورة البقرة، الآية 248،

(69) سورة المؤمنون، الآية 50،

(70) سورة الروم، الآية 22،

(71) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، الجزء الأول، ص274،

(72) سورة الشعراء، الآية 128.

(73) الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص102.

ولو نظرنا في تعريف المفردة:

«Prodige: Evénement extraordinaire, de caractère magique ou surnaturel»[74]

لوجدناها أقرب إلى دلالة المفردة القرآنية من سائر الترجمات الأخرى التي اقتصرت على الترجمة الحرفية، ونرى أن هذا الاختلاف من باب اختلاف الخصوص والعموم، أي أن إيراد لفظة «signe»، مكافئا لمفردة ﴿ءَايَةً﴾ من باب العموم، بدليل تفسير بعضه بـ (كل آية)، أما إيراد لفظة «prodige» فهو من باب الخصوص الذي يعنى به آية انشقاق القمر. وهذا دليل آخر على ارتباط الترجمة بالفعل التفسيري ارتباطا عضويا.

الملفوظ الثالث: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾

تحليل لساني

يتم الانتقال إلى هذا الملفوظ، كما إلى السابق من الذي يسبقه، بأداة الوصل 'الواو'، لكن أول ما يطالعنا في هذه الآية انصراف النص القرآني عن الفعل المضارع إلى الفعل الماضي، قال محمي الدين الدرويش: «وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ عدول عن المضارع كما يقتضيه ظاهر السياق لكون كذبوا، واتبعوا معطوفين على يعرضوا، والسر في هذا العدول الإشعار بأنهما من عادتاهم القديمة»[75]، ويعبر بعض علماء القرآن ومفسريه أحيانا عن هذه الظاهرة بمفهوم تلوين الخطاب[76].

والملاحظ في هذا الملفوظ أيضا حذف المفعول به من الفعل ﴿كَذَّبُوا۟﴾، وهذا ما جعل أئمة التفسير يؤوِّلونه بتكذيب الرسول تارة، وتارة أخرى بتكذيب انشقاق القمر، قال الفخر الرازي: «وهو يحتمل أمرين

---

(74) P. Robert, Le nouveau Robert, «prodige», p.2005.

(75) محي الدين الدرويش، إعراب القرآن، الكريم وبيانه، المجلد السابع، ص346.

(76) ينظر على سبيل المثال لا الحصر:

طه رضوان طه رضوان، تلوين الخطاب في القرآن الكريم، دراسة في علم الأسلوب وتحليل النص، طنطا، دار الصحابة للتراث، الطبعة الأولى، 2008.

(أحدهما) وكذبوا محمدا المخبر عن اقتراب الساعة (وثانيهما) كذبوا بالآية وهي انشقاق القمر»[77]، ولا شك، حينئذ، أن اختيار أحد التفسيرين يحدد للفعل التفسيري مسارا، أي أن الذي يتبع من النص القرآني يستند تفسيره إلى الذي سبق، بالقول كذبوا بكذا واتبعوا أهواءهم فيه.

تحليل لساني للترجمة الفرنسية

1) «Ils crient aux mensonges et suivent leurs caprices. Or tout décret est immuable»[78]
2) «Ils traitent le Coran d'imposture et ne suivent que leurs appétits ; mais toute chose sera fixée invariablement»[79]
3) «Mais ils traitent cela de mensonge, et ils suivent leurs désirs. Mais toute chose est arrêtée !»[80]
4) «Et ils [le] traitent de mensonge et suivent leurs propres impulsions, or chaque chose arrivera à son terme»[81]
5) «Ils crient à l'imposture, se complaisant dans l'erreur. Mais tout s'éclairera un jour»[82]
6) «Ils crient au mensonge et suivent leurs impulsions. Or, chaque chose arrivera à son terme»[83]
7) «Ils crient tout de mensonge pour suivre leurs penchants. Mais toute chose a une fin»[84]
8) «Entrainés par le torrent de leurs passions, ils nient le miracle ; mais tout sera gravé en caractères ineffaçables»[85]
9) «Et ils [le] traitent de mensonge et suivent leurs propres impulsions, or

---

(77) تفسير الرازي، الجزء التاسع والعشرون، ص32.

(78) Le Coran, tr. R. Blachère, p.564.

(79) Le Coran, tr. Kasimirski, p.413.

(80) Le Coran, tr. E. Montet, p.263.

(81) Le Coran, tr. N. Ben Mahmoud, revu par A. Harkat, p.739.

(82) Le Coran, tr. S. Mazigh, p.1005.

(83) Le Coran, tr. B. Hamza, T. II, p.460.

(84) Le Coran, tr. O. Pesle et A. Tidjani, p.360.

(85) Le Coran, tr. C. E. Savary, T. II, p.351.

chaque chose arrivera à son terme [et son but]»(86)

10) «Ils qualifièrent tout de mensonge, suivent leurs passions et les choses seront toujours ce qu'elles sont»(87).

إن الناظر في ترجمات هذا الملفوظ تستوقفه مسائل من مستويات متباينة، فعلى المستوى المفرداتي، أول ما يمكنه ملاحظته تعدد المكافئ للفعل (كذبوا) ومفردة الأهواء.

أما مكافئات الفعل (كذب) فجاءت على النحو الآتي:

1) R. Blachère : «Crier aux mensonges»
2) Kasimirski : «Traiter le Coran d'imposture»
3) E. Montet : «Traiter cela de mensonge»
4) N. Ben Mahmoud : «Le traiter de mensonge»
5) S. Mazigh : «Crier à l'imposture»
6) B. Hamza : «Crier au mensonge»
7) O. Pesle et A. Tidjani : «Crier tout de mensonge»
8) C. E. Savary : «Nier le miracle»
9) M. Hamidallah : «Le traiter de mensonge»
10) S. Kechrid : «Qualifier tout de mensonge»

وقد أشرنا إلى صيغة التنكير التي اتصفت بها المفردة، وأنها بذلك تحتمل أمرين (أحدهما) التكذيب بمحمد ﷺ المخبر عن اقتراب الساعة (وثانيهما) التكذيب بالآية وهي انشقاق القمر، وليست كل الترجمات قد وفقت في هذا، إذ باستثناء ترجمة بلاشير، ومازيغ، وأبو بكر حمزة، وبال وتيجاني، وصالح كشريد، اقتصرت الترجمات الأخرى على أحد التأويلين، وأخفقت أخرى كما هو الشأن بالنسبة لترجمة كزميرسكي التي قرنت فعل التكذيب للقرآن، وهو غير ذلك.

(86) Le Coran, tr. M. Hamidallah, p.528.

(87) Le Coran, tr. S. Kechrid, p.704.

أما مفردة الأهواء فقد اختلفت الترجمات أيضا في التعبير عنها وجاءت مكافئاتها على النحو الآتي: وهي: «caprices»، ثم «appétits»، ثم «désirs» ثم «impulsions»، ثم «erreur»، ثم «penchants»، وأخيرا «passions»، وليس يخفى عن المطلع على اللسان الفرنسي ما بين هذه الأسماء من اختلاف وتباين، وإن السبيل، من وجهة نظر سيميائية، للوقوف على آثار هذا الاختلاف على الترجمة، ممارسة تحليل سيمي للمفردات الأربع، بيد إن هذا التحليل السيمي يجب أن يزاوله الباحث - في هذا المقام - باللسان الفرنسي حتى يتفادى تأثير الترجمة في بحثه.

والتحليل السيمي كما مارسه كل بوتييه[88] «B. Pottier» وغريماس[89] إنما ينتهج الطريقة التي يتبعها التحليل الفونولوجي، وذلك عملا بمبدأ التشاكل «isomorphisme» كما حدده يمسليف «L. Hjelmslev» والذي يمكن بمقتضاه تحليل الوحدات الدنيا لمستوى المحتوى إلى خصائص مميزة هي السيمات أو الصور «figures»، مثلما يتم تحليل الوحدات الدنيا لمستوى التعبير إلى خصائص مميزة هي الفيمات «phèmes». وينطلق هذا التحليل عادة من التعريفات التي توفرها المعاجم اللسانية، وبمقارنة السيمات المكونة للمفردات العربية بسائر سيمات المفردات الأجنبية المكافئة لها، يمكن التعرف على الأقرب منها والأصدق تعبيرا عنها.

الملفوظ الرابع: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ﴾.

تحليل لساني

قال بهجت عبد الواحد في إعراب هذه الآية: «﴿وَلَقَدْ﴾: الواو استئنافية، اللام لام لم الابتداء والتوكيد أو واقعة في جواب قسم محذوف. قد: حرف تحقيق. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ماضي مبني على الفتح و﴿هُمْ﴾ ضمير

(88) B. Pottier, Linguistique générale, Paris, Klincksiek, 1974, p 63.

(89) A.-J. Greimas, Sémantique structurale, pp. 42-54.

الغائبين في محل نصب مفعول به مقدم .﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾: جار ومجرور بـ﴿جَآءَ﴾، ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل والجملة الاسمية بعده: صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بخبر مقدم .﴿مُزۡدَجَرٌ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة، أي ما فيه ازدجار لأن حكم مصدر الفعل حكم اسم مفعول به في التقدير لا في اللفظ .﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ﴾: بدل من ﴿مَا﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو حكمة، مرفوع بالضمة، ﴿بَٰلِغَةٌ﴾: صفة - نعت - ل﴿حَكَمْتَ﴾ مرفوعة مثلها بالضمة، وحذف فاعل ﴿بَٰلِغَةٌۖ﴾ أي بالغة غايتها. ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾: الفاء استئنافية، ﴿مَا﴾: نافية لا عمل لها، أو تكون بمعنى شيء في محل نصب ب﴿تُغۡنِ﴾ أي فأي غناء تغني النذر، ﴿تَغۡنَ﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة للثقل على الياء المحذوفة خطا واختصارا واكتفاء بالكسرة الدالة عليها، ويجوز أن تكون حذفت للوصل .﴿ٱلنُّذُرُ﴾: فاعل مرفوع بالضمة، وأنث الفعل على معنى جماعة النذر .﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾: الفاء استئنافية تفيد هنا التعليل، بمعنى: فلا ينفعهم النذر - المنذرون - فأعرض عنهم. ﴿فَتَوَلَّ﴾: فعل أمر مبني على حذف آخره حرف العلة والفاعل ضمير مستتر فيه وجوبا تقديره أنت، ﴿عَنۡ﴾: حرف جر، و﴿هُمۡ﴾: ضمير الغائبين في محل جر ب﴿عَنۡ﴾ والجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَوَلَّ﴾[90]

وقال محي الدين الدرويش[91] في إعراب هذه الآية: «﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾: الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وقد حرف تحقيق، وجاءهم فعل ماض ومفعول به، ومن الأنباء حال من ما، وما موصولة أو موصوفة، وعلى الحالين هي فاعل جاءهم، وفيه خبر مقدم، ومزدجر مبتدأ مؤخر، والجملة صلة ما .﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾: حكمة خبر لمبتدأ محذوف، أو بدل من ما، وبالغة صفة لحكمة،

(90) بهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، المجلد الحادي عشر، ص299-300.

(91) محي الدين الدرويش، إعراب القرآن، الكريم وبيانه، المجلد السابع، ص346-347.

ومفعول بالغة محذوف، والتقدير: بالغة غايتها، أي: لا يتطرق إليها خلل، والفاء عاطفة، وما نافية، أو استفهامية للإنكار، وهي في محل نصب مفعول مطلق، أي: فأي غناء تغن النذر، ويجوز أن تجعلها مفعولا به مقدم، أي: فأي شيء من الأشياء تغن النذر، وتغن فعل مضارع مرفوع، والنذر فاعل تغن. الفاء الفصيحة، وتول فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت، أي: لا تناظرهم بالكلام، وعنهم متعلقان بتول».

تحليل لساني للترجمة الفرنسية

1) «Déjà certes leur sont parvenues, parmi les récits sur les prophètes (‘anbâ’), des paroles contenant une menace! Sagesse efficiente! Inutiles ont été les Avertissements. Détourne-toi d’eux»(92)

2) «Ils ont déjà entendu dans le Coran des récits capables de les pénétrer de crainte. C’est la sagesse suprême; mais à quoi leur servent les avertissements? Eloigne-toi d’eux»(93)

3) «Ils ont su (cependant) par «L’Information» ce qui (doit) les contraindre, - Sagesse à longue portée - Mais les avertissements ne (leur) servent de rien!»(94)

4) «Ils ont pourtant reçu comme nouvelles de quoi les empêcher [du mal]. [Cela est] une sagesse parfaite. Mais les avertissements ne [leur] servent à rien. Détourne-toi d’eux»(95)

5) «Assez de récits leur étaient parvenus propres à les mettre en garde»(96)

6) «Il y a dans quelques-unes des nouvelles qui leur sont parvenues des mises en garde»(97)

---

(92) Le Coran, tr. R. Blachère, p.564.

(93) Le Coran, tr. Kasimirski, p.413.

(94) Le Coran, tr. E. Montet, p.263.

(95) Le Coran, tr. N. Ben Mahmoud, revu par A. Harkat, pp. 739-740.

(96) Le Coran, tr. S. Mazigh, p.1005.

(97) Le Coran, tr. B. hamza, T. II, p.460.

7) «Pourtant, ils ont reçu des avertissements susceptibles de les faire réfléchir»[98]

8) «On leur a développé des histoires capables de les détourner de l'erreur»[99]

9) «Ils ont pourtant reçu comme nouvelles de quoi les empêcher (du mal)»[100]

10) «Ils ont pourtant bien reçu comme nouvelles de quoi les détourner du mal»[101].

إن من بين المسائل التي تحاول سيميائيات الترجمة التعامل معها، تحديد طبيعتها بالنسبة للنص المراد ترجمته، مسألة انغلاق هذا النص، وإن كنا سنفيض القول فيها في الفصل الذي يلي، إلا أننا نود أن نشير هاهنا، وبالنظر إلى ترجمات هذا الملفوظ، إلى أن الوقف، استنادا إلى علماء القرآن، يعد من بين أهم محددات انغلاق النص القرآني. فالمعنى في النص القرآني واكتماله، الجزئي أو الكلي، تحكمه القراءة التي تتبع هي الأخرى مواصفات الوقف التي تواترت عليها القراءات المشهورة.

ولما كانت أغلب الترجمات إنما تعمد إلى القرآن فتترجمه آية آية، كثيرا ما تخفق في مراعاة طبيعة انغلاق النص القرآني ومحدداته الخاصة به التي تختلف كل الاختلاف عن سار النصوص الأخرى، فباستثناء ترجمة بلاشير، وكزميرسكي، وبن محمود لم تدرك الترجمات الأخرى أن الأمر للرسول بالتولي عن الكافرين إنما هو زمن التكذيب ونتيجة له، ولذلك وجب أن تدرج ترجمة (فتول عنهم) حتى ينغلق النص ويكتمل المعنى.

---

(98) Le Coran, tr. O. Pesle et A. Tidjani, p.360.

(99) Le Coran, tr. C. E. Savary, T. II, p.351.

(100) Le Coran, tr. M. Hamidallah, p.528.

(101) Le Coran, tr. S. Kechrid, p.704.

الفصل الخامس

سيميائيات الترجمة

السيميائيات العامة والترجمة

إن السيميائيات العامة غايتها إبراز الصلات التي تربط الأنساق الدالة فيما بينها، وهي تنزع إلى المستوى التجريدي، للإجابة عن بعض التساؤلات التي لا ينفك الإنسان يطرحها؛ من قبيل التفكير في معنى الكلام والتكلم عند الإنسان، عن ماهية المعنى، وكيفية اشتغاله، ووصفه، وطبيعة علاقته بالواقع، وغيرها من الأسئلة الأخرى المرتبطة بأشكال المعرفة وشروط تحققها. ولا ريب في أن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة إنما يستوجب إشراك عدد من العلوم الإنسانية مثل فلسفة اللغة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وغيرها من العلوم التي تدارست هي الأخرى مسائل تتصل بالمعنى، وما من شك - أيضا - في أن إشكالية المعنى ستظل نقطة التقاء هذه العلوم بالسيميائيات لارتباطه - أي المعنى - بالتجارب الإنسانية المتنوعة والمتجددة، ارتبطا وثيقا.

ولو نظرنا في أجهزة المصطلحات المتداولة من قبل مختلف اتجاهات السيميائيات ومدارسها لألفينا هذه الأخيرة تشترك في عدد من هذه المصطلحات، حتى وإن تفردت في تحديد المفاهيم التي تحيل إليها، ولعل مصطلحات العلامة، والنسق الدال، واللغة، والنحو، والوظيفة السيميائية، والتعبير والمحتوى، وغيرها كثير، أضحت إرثا اصطلاحيا لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال، بل إن كل المشاريع السيميائية إنما تبدأ معالمها تتشكل انطلاقا من التعريف بمواقفها إزاء هذا المصطلح أو ذاك، وتحديد تصورها إزاء عملية إنتاج المعنى وتلقيه، واقتراح نموذج تحليلي يعبر عنها، كما هو الشأن بالنسبة للسيميائيات الخاصة.

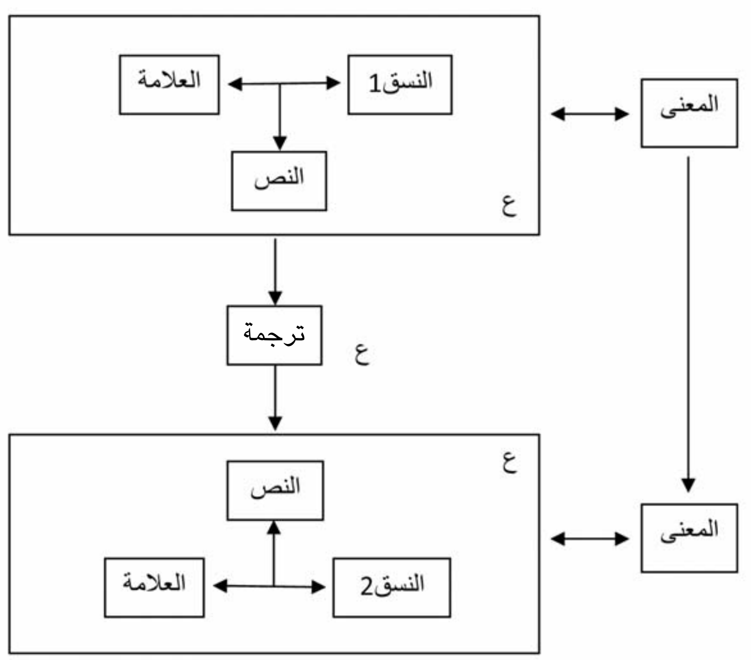
والسيميائيات الخاصة تعنى بوصف قواعد لغة بعينها، وغايتها صياغة نحو خاص بها يتميز عن باقي أنحاء اللغات الأخرى بخصائص تضمن له الاستقلال والتفرد. ويتألف هذا النحو عادة من نوعين من القواعد: 1) قواعد عامة، قد تبلغ أحيانا مرتبة الشمولية، وظيفتها وصف خصيصة مشتركة بين عدد من اللغات، أو اللغات جميعها، مثل خصيصة الخطية التي تشترك كل الألسن فيها، و2) قواعد خاصة بلغة بعينها لا تتعداها إلى لغات أخرى، فلغة الإشارات مثلا تستلزم وضع قواعد وصفٍ خاصة، فهي تشكل نسقا تختلف دواله ومدلولاتها من ثقافة إلى أخرى. ويُفترض قبل هذا الوصف أن السيميائيات الخاصة حددت مجال اشتغالها تحديدا دقيقا يستند إلى معيارين ثابتين هما: أولا، إنها تستقي وجودها من مدونة متجانسة من القواعد التي يمكن ردها إلى مخطط واحد، وثانيا، أن هذه القواعد مختلفة عموما عن القواعد التي تسير عمل لغة مجاورة لها[1]. وهذه القواعد ثلاثة أنواع، منها ما يخص تكوين الوحدات، ومنها ما يخص طرائق تعلقها بعضها ببعض، ومنها ما يخص استخدامها.

النسق، والعلامة، والنص، والترجمة

يرتبط مفهوما النسق والعلامة بمفهوم الترجمة لارتباطهما بمفهوم النص؛ فلا ترجمة بدون نص، ولا نص بدون علامة. كما إن الترجمة والعلامة كلاهما وسيلة من وسائل التواصل والتبليغ، وأداتان من أدوات التعبير والتدلال. ويمكن انطلاقا من تعلق هذه المفاهيم بعضها ببعض اقتراح مخطط يرسم المسار الذي تتخذه الترجمة في الانتقال من نسق إلى آخر على النحو الذي يلي:

---

(1) J. M. Klinkenberg, Précis de sémiotique générale, Paris, Seuil, 1996, p.30.



تقع الترجمة، وفقا لهذا المخطط المقترح، بين عمليتين اثنتين هما تفسير النص الأول وكتابة النص الثاني (أو إنتاجه)، وفي المرحلتين، ما يسبق الترجمة وما يليها، تنعقد بين مفاهيم النسق والعلامة والنص علاقات جدلية، إذ يدخل كل مفهوم من هذه المفاهيم في تحديد المفهومين الآخرين؛ فالنص نتاج تعلق «dépendance» مجموعة من العلامات، سواء أكان هذا التعلق خطيا، أو بصريا، أو غير ذلك من أشكال التعلق وأنواعه، والنسق مجموعة من العلامات بحيث لا تتحدد أي علامة منه إلا بالعلاقات التي تقيمها مع علامات النسق الأخرى، وهي نوعان من أنواع العلاقات، تركيبية «syntagmatique» واستبدالية «paradigmatique»، تشترك في تكوين النص، بانتقاء العلامة من بين مجموع العلامات التي تُكوِن حقليها المعجمي والدلالي، ثم تركيبها مع سائر العلامات المنتقاة لتكوين النص، وترتيبها (أو تنظيمها) تبعا لطبيعة النسق ونوع العلامة.

ولا يقتصر هذان النوعان من العلاقات على مستوى الدال، بل

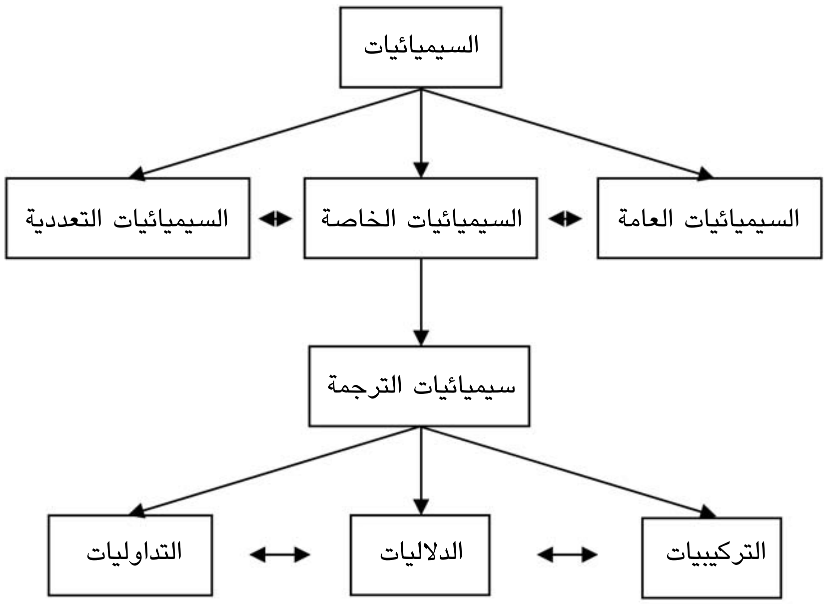
يحكمان أيضا مستوى المدلول، بمعنى أن المعاني تقيم هي الأخرى فيما بينها علاقات تركيب واستبدال، وهذه ميزة يشترك فيها مجموع الأنساق الدالة. وإن قلنا بأن النسق سابق في وجوده على العلامة فلأنه هو الذي يمدها بمجموع القواعد التي تحكم تعيينها وتمييزها فيما بينها داخل النص، من خلال تفكيكها وإعادة تركيبها، ولعل الفارق الذي يميز النسق عن النص يكمن في أن النسق محايث «immanent» مجرد، بينما النص متحقق ملموس. وطبيعي بأن يكون الأمر كذلك، فلو نظرنا إلى عملية الترجمة لألفيناها تجزأ النص مقاطع مقاطع، (كأن تكون - مثلا - جملا جملا، أو أشباه جمل)، ولا تعمد إلى العلامات لتنقلها منفردة، لأن المعنى الإجمالي محصلة تركيب من الدلالات الفردية «signification élémentaire»، التي يعمل السياق النصي على تحيينها، وتثبيتها دون الأخريات. ولو ابتغينا أن ننقل معاني العلامات منفردة لوضعنا صوب أعيننا مجموع الاستخدامات التي عادة ما تساق لها هذه العلامات، والأسيقة التي ألفيناها ترد فيها، وليس نتاج هذه الأسيقة وتلك الاستخدامات إلا نصوصا مكتفية الدلالة، يحسن السكوت عليها.

وضعت السيميائيات للعلامة جملة من التعريفات والمميزات التي اختلفت باختلاف النظريات السيميائية وتوجهاتها، وأضحى من العسير استقصاء القدر المشترك بينها، واستخلاص كل خصائصها الثابتة، كلما انتقلنا من فضاء سيميائي إلى آخر. لكن ثمة توجهات عامة يمكن قراءتها من تصورات بعض السيميائيين؛ فقد اتفق بورس، وفريج، وموريس، وأدجن وريتشارز في التعرف على أبعاد ثلاثة في العلامة: أما البعد الأول فيتمثل في كونها حاملا ماديا «support matériel»، وأما بعدها الثاني فينظر إلى موضوعها الذي تحيل إليه، وأما بعدها الثالث فيخص مظهرها أثناء إحالتها لموضوعها[2]. ولا يجب استثناء دو سوسير من هذه الطائفة على الرغم من أن بعض تأويلات دروسه في اللسانيات العامة تحاول أن لا تنزع عنه نزعة النسقية، كما سنبينه في حينه.

(2) O. Ducrot et J.-M. Schaeffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p.257.

الأبعاد الدلالية، والتركيبية، والتداولية للعلامة

استقر البحث المعاصر منذ تشارل موريس على تحديد ثلاثة أبعاد في العلامة هي، البعد الدلالي ويتحقق في علاقة العلامة ودلالتها، والبعد التركيبي، ويتمثل في علاقة العلامات فيما بينها، والبعد التداولي في علاقة العلامة بمستعمليها. وشرع ذلك تقسيم السيميائيات إلى فروع ثلاثة هي الدلاليات التي تعنى بدراسة البعد الأول، والتركيبيات بالبعد الثاني، والتداوليات بالبعد الثالث. وقد أخذت دراسة البعد التداولي طريقها إلى الترجمة منذ سنوات قليلة، ولم تقتصر على موضوع سيميائي بذاته، بل اشتغل كذلك بتداوليات أنساق سيميائية أخرى مثل المسرح وترجمته من لسان إلى آخر.



تعنى التركيبيات - فيما تعنى به - بأنواع تعلق العلامات فيما بينها، ويتحقق هذا المفهوم خلافا من نسق سيميائي إلى آخر، ووظيفة السيميائيات الخاصة تحديد نوع التعلق وطبيعته في كل نسق سيميائي تختص بدراسته ووصفه، وتحديد آليات نحوه. وإذا تعلق الأمر بالترجمة فإن التركيبيات من شأنها، بعد أن تنتهي من إحصاء أنواع التعلق الممكنة بين العلامات، أن تسهم في وضع مخطط عام يصلح الانتقاء منه. لكن الانتقاء هذا لا يمكن أن يفلح دون أن يرتبط بالجانبين الدلالي والتداولي للنسق الدال أو الموضوع السيميائي، وإن بدا من باب التكلف - والحال هذه - الحديث عن تركيبيات شمولية من شأنها استطلاع ما بين الألسن من علاقات وطيدة تفيد الترجمة، وتجاوز حدود المقارنة بين تركيبيات ألسن متقاربة، لتظل خصائص الألسن وقواعدها التركيبية فردية، تميز كل لسان عن غيره من الألسن الأخرى، فإن اللسانيات الحديثة، والسيميائيات في إثرها، أضافتا عسرا إلى عسر، ففضلا عن ميزة التفرد هذه، بينت البحوث النحوية المعاصرة مدى الارتباط الوثيق بين التركيب والدلالة(3)، وقبلها أقرت اللسانيات العامة(4)، والسيميائيات(5)، بخاصية استلزام الدال للمدلول، وتحديد - كليهما - الواحد للآخر، وبينتا استقلال العلامة عن الواقع الذي تحيل إليه أو الفكر الذي تمثله. ولعل الألسن أقربها تعبيرا عن هذه الخاصة؛ فهي ليست مجرد

(3) ينظر:

- عبد السلام السيد حامد، الشكل والدلالة، دراسة نحوية للفظ والدلالة، القاهرة، دار غريب للطباعة، والنشر والتوزيع، 2002.

- محمد عبد السلام شرف الدين، الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة، دراسة تفسيرية، القاهرة، دار مرجان للطباعة، الطبعة الأولى، 1984، ص22 وما بعدها.

وينظر بخصوص ألسن أخرى:

- J. Lyon, Sémantique linguistique, tr. par J. Durand et D. Boulonnais, Paris, Larousse, 1980, pp. 59-100.

(4) ينظر:

F. de Saussure, Cours de linguistique générale, éd. T. de Mauro, Paris, éd. Payot et Rivages, 1995, pp. 97 et s.

F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, éd. S. Bouquet et R. Engler, Paris, éd. Gallimard, 2002, pp. 17-22.

(5) A. J. Greimas, Sémantique structurale, Paris, éd. P. U. F., 1986, p.10.

مدونات من الكلمات، ولا الكلمات مجرد أجسام جاهزة وظيفتها احتضان ما أريد لها من دلالة، أو تمثيل أو إحالة، فينضاف إلى التحدي الأول تحدى آخر، عبر عنه إيكو[6] بقوله إن النصوص التي تنحو منحى جمالي، تنعقد بين مستويات التعبير ومستويات المحتوى، علاقات خفية، وأن قدرة المترجم تمكنه من تحقيق هذه العلاقة.

اللغة والتواصل والدلالة والترجمة

إن صياغة سيميائيات عامة مرهون بالدلالة التي يرتضيها الباحثون لمصطلح اللغة الذي انتقل من دلالته على مجموع الألسن البشرية وخلاصة الخصائص التي تشترك فيها إلى دلالته على كل نسق صوري من العلامات، وعلى وجه الخصوص، بالتخلي عن كل المحاولات التي ترمي إلى إسقاط التحاليل السيميائية ذات المنشأ اللساني عليها، من خلال البحث في هذه الأنساق غير اللسانية عما يمكن أن تحتويه من خصائص شبيهة بالخصائص المميزة للغة البشرية كتلك التي تقدم بها هوكت «C. F. Hockett» وألتمان «S. Altman»، مثل خواص الاعتباطية، والثنائية أو التقطيع المزدوج، والإنتاجية، وتميز العناصر، والتدلال، والاستحضار، والتبادل، والاسترجاع، والتخصص، والتوارث الثقافي، وغيرها من الخصائص التي قد تجد فيها بعض الأنساق الدلالية غير اللسانية بعض من الميزات المشتركة معها[7].

إن كثيرا من الأبحاث السيميائية التي عنيت باللغات غير البشرية لم ترتق إلى ما حققته السيميائيات اللسانية، فالممارسات الحركية، مثل الحركات الجسدية، والرقص، وغيرها، وإن لم يسلبها أحد من الباحثين ميزة التواصل التي تشترك فيها، وطابع النسقية التي يحكمها، إلا أنها ما تزال تسعى إلى تحديد العناصر الدنيا التي يمكن للتحليل السيميائي التعامل

(6) U. Eco, Dire presque la même chose, p.65.

(7) J. Lyons, Eléments de sémantique, tr. par J. Durand, Paris, Larousse, 1978, pp. 62 et s.

معها، فهل للعلامة الحركية دوال قارة تنوب في كل الأحوال عن مدلولات، وما هي طبيعة العلاقات التي تقيمها العلامات الحركية مع العلامات اللسانية حينما تجتمعان ضمن مرسلة واحدة. وهاهنا تشير كرستيفا[8] إلى أن قيمة الحركة بوصفها فعلا دلاليا، أو بالأحرى آلية «processus» تنبعث منه الدلالة قبل أن تتحدد في الكلام، أثارت اهتمام الحضارات، والأديان والفلسفات المختلفة. فقد كان للحركة الدور الحاسم في نشأة التعبير الرمزي، والكتابي على وجه الخصوص، فالحركة، ومنها الإشارة، يبدو أنها سبقت تسمية الأشياء والعام المحيط، إلى درجة أن التواصل الحركي عادة ما يتحد بالفضاء الذي يحتضنه، كما هو ثابت في كثير من الشعائر الدينية والطقوس الاحتفالية في مختلف الديانات.

إن الاختلافات الجمة التي تميز الأنساق الدلالية غير اللسانية عن نسق اللغة البشرية هو الذي حال دون صياغة سيميائيات عامة قادرة على استيعاب هذه الفروق، لاتخاذ هذه الأخيرة النسق اللساني في الكثير من الأحيان نموذجا يحتذى به، على الرغم من أن بعض الحقول الإبداعية استجابت إلى حد ما للتحاليل السيميائية التي أثبت جدارة في ميدان اللسان والأدب، مثلما هو حال سيميائيات الموسيقى التي أثرت المعرفة السيميائية باستلهامها لأفكار بورس، وسوسير، وغريماس، وغيرهم من رواد السيميائيات. ولا ريب في أن تتصل سيميائيات الموسيقى بفكر بورس وهو الذي صاغ أصنافه الفانيروسكوبية، الأولانية، والثانيانية، والثالثانية، مستعينا بمثال من الموسيقى، وهو النغم[9].

نسقية اللسان

يعتبر مفهوم النسق الذي أسهمت في بلورته، كل على حدا، سيميائيتي دو سوسير وبورس، وإن اختلفتا في التعبير عنه باختلاف المنطلقات

---

(8) J. Kristeva, Le langage, cet inconnu, Paris, Seuil, Coll. Points, 1981, p.300.

(9) E. Tarasti, la musique et les signes. Précis de sémiotique musicale, tr. par D. Charles et E. Gorge, Paris, l'Harmattan, 2006, p.21.

الإبستيمولوجية التي استندتا إليها، من بين المفاهيم الأصيلة التي مكنت من تحقيق القطيعة مع التصورات الكلاسيكية إزاء طبيعة العلامة وعلاقاتها بالفكر والعالم. فتبلور مفهوم النسق في فكر دو سوسير السيميائي بدأ يتحقق انطلاقا من النقود التي وجهها إلى سابقيه ومعاصريه من لساني القرن التاسع عشر، لاسيما لتصورهم الألسن البشرية مدونات «nomenclature» من المفردات. ويعد تصور اللسان مدونةً من مفرداتٍ تحيل إلى عالم خارجي من بين التصورات التي ورثتها اللسانيات الحديثة عن أرسطو وقواعد بور رويال[10]، ولا تزال تتداولها بعض نظرياتها[11] على الرغم من النقود الصريحة الذي وجهه لها دو سوسير وكثير من اللسانيين المحدثين من بعده مثل مارتني[12] ويمسليف[13] وغيرهما. وهو تصور يجعل من اللسان قائمة من الكلمات تقابل مجموعة من الأشياء ليس إلا، فيحجب حقيقة اللسان بوصفه نسقا من العلامات وطبيعة هذه الأخيرة الاعتباطية، لأن «العلامة اللسانية لا تربط بين شيء واسم بل بين مفهوم وصورية أكوستيكية»[14]، بين دال ومدلول، لا علاقة معللة بينهما.

إن التعرف على طبيعة اللسان الحقيقية يسهم إسهاما كبيرا في التعرف على طبيعة الانتقال من لسان إلى آخر، ويزيل عن الترجمة كثيرا من الاعتبارات التي لا علاقة لها بها، فإذا كانت وظيفة الكلمات تتلخص في تمثيل مفاهيم معطاة سلفا، كان من الأحرى أن يكون لكل كلمة جاءت لمعنى ما، ما يطابقها من كلمات مختلف الألسن تطابقا تاما[15]، ولأضحت الترجمة - إذن - مجرد انتقاء كلمات متطابقة من لسان لآخر، يكفي أن

---

(10) T. de Mauro in F. de Saussure, Cours de linguistique générale, note 129, p.439.

(11) من بين النظريات التي لم برهنت على عدم استيعابها للفكر السوسيري، النظرية الدلالية التي جاء بها كل من أودجن «C. K. Odgen» وريتشارد «I. A. Richards» القائمة على المثلث الدلالي.

(12) A. Martinet, Eléments de linguistique générale, Paris, A. Colin, 1980, p.10-11.

(13) L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, pp. 49-53.

(14) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p.98.

(15) Idem, p.161.

تصاغ لها المعاجم المزدوجة دون أي اعتبار للسياق اللساني، والاجتماعي والثقافي الذي من شأنه أن يملي على المتلفظ إيراد هذه الكلمة دون الأخرى، حتى وإن ترادفتا في الدلالة التي تعبران عنها. وقد أضاف إيكو[(16)] القول في هذا الشأن بأن الكلمات، حتى وإن تطابقت في الإحالة «référence» إلى الشيء ذاته، إلا أنها لا تتطابق، بالضرورة، في ما قد توحي به «connoté» الكلمات أو العبارات المركبة في ذهن المستمع أو القارئ.

كما إن طبيعة العلاقة التي تنعقد بين الشيء والكلمة التي تمثله ليست من البساطة التي يمكن تصورها، لأن المعنى الذي يمكن أن تتخذه الكلمة يتحدد قبل كل شيء - في نظر دو سوسير - من وجود، أو عدمه، كل الكلمات الأخرى التي تشترك في وصف الواقع الذي تحيل إليه هذه الكلمة، ذلك أن معنى الكلمة إنما يمكن تحديده من العلاقات التي تقيمها هذه الكلمة مع سائر الكلمات الأخرى، بحيث يكون معها نسقا، أو شبكة، كما عبر عنها مونين[(17)]، كل ودقاتها الدلالية متداخلة .«interdépendantes»

وليس غريبا إذن وفق هذا التصور أن ينعقد باب تفسير القرآن بالقرآن ضمن مختلف التفاسير المشهورة، وباب مناسبة الآيات والسور ضمن علوم القرآن. ولعل ما انتهجه بعض مفسري القرآن في تحديد معنى بعض آياته أو دلالة بعض كلماته باللجوء إلى الأسيقة النصية الأخرى التي وردت فيها، أو عبرت عن المعنى ذاته، إنما ينبع عن يقينهم أن ما يحيل إليه النص القرآني ليس هو بالضرورة ما جرت العادة على الإحالة إليه في عرف المتخاطبين باللسان العربي، صحيح أن القرآن العربي نزل بلسان عربي مبين، لكن أسلوب تأليف العلامات اللسانية، ولذلك، من الضروري التعرف على شبكات الدلالة التي تعقدها علامات النص القرآني اللسانية فيما بينها، ومختلف الحقول الدلالية التي تنشئها.

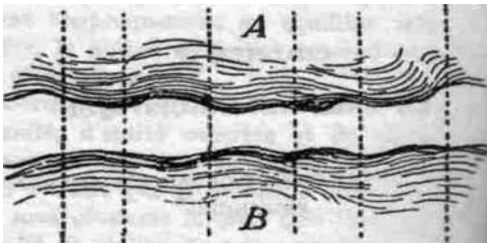
---

(16) U. Eco, Dire presque la même chose. Expériences de traduction, Tr. par M. Bouzehar, Paris, Grasset, 2006, p.29.

(17) G. Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction, Paris, Gallimard, 1963, p.23.

استقلال العلامة عن الواقع والفكر

ليست وظيفة اللسان إزاء الفكر أن تقدم له الوسيلة الصوتية المادية التي تتيح له التعبير عن المعاني، فإذا ما نظرنا إلى سلسلة الأصوات التي يصدرها الإنسان بغض النظر عن دلالتها لوجدناها مادة «substance» لا يمكن التمييز بين مفاصلها، مثلما لو تفحصنا أفكارنا دون التعبير عنها بسلسلة من الأصوات لوجدناها هي الأخرى مادة لا يمكن التمييز بين أجزائها؛ فالدور الأساسي الذي تضطلع به الألسن البشرية إزاء الفكر لا يكمن في إنشاء وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، إنما لتكون بمثابة وسيط بين الفكر والصوت، بحيث يؤدي اتحادهما بالضرورة إلى تحديدات لوحدات «délimitations d'unités» في كليهما، ولا تنتج هذه التحديدات مادة ثالثة، وإنما تنتج شكلاً، هو الشكل اللساني. وكما أن اللسان ليس وسيلة لترجمة الفكر الذي يفترض له وجود مسبق، فكذلك اللسان ليس نسخة طبق الأصل من الواقع، والطريف في الأمر لجوء دو سوسير[18] إلى الترجمة لإثبات دعواه، فالدليل على عدم تطابق اللسان مع الواقع الذي يسعى إلى تمثيله إنما يكمن في إمكانية التعبير عن الوقائع ذاتها بأسماء مختلفة من مختلف الألسن.



إن للسان إذن وجودا خاصا به، غير الوجود التاريخي أو الأنتولوجي أو الفكري. وهو ما ينافي أيضا التصور الذي توطد انطلاقا من بور رويال،

(18) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p 155.

والذي يقول بوجود بنية عامة للفكر وفقها تنتظم الملفوظات[19]. هذا يعني أيضا أن دلالة الكلمة لا يمكن تحديد بالتعرف على الشيء الذي تحيل إليه في الواقع، بل إن العلامة لا تحيل مباشرة إلى شيء بعينه إلا عن طريق مدلول ينتقي من بين خصائص هذا الشيء ما يتيح علاقة الإحالة هذه[20]. وفضلا عن إقراره باختلاف الألسن على مستوى التعبير، فإن الألسن تختلف كذلك من منظور دو سوسير على مستوى المحتوى.

لقد فتح هذا التصور آفاقا جديدة لمقاربة طبيعة الأنساق السيميائية التي ينتمي إليها اللسان، فأثبتت الفونولوجيا إجرائيته في وصف أنظمة الألسن الفونولوجية ومقارنتها مقارنة أقرب من الموضوعية، ثم صارت الدلاليات على خطاها لتقدما للسيميائيات نموذجا تحليليا يمكن انتهاجه في مقاربة الأنساق السيميائية الأخرى. وهو ما بدأ يتحقق في أفكار يمسليف التي أنتجتها نظريته الغلوسيماتيكية.

العلامة اللسانية ومفهوم الاعتباطية

يرى تودوروف أن مفهوم العلامة هو أساس كل علم يدرس اللغة، لكنه من بين المفاهيم التي يعسر تعريفها نتيجة أهميتها بالدرجة الأولى. و ما يزيد في صعوبة تعريفه أن كثير من النظريات تجاوزت الوحدات اللسانية إلى العلامات الأخرى غير الصوتية. ولذلك نجده حريصا في تعريفه للدليل بوصفه كائنا؛ 1) يمكن معاينته فيصبح محسوسا (من خلال النطق به)، و2) يسجل لدى مجموعة معينة من مستعمليه في حد ذاته غيابا. أما القسم المعاين من العلامة فهو ما يدعى بالدال، وأما الغائب منه فهو المدلول، وأما العلاقة التي يقيمانها فيما بينهما فتسمى بالدلالة[21].

(19) A.-M. Paveau et G.-E. Sarfati, Les grandes théories de la linguistique, Paris, A. Colin, 2003, p.64.

(20) O. Ducrot et J.-M. Schaeffer, Nouveau Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p.257.

(21) O. Ducrot et T. Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1972, pp. 131-132.

والعلامة اللسانية يتكون هو الآخر من دال ومدلول، أما الدال فهو، كما عرفه دو سوسير، الصورة السمعية للدال، وهي ليست الصوت ذاته فهو شيء مادي، ولكنها الأثر النفسي لهذا الصوت أو التمثيل الذي تصوره لنا الحواس عنه، إنها صورة حسية[22]. وتكمن الميزة الأساسية التي يتصف بها اتحاد الدال بالمدلول، أي العلامة، في اعتباطية العلاقة التي يقيمانها فيما بينهما، بمعنى أنه يمكنني الاستعاضة عن سلسلة الأصوات أ خـ ت التي أشكل بها دالي للتعبير عن مفهوم «الأخت»، بأي سلسلة أخرى، كما هو الشأن في اختلاف الألسن، فلا علاقة داخلية إذن تربط الدال بالمدلول[23]. ولا تعني الاعتباطية في عرف دو سوسير البتة أن بمقدور المتكلم التصرف في الدوال كما شاء، لا لشيء إلا لأنها مفروضة عليه من قبل الجماعة التي ينتمي إليها، بل تعني فقط ألا علاقة سببية بين الدال ومدلوله، أي اعتباطي بالنسبة إليه ولا يقيم مع أي علاقة طبيعية كانت.

ويبدو أن الطابع الاعتباطي للدليل اللساني هو الذي يميزه عن باقي أنواع الدوال، واللسان بوصفه نتاجا لملكة اللغة، و مجموعة من المواضعات الضرورية التي يتبناه الكيان الاجتماعي كي يمكن أفراده من ممارسة هذه الملكة، عن بقية الأنساق السيميولوجية (أو السيميائية) الأخرى، الكتابة وألفباء الصم-البكم، الطقوس الرمزية، مختلف صور الآداب، الإشارات الحربية. وإذ ذاك فإن من بين المهام المنوطة بالسيميولوجية ما يخصص لتصنيف مختلف الأنساق الدلالية حسب درجات اعتباطيتها. وهو ما يدعوه دو سوسير بالاعتباطية الخالصة و الاعتباطية النسبية.

ويقترب من هذا التصنيف ما وضعه بورس من خلال تمييزه بين الإشارات «Indices» (التي يكون فيها الدال و المدلول في حالة اقتران «Contiguïté»؛ الدخان إشارة على اشتعال نار) الأيقونات«icônes» (في حالة تشابه بين الدال والمدلول؛ الخريطة الجغرافية تعد أيقونة للبلد

(22) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p.98.

(23) Idem, p.100.

الذي يتمثله) والرموز (ويكون الدال في حالة اعتباطية خالصة مع المدلول، لكنها اعتباطية منظمة تنظيما رسميا «institutionnalisée»؛ إشارة المرور الحمراء تعني منع المرور). ويعني هذا أن العلامة اللسانية تعد رمزا في عرف بورس.

سيميائيات ترجمة النص القرآني

لمصطلح السيميائيات «sémiotique»، من منظور مدرسة باريس(24)، استعمالات ثلاث، فهو يستعمل للدلالة على كل مجموعة دالة «ensemble signifiant» يفترض أنه يمتلك، دونما أي تحليل سابق، تنظيما وتمفصلا «articulation» داخليا مستقلا، يمكناه من أن يتجزأ إلى وحدات «unités» منفصلة، ويتألف منها. ويستعمل مصطلح السيميائيات كذلك للدلالة على النسق الدال الذي اتخذه التحليل السيميائي موضوعا له، وهو لا يُذكر عادة في هذا المقام إلا وقد اقترن بنظرية سيميائية تحدد معالمه وتبين مفاصله، وهو في هذه الحالة عبارة عن تدرج «hiérarchie» (أي شبكة من علاقات مراتبها متدرجة)، ويختلف مفهوم التدرج هذا، الذي يقصد منه التنظيم الصوري القائم على الاستلزام «présupposition» المنطقي، عن دلالته على علاقة العلية/السفلية (أو علاقة المهيمِن/المهيمَن عليه) التي هي موضوع أكسيولوجي.

ولهذا التدرج كيفيتين لوجوده «mode d'existence»، فهو يوجد بكيفية استبدالية «paradigmatique» وأخرى ترابطية «syntagmatique»، (أي يمكن النظر إليه باعتباره نسقا «système» أو «procès» سيميائيين). كما لمراتب التدرج هذا على الأقل مستويين للتمفصل، مستوى التعبير «expression» ومستوى المحتوى «contenu»، يكوِنان إذا ما اجتمعا ما يعرف بالسيميوزيس

(24) A. J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, pp. 339-341.

.«sémiosis» وقبل أن نتعرف على الاستعمال الثالث لمصطلح السيميائيات، وهو الذي يُعنى به النظرية السيميائية، نتوقف عند مفهوم النسق الدال في ارتباطه بالنص القرآني، فإذا ما رمنا أن نقارب النص القرآني مقاربة سيميائية فهذا يعني أننا نفترض أنه نسق دال، ويُفترض - عملا بمبدأ المحايثة «immanence» - أنه نص مغلق، مكتمل، مكتف بذاته.

انغلاق النص القرآني

تعد مسألة انغلاق «clôture» النص من بين أهم المفاهيم الإجرائية التي ترتبط مباشرة بمفهوم النسق الدال، وقاعدة من قواعد مقاربته مقاربة محايثة. وهي ليست - من وجهة نظر السيميائيات(25) - مسألة خاصة بالنصوص المقدسة، بل إنها ظاهرة مميزة لكل نص، وفي كل مرحلة من مراحل إنتاجه، فإذا كنا نعني بالانغلاق كل وقف «arrêt»، أو كل فاصلة «rupture» في التدفق النصي، سواء أكانا في نهاية جملة، أو فقرة أو مقطوعة أكبر، فإننا نلاحظ أن مباشرة القراءة ينتج في كل مرة عنها بزوغ دلالات محلية جزئية. واستئناف المسار الخطابي وظيفته، عكس ذلك، منع تشتت المعنى والحفاظ على خطية الدلالة. وما يصح للفواصل الجزئية يصح أيضا لانغلاق مجموع النص.

وينطبق مفهوم الانغلاق على النص القرآني جملة، ومعلوم أن القرآن لغة من قرأ يقرأ قراءة وقرآنا، وبهذا الاعتبار يكون لفظ القرآن، عندما يراد به ما بين دفتي المصحف، موازنا لمصطلحي القراءة والتلاوة عندما يراد بهما محتوى مقروء الكتاب الذي يقرأ فيه الأطفال القراءة(26). وقد أشار الجاحظ إلى مفهوم الانغلاق، فمما نقله عنه السيوطي(27) في الإتقان قوله: سمى الله كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم على الجملة [أي

(25) A. J. Grimas, «La traduction de la Bible: un problème sémiotique», p.6.

(26) محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006، ص150.

(27) الحافظ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت المكتبة العصرية، 2003، الجزء الأول، ص143.

الكلية] والتفصيل: سمى الله جملته قرآنا كما سموا (مجموعة من قصائد الشعر) ديوانا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية (كالبيت من الشعر)، وآخرها فاصلة (كقافية). وبهذا المعنى يكون القرآن نصا مغلقا بالنظر إلى جملته، لكن مفهوم الانغلاق لا ينحصر في كلية النسق السيميائي المراد تحليله، بل يصدق أيضا على أجزائه، فالقارئ للقرآن عندما يقرأ ولو سورة واحدة أو حتى آية واحدة لغرض التعبد والتدبر، إنما يحدد انغلاقا خاصا للنص القرآني.

وإذا ما نظرنا إلى التعريف الاصطلاحي الذي خص بها علماء القرآن السورة والآية بقولهم إن السورة والآية من القرآن كلاهما طائفة مستقلة ذات مطلع ومقطع، وأن الثانية مندرجة في الأولى، جاز لنا أن نعد المطلع والمقطع محددان من المحددات النصية لمفهوم الانغلاق، أي أن لهما بداية ونهاية، لكن مفهوم انغلاق النص القرآني، انطلاق من المفهوم السيميائي للانغلاق، لا يتحدد بهذين المحددين فقط، بل إن انغلاق النص يرتبط أيضا بالوقف ارتباطا وثيقا، إذ عادة ما لا يتم الانغلاق، نتيجة تدفق مسار القراءة، دائما عند نهاية الآية على حسب ما حدده علماء القرآن من أنواع الوقف، ولعل في قول ابن الأنباري[28]: "ومن تمام معرفة إعراب القرآن ومعانيه وغريبه معرفة الوقف والابتداء فيه، فينبغي للقارئ أن يعرف الوقف التام والوقف الكافي الذي ليس بتام والوقف القبيح الذي ليس بتام ولا كاف"، ما يدل دلالة كافية على ارتباط المعنى بتمفصلات النص القرآني.

وقد أبان ابن الجزري[29] عن هذه المسألة من جهة ارتباط القراءة بالمعنى وتمفصلاته إذ يقول أن الكلام إما أن يتم أولا، فإن تم، فلا يخلو إما أن لا يكون له تعلق بما بعده لا لفظا ولا معنى أو يكون له تعلق،

(28) بن أبي بكر ابن الأنباري، كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزل وجل، تح. محي الدين عبد الرحمن رمضان، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربي بدمشق، 1971، ص108 .

(29) شهاب الدين ابن الجزري، شرح طيبة النشر في القراءات العشر، ضبطه وعلق عليه الشيخ أنس مهرة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 2000، ص40.

والأول الوقف المصطلح عليه بالتام فيوقف عليه ولا يبتدئ بما بعده، وإن كان له تعلق، فلا يخلو إما أن يكون تعلقه من جهة المعنى أو من جهة اللفظ؛ فالأول الوقف المصطلح عليه بالكافي، وهو كالتام في جواز الوقف عليه والابتداء بما بعده، وإن كان متعلقا من جهة اللفظ فهو الوقف المصطلح عليه بالحسن، فيجوز الوقف عليه لتمامه ولا يجوز الابتداء بما بعده لتعلقه بما قبله لفظا ومعنى، إلا أن يكون رأس آية فإنه يجوز في اختيار الأكثر لمجيئه عن النبي صلى الله عليه وسلم كما سنذكره. وبقي القسم الثاني من التقسيم الأول وهو أن لا يتم الكلام عليه وهو الوقف القبيح في مصطلحهم. هذا تمام قول ابن الجزري، ونعود فنقول أن مسألة انغلاق النص القرآني ترتبط بمحددات نصية وهي السورة والآية، وبمحددات معنوية وهي أنواع الوقوف والابتداء. ولا يمنع تعدد المحددات بأن تشترك معا في تحديد انغلاق ما للنص القرآني، لما ذكره الجزري[30] من أن الوقف التام أكثر ما يجيء في رؤوس الآي وانقضاء القصص.

إن المعرفة بانغلاق النص القرآني، بتحديد طبيعة الوقف فيه، من بين الآليات السيميائية التي من شأنها أن تسهم في التعرف على دلالاته وتمكين ترجمتها، وهاهو ابن الأنباري يصف علاقة الوقف بالمعنى في مطلع سورة البقرة بقوله[31]: (ذلك الكتاب لا ريب فيه) في (ذلك) خمسة أوجه: إحداهن أن ترفعه ب (الم)، والمعنى هذه الكلمات يا محمد، ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أوحيه إليك. فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على (الم) لأنها مرفوعة ب(ذلك)، و(ذلك) مرفوع بها، والرافع مضطر إلى المرفوع. والوجه الثاني أن ترفع (ذلك) ب (هدى) و(هدى) به، فعلى هذا المذهب يحسن الوقف على (الم) لأنها غير متعلقة بما بعدها. والوجه الثالث أن ترفع (ذلك) بما عاد من الهاء المتصلة ب (في). والوجه الرابع أن ترفع بموضع (لا ريب فيه) كأنك قلت: ذلك الكتاب حق هدى. والوجه

(30) المرجع السابق، ص40.

(31) بن أبي بكر ابن الأنباري، كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزل وجل، ص484-485.

الخامس أن ترفع (ذلك) ب (الكتاب) و(الكتاب) به. فعلى هؤلاء الأربعة المذاهب يحسن الوقف على (الم) لأنها مستغنية عما بعدها.

مفهوم التعلق

إن ثمة محدد آخر نضيفه إلى محددات الانغلاق، ويتعلق الأمر بمفهوم التعلق، وهو مفهوم تركيبي، أشرنا إليه في الفصل السابق، وعني بتحديده عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، ويمسليف .«L. Hjelmslev»» إن النظرية التي تسعى إلى تحليل الوقائع اللسانية يجب أن تنتهي - في نظر يمسليف[32] - إلى التعريف بالعلاقات التي تنعقد بين الوحدات، عوض الاكتفاء بتقسيم هذه الوقائع إلى أجزاء وهذه الأخيرة إلى أجزاء أخرى، وهلم جرا. وفيما استقرت هذه العلاقات في ثلاثة أنواع هي: التعالق «interdépendance» بين وحدتين بحيث تستلزم كل واحدة منهما الأخرى، والتعريف «détermination» بحيث تفترض إحداهما الأخرى فقط والتجمع «constellation» بحيث لا يفترض إحداهما أو كلتاهما الأخرى[33]، كان يمسليف[34] قبل هذا قد ميز بين علاقات استلزام «relations de présupposition» وأخرى دون استلزام «sans présupposition»؛ فعلاقة الاستلزام بين الوحدتين هي التي يستلزم وجود إحداهما في سلسلة الكلام وجود الأخرى، أما العلاقة دون استلزام، فهي التي لا يستلزم وجود إحداهما في سلسلة الكلام وجود الأخرى. وتنقسم علاقات الاستلزام إلى علاقات استلزام متبادلة «réciproques» عندما تكون كلا الوحدتين مشروطة إحداهما بالأخرى، وعلاقات استلزام أحادية الجانب «unilatérales» عندما لا تكون إلا إحدى الوحدتين مشروطة بالأخرى، ومن أمثلة علاقات الاستلزام المتبادلة التي تشترك فيها جميع الألسن، توفر كل منها على مستويين يستلزم كلاهما الواحد منهما الآخر، وهما مستويي التعبير

---

(32) L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, p.36.

(33) Idem, p؟¡.

(34) L. Hjelmslev, Le langage, p.131.

«expression» والمحتوى «contenu»، دون أن يفترض ذلك وجود علاقة استلزام متبادل بين كل عنصر من عناصر التعبير وعنصر آخر من عناصر المحتوى.

أما عبد القاهر الجرجاني فقد أشار إلى طرائق تعلق الكلم العربية بعضها ببعض بقوله[35]: الكلم ثلاث اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما.

تعلق الاسم بالاسم

فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرا عنه، أو حالا منه، أو تابعا له صفة أو تأكيدا، أو عطف بيان، أو بدلا، أو عطفا بحرف، أو بأن يكون الأول مضافا إلى الثاني، أو بأن يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل، ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول. وذلك في اسم الفاعل كقولنا: "زيد ضارب أبوه عمرا"، وكقوله تعالى: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[36]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[37]. واسم المفعول كقولنا: "زيد مضروب غلمانه"، وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، والصفة المشبهة كقولنا: "زيد حسن وجهه، وكريم أصله، وشديد ساعده"، والمصدر كقولنا: "عجبت من ضرب زيد عمرا"، وكقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا﴾[38]، أو بأن يكون تمييزا قد جلاه منتصبا عن تمام الاسم، ومعنى "تمام الاسم" أن يكون فيه ما يمنع من الإضافة، وذلك بأن يكون فيه نون تثنية، كقولنا: "قفيزان برا"، أو نون جمع كقولنا: "عشرون درهما"، أو تنوين كقولنا: "راقود خلاً" و"ما في السماء قدر

(35) عبد القهار الجرجاني، دلائل الإعجاز، (المدخل في دلائل الإعجاز)، تع. محمود محمد شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، دون تاريخ، ص4 وما بعدها

(36) سورة النساء، الآية 75.

(37) سورة الأنبياء، الآيتين 2 و3.

(38) سورة البلد، الآيتين 14 و15.

راحة سحابا"، أو تقدير تنوين كقولنا: "خمسة عشر رجلا"، أو يكون قد أضيف إلى شيء فلا يمكن إضافته مرة أخرى كقولنا: "لي ملؤه عسلا، وكقوله تعالى: "ملء الأرض ذهبا"..

تعلق الاسم بالفعل

وأما تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلا له أو مفعولا فيكون مصدرا قد انتصب به كقولك ضربت ضربا ويقال له المفعول المطلق أو مفعولا له كقولك ضربت زيدا أو ظرفا مفعولا فيه زمانا أو مكانا كقولك خرجت يوم الجمعة ووقفت أمامك أو مفعولا معه كقولنا جاء البرد والطيالسة ولو تركت الناقة وفصيلها لرضعها أو مفعولا له كقولنا جئتك إكراما لك وفعلت ذلك إرادة الخير بك وكقوله تعالى ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله أو بأن يكون منزلا من الفعل منزلة المفعول وذلك في خبر كان وأخواتها والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام مثل طاب زيد نفسا وحسن وجها وكرم أصلا ومثله الاسم المنتصب على الاستثناء كقولك جاءني القوم إلا زيدا لأنه من قبيل ما ينتصب عن تمام الكلام[39].

تعلق الحرف بالاسم والفعل وهو على ثلاثة أضرب

وأما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها أن يتوسط بين الفعل والاسم فيكون ذلك في حروف الجر التي من شأنها أن تعدي الأفعال إلى ما لا تتعدى إليه بأنفسها من الأسماء مثل أنك تقول مررت فلا يصل إلى نحو زيد وعمرو فإذا قلت مررت بزيد أو على زيد وجدته قد وصل بالباء أو على وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى مع في قولنا لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها بمنزلة حرف الجر في التوسط بين الفعل والاسم وإيصاله إليه إلا أن الفرق أنها لا تعمل بنفسها شيئا لكنها تعين الفعل على عمله النصب وكذلك حكم إلا في الاستثناء فإنها عندهم

(39) عبد القهار الجرجاني، دلائل الإعجاز، (المدخل في دلائل الإعجاز)، ص5.

بمنزلة هذه الواو الكائنة بمعنى مع في التوسط وعمل النصب في المستثنى للفعل ولكن بوساطتها وعون منها[40].

والضرب الثاني من تعلق الحرف بما يتعلق به العطف وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الأول كقولنا جاءني زيد وعمرو ورأيت زيدا وعمرا ومررت بزيد وعمرو. والضرب الثالث تعلقه بمجموع الجملة كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه وذلك أن من شأن هذه المعاني أن تتناول ما تتناوله بالتقييد وبعد أن يسند إلى شيء. معنى ذلك أنك إذا قلت ما خرج زيد وما زيد خارج لم يكن النفي الواقع بها متناولا الخروج على الإطلاق بل الخروج واقعا من زيد ومسندا إليه. ولا يغرنك قولنا في نحو لا رجل في الدار أنها لنفي الجنس فإن المعنى في ذلك أنها لنفي الكينونة في الدار عن الجنس ولو كان يتصور تعلق النفي بالاسم المفرد لكان الذي قالوه في كلمة التوحيد من أن التقدير فيها لا إله لنا أو في الوجود إلا الله فضلا من القول وتقديرا لما لا يحتاج إليه وكذلك الحكم أبدا. فإذا قلت هل خرج زيد لم تكن قد استفهمت عن الخروج مطلقا ولكن عنه واقعا من زيد وإذا قلت إن يأتني زيد أكرمه لم تكن جعلت الإتيان شرطا بل الإتيان من زيد وكذا لم تجعل الإكرام على الإطلاق جزاء للإتيان بل الإكرام واقعا منك كيف وذلك يؤدي إلى أشنع ما يكون من المحال وهو أن يكون هاهنا إتيان من غير آت وإكرام من غير مكرم ثم يكون هذا شرطا وذلك جزاء[41].

إن المعرفة بطرائق التعلق تكسب محلل النص ومترجمه معرفة بالمعاني النحوية التي تحققها، فإذا ما فقه كيف يتواشج النحو بالمعنى في اللسانيين، المنقول عنه والمنقول إليه، ضفر بحسن النقل وتحققت له صناعة الترجمة.

---

(40) نفسه، الصفحة نفسها.

(41) المرجع السابق، ص6.

التناص الداخلي للقرآن، أو تفسير القرآن للقرآن

لم تحض مسألة التناص الداخلي «intra-textualité» من اهتمام الباحثين والنقاد بقدر ما حضيت به مسألة التناص[42]، ولعل النزعة نحو المحايثة، وإرجاء العالم الخارجي عن النص هما اللذان أرشدا الباحثين إلى البحث في شبكات ترابط أجزاء النصوص فيما بينها، سواء على المستوى التركيبي أو على المستوى الدلالي. ولا جرم أن التناص الداخلي يتحقق بأساليب شتى من نص إلى آخر ومن جنس أدبي إلى آخر ومن إبداع إلى آخر، وعلى الرغم من قلة اهتمام البحث بدراسته، إلا أن اللذة التي ما ينفك القارئ يجنيها من هذه الميزة ليست أقل شأنا من ميزة التناص، وارتباط النصوص بطرائق شتى لا تكف عن إحالة القارئ من عالم إلى آخر، وتجول به من فضاء إلى آخر. ذلك أن تلمس القارئ، داخل النص ذاته، لما أسماه ركار[43] «F. Ricard» بالمألوف الجديد، يشعره بالتحام أجزائه وتناسقها.

لقد عبر بعض علماء القرآن عن بحوثهم في خاصية التناص الداخلي في القرآن بتفسير القرآن بالقرآن، وقد تحققت هذه الميزة في النص القرآني لغاية البيان، وهي ولا ريب إحدى أساليب بلورة المعنى وإزالة الإبهام عنه، وقد ذكر الشنقيطي[44] في مقدمة أضواء البيان بعضا من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك، منها بيان الإجمال بسبب اشتراك، سواء أكان الاشتراك في اسم أو فعل أو حرف، وبيان الإجمال الواقع بسبب إبهام في اسم جنس جمعا كان أو مفردا، أو اسم جمع أو صلة موصول أو معنى حرف، وبيان الإجمال الواقع بسبب احتمال في مفسر الضمير، وبيان الجواب عن شيء وقع السؤال عنه في موضع آخر.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يكون الظاهر

---

(42) K. Martel, «Les notions d'intertextualité et d'intratextualité dans les théories de la réception», Protée, vol. 33, n 1, 2005, p.93-102.

(43) F. Ricard, «Jacques Poulin: de la douceur de la mort», Liberté, vol. 16, n 54, p.97.

(44) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مكة، دار عالم الفوائد، الطبعة الأول، 1426 هـ.

المتبادر من الآية بحسب الواضع اللغوي غير مراد، بدليل قرآني آخر على أن المراد غيره، وأن يذكر وقوع شيء في محل ثم يذكر في محل آخر كيفية وقوعه، وأن يقع طلب لأمر في موضوع ويبين في موضع آخر المقصود من ذلك الأمر المطلوب، أو أن يُذكر له في موضع آخر سبب أو مفعول، أو ظرف مكان، أو ظرف زمان، أو متعلق.

ومن أنواع البيان أيضا الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن، ولا غرو أن يكون هذا النوع من البيان أحد أهم تجليات التناص الداخلي للنص القرآني، لما له - في نظرنا - من صلة وثيقة بترجمة معاني القرآن، فهاهنا يجد المترجم، في مرحلة التكفل بالنص المترجم التي أشرنا إليها في المبحث السابق، أهم آليات تحليله. ومن مثال ذلك قول الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[45]: فقد قال بعض العلماء إن المراد بهذه الغلبة، الغلبة بالحجة والبيان، والغالب في القرآن هو استعمال الغلبة في الغلبة بالسيف والسنان، وذلك دليل واضح على دخول تلك الغلبة في الآية؛ لأن خير ما يبين به القرآن القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾[46] وقوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾[47]، وقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[48]، وقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾[49]، وقوله: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَۗ﴾[50]، إلى غير ذلك من الآيات.

(45) سورة المجادلة، الآية 21.
(46) سورة آل عمران، الآية 12.
(47) سورة النساء، الآية 74.
(48) سورة الأنفال، الآية 65.
(49) سورة الأنفال، الآية 66.
(50) سورة الروم، الآيات 1-4.

وبيان الغلبة بهذا المعنى يفيد المترجم في إيراد اللفظ المناسب له من اللسان المنقول إليه، وقد استطاع بلاشير[51] «R. Blachère» التعبير عن هذا المعنى إذ ساق الفعل «vaincre» للدلالة عليه، وقد قابل الفعل بالفعل خلافا لكزمرسكي[52] «Kasimirski» الذي لم يوفق في التعبير عن دلالة اللفظ دلالة صحيحة إذ نقل الآية الكريمة على النحو الآتي:

«Dieu a dit: Je donnerai la victoire à mes envoyés. Dieu est fort et puissant».

إن للتناص الداخلي للنص - كما هو بارز في هذا المثال - دور بارز في تقديم المقابل الأقرب والمكافئ الصائب الدال على المعنى المقصود من اللفظ، ولا ندعي أننا استوفينا أنواع تحقق هذه الخاصية حقها من البيان، وهو لعمري بحث يتطلب سنوات من الجهد، والتأمل، والاستقصاء.

إشكالية الفعل التفسيري للنص القرآني

يرتبط الفعل الترجمي للنص القرآني لا محالة بالفعل التفسيري الذي ألمحنا إليه آنفا، وإذا كان نجاح الفعل الترجمي مرهون بمدى قوة الفعل التفسيري فإن هذا الأخير مرهون بمدى تمكنه من استنطاق النص استنطاقا يفي بمعانيه ويستقصيها استقصاءا معمقا. وقد صدق ابن قتيبة[53] حين أقر باستحالة ترجمة الآية الكريمة ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[54]، فأنت إن أردت أن تنقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه، فإن قلت: أنمناهم سنين عددا، لكنت مترجما للمعنى دون اللفظ، وقريبة من هذا إشارة إيكو للعلاقات الخفية التي تنعقد بين مستويات التعبير ومستويات المحتوى، التي ألمحنا إليها في المبحث الثاني من الفصل الأول، وفيما يلي بسط لما أوجزنا آنفا.

---

(51) R. Blachère, Le Coran, p.585.

(52) Kasimirski, Le Coran, préface de M. Arkoun, Paris, Garnier-Flammarion, 1970, p.428.

(53) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص20.

(54) سورة الكهف، الآية 11.

يشتمل الملفوظ الذي بين أيدينا ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، فيما حكاه صاحب البحر المحيط[55] وصاحب الدر المصون[56] وغيرهما، على استعارة بديعة، وحذف؛ أما الاستعارة البديعة فهي للإنامة المستثقلة التي لا يكاد يُسمع معها، وعبر بالضرب ليدل على قوة المباشرة واللصوق واللزوم منه، وأما الحذف فهو لمفعول الضرب، وتقديره الحجاب من أن يسمع. وللمعنى الذي تنشئه الاستعارة «métaphore» - في رأي السيميائيين - آثار يحدثها الثراء والسمك الدلاليين اللذين يميزانه عن المعنى الصريح المباشر، وقد رأى بعضهم[57] في الفعل الاستعاري «métaphorisation» إحلال محل أحد السيمات «sèmes»، على المستوى الاستبدالي «paradigmatique» سيما آخر من شأنه أن يحدث إيزوتوبيات جديدة.

ولما كانت الاستعارة - لدى بعض علماء القرآن[58] - تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الجلي، لأنك إذا سميت المرجوح الخفي باسم الراجح الجلي فقد جعلت ما للراجح الجلي للمرجوح الخفي، فهذا يعني أنها، أي الاستعارة تقوم على شبه «ressemblance» بين المرجوح الخفي والراجح الجلي ولهذا الشبه في عرف السيميائيين[59] نمطين في الوجود فقد يكون الشبه ناتجا عن قياس «analogie» أو «homologie»، ففي اللسان لابن منظور: ضرب على يده، كَفَّه عن الشيء[60]، كأن الضرب على الآذان كفُها

---

(55) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تح. عادل أحمد عبد الموجود وغيره، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1993، الجزء السادس، ص99 وما بعدها.

(56) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح. أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، دون تاريخ، الجزء السابع، ص446 وما بعدها.

(57) A. J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Paris, Hachette, 1979, p.277.

(58) ابن أبي أصبح المصري، بديع القرآن، تح. حنفي محمد شرف، مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر، دون تاريخ، ص19.

(59) H. Constantin de Chany et S. Rémi-Giraud, «Espèces d'espaces, approche linguistique et sémiotique de la métaphore», Mots. Les langages du politique, nº 68, mars 2002, pp. 75-104.

(60) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العربي، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، 2004،

عن السمع. ولا شك في أن الاستعارة الملحوظة في الآية الكريمة تستمد وجودها من انزياح «écart» فعل الضرب عن متعلقاته المعهودة.

وإن من بين القضايا التي تثيرها السيميائيات في حديثها عن الترجمة الطابع التصويري «figuratif» للنص المترجم، وما ينجم عنه من تعدد للأيزوتوبيات «isotopies»، فإذا ما سلمنا - يقول غريماس(61) - بأن دلالة النص تظل ثابتة في المستوى العميق للمقروئية «lisibilité» فإن التنوعات التي تبرز على مستوى السطح «surface figurative» تعد عقبات أمام المترجم. وإذا كانت وظيفة الشرح تتمثل في إبراز الإيزوتوبيات المتعددة المحتملة، فإن تقطيع النص وتسمية «titulature» المقطوعات تسهم على العكس من ذلك في إحداث مقيدات «restrictions»، وإجراء اختيارات بين مختلف إمكانات التأويل.

النص المترجم والثقافة المستقبلة

إن المثال الذي سقناه للوقوف على إشكالية ترجمة القرآن، والمتمثل في الاستعارة التي تحتويها الآية الكريمة ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ لخير دليل على التحديات التي ما ينفك المترجم يواجهها، وإنها لتغدو أكثر وقعا لو نظرنا إلى مسألة الترجمة من منظور الثقافة المستقبِلة للنص المترجم، ذلك أن النص الجديد سيكون لا محالة - في رأي غريماس(62) - حاملا لمنظومة جديدة من القيم يتكفل بنشرها، ويسهم في بلورة أسيكولوجيات «axiologies» جديدة، أو إعادة تنظيم أنساق قديمة من القيم، إذ تنعقد بين النص المُستقبَل والثقافة المُستقبِلة علاقة يمكن وصفها بالعلاقة الجدلية «dialectique»، لأن النص، حتى يتم استقباله، يجب أن تعرف به الثقافة ويعرف بها - هو بدوره - على إثر ذلك.

صحيح أن المعنى، أو المحتوى، هو الغاية من الترجمة، لكن خروج

(61) A. J. Grimas, «La traduction de la Bible: un problème sémiotique», p.8.

(62) A. J. Grimas, «La traduction de la Bible: un problème sémiotique», p.8.

الصورة، أو الهيئة، أو الشكل التي تشكل فيه المعنى، عما هو مألوف في الثقافة المستقبلة هو الذي يطرح إشكالية النظر إلى الترجمة من منظور الثقافة المستقبلة لها، أي انطلاقا من نقطة مآلها وليس من نقطة منشأها. وقد تسهم وجهة النظر هذه - أيضا - في التعرف على موقف المترجم من قضية اللفظ والمعنى؛ فبلاشير(63) «R. Blachère» إنما يعمد في ترجمته:

«Nous fîmes le silence à leurs oreilles, dans la caverne, pendant nombre d'années»

إلى المعنى محاولا الانتصار له باستحداث ملفوظ جديد «faire le silence aux oreilles»، وهو تعبير لم تعهده أدبيات اللسان الفرنسي، وإنما قد تجد ما هو قريب منه من مثل «faire le silence dans sa tête»، وهي دلالة على التخلص من العالم الخارجي والتحلل من قيوده السيكولوجية والوجودية، إلا أنه يختلف عنه من حيث إنه ينتج قيمة روحية جديدة تتمثل في اكتساب حالة السكون «silence» من فاعل خارجي ليس للإرادة الشخصية فيه إسهام. أما كزمرسكي(64) «Kasimirski» فالظاهر أنه حاول الانتصار إلى اللفظ، فترجمته الحرفية:

«Nous avons frappé leurs oreilles de surdité dans la caverne pendant un certain nombre d'années»

خلافا - لترجمة بلاشير - لا تنتج قيمة جديدة إذ إن الملفوظ «être frappé de surdité» ملفوظ متداول قريب من الملفوظ العلمي «être atteint de surdité».

لكننا لا نكاد نلمس توفيقا في إيراد كلية المعنى «totalité du sens» في كلتا الترجمتين، ليس من منظور شكل التعبير «forme de l'expression» فقط بل من منظور شكل المحتوى «forme du contenu» كذلك. إن الإنامة، وهي الغاية من الضرب على الآذان، هو المعنى الذي اتفق جل مفسري القرآن

(63) R. Blachère, Le Coran (al-Qur'ân), Paris, G.P. Maisonneuve et Larose, 1966, p.585.

(64) Kasimirski, Le Coran, préface de M. Arkoun, Paris, Garnier-Flammarion, 1970, p.428.

على استخلاصه من الملفوظ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، قال الزمخشري(65): أي ضربنا عليها حجابا من أن تسمع، يعني أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات. وقال أبو حيان الأندلسي(66): استعارة بديعة للإنامة المستثقلة، وقال السمين الحلبي(67): قوله ﴿فَضَرَبْنَا﴾ مفعوله محذوف أي ضربنا الحجاب المانع و﴿عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ استعارة للزوم النوم، وأجمل الشوكاني(68) أقوال المفسرين فقال: قال المفسرون: أنمناهم. والمعنى: سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، والمفعول محذوف، أي ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها. فإن نحن نظرنا في الترجمتين، لألفيناهما غير موفقتين في تحصيل معنى الإنامة، ويكتفيان بتعطيل حاسة السمع، بإطباق السكون على الآذان تارة «faire le silence aux oreilles»، أو إلحاق الصم بها تارة أخرى.

ولا شك في أن الترجمة فضلا عن كونها ناقلة للمعاني، ناقلة أيضا للقيم التي تجسدها الممارسات الاجتماعية، فقيمة الصوم، الدينية والروحية، وهو إمساك عن أشياء مخصوصة، في وقت مخصوص، يبينها الفقه(69)، المتحققة في الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، يختلف تلقيها «réception» من مجتمع حديث إلى آخر، ويرتبط بانتمائه الديني، وفي هذا الشأن يرى غريماس(70) أن الصيام، الذي لا يمكن فهمه خارج سياق الثقافة الدينية التي تعتبره تعبيرا لتمظهر المقدس، قد يصبح إما مفردة قديمة «terme archaïque»، كما يقول المعجميون، أو

---

(65) الزمخشري، أبو القاسم جار الله، تفسير الكشاف، تح. محمد عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، 2002، المجلد الثاني، ص678.

(66) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، الجزء السادس، ص99.

(67) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح. أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، دون تاريخ، الجزء السابع، ص464 وما بعدها.

(68) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تح. عبد الرحمن عميرة، الجزء الثالث، ص378.

(69) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، الجزء الثاني، ص30.

(70) A. J. Grimas, «La traduction de la Bible: un problème sémiotique», p.9.

ممارسة دخيلة «exotique»، والتي على الرغم من الاحترام الذي يكن لها، تبقى ممارسة تنتمي إلى ثقافة أجنبية.

ففي هذه المواقف تصبح الترجمة مجازفة كبرى، ذلك أن الثقافات، فضلا عما ذكرناه عنها، تستقل كل واحدة منها بفضائها التصويري «univers figuratif»، فإن أضحى من المألوف أن الألسن الطبيعية أهم اللغات «langages» التي تتجلى من خلالها الثقافات إذ تضطلع بدور هام في تصنيف «catégorisation» العالم، أي في تقسيمه - بوصفه معطًا خارجيا عن الإنسان -إلى صور «figures»، فإن عالم المعاني المشتركة «sens commun» الذي يتبلور في شكل سيميائيات طبيعية يغدو خاضعا لمتغيرات ثقافية، وخصوصية كل ثقافة في تشكيل خطاباتها التصويرية، ومن هذا المنظور، تصبح ترجمة الخطاب التصويري «figuratif» بحثا عن شبه تطابق بين جزئية تصويريين «figuratifs» ينتمي كل واحد منها إلى فضاء مغاير.

الفصل السادس

مستويات استحالة ترجمة النص القرآني

لا يختلف النص القرآني، في مسألة استحالة ترجمته، عن باقي النصوص الأخرى إذ كثير منها لا يمكن الولوج إلى عوالمها الخفية دون تلمس ذلك في ألسنها الأصلية التي صيغت بها، لا لشيء إلا لتلازم الدال والمدلول، واختلاف طرائق التأليف من لسان إلى آخر، فإذا كانا في الاستحالة سواء فإنهما بطبيعة هذه الاستحالة مختلفان، فهي، أي الاستحالة، تتعدى خصوصيات اللسان العربي واختلاف طرائق العربية وسننها عن باقي سنن الألسن الأخرى ومجاري الكلام فيها، ذلك أنها وجه من وجوه الإعجاز، التي لا يمكن حصرها ولا استقصاءها. وهي، أي ترجمة القرآن، والإتيان بمثله بلسان عربي شبيهان في الاستحالة، فهما يجسدان معا حقيقة اختلاف النص الإلهي عن النصوص البشرية، يقول ابن عقيلة: «اعلم -أيدنا الله وإياك- أن الله تبارك وتعالى تجلى بصفة الكلام الذاتي على قلب سيدنا محمد ﷺ، وأنه أنزل عليه القرآن، فاستغرق في حال الخطاب، وذهبت بشريته، وتلاشت جسمانيته، وانتعشت صفات روحانيته، فسمع الخطاب الإلهي والحديث الرباني بلفظه ومعانيه وحقيقته ومبانيه، فلما رجع إلى عالم البشرية، وعاد إلى مدارك الكون، نطق بما ألقي إليه، وتكلم بما أنزل إليه، فجاء كلامه بخلعة القدسي الرحماني، وخطابه بلسان الوصف السبحاني، فلهذا يفنى الدهر وحلاوته باقية، وتذهب العصور وطلاوته دائمة تزداد فصاحة كلما تكرر، وتجدد بلاغته كلما تقرر، تخشع الأجسام لهيبته، وتخضع النفوس لجلالته، وتركع العقول لبهائه، وتجسد الأفكار لعلائه، وتسرح الأرواح في رياض جلاله، وتمر الأسرار في ميادين جماله، كيف لا، وهو في حضرة الفيض والنور، ومن مقام القدس

والسرور، فلن يستطيع متكلم أن يلبس كلامه القدسي، ومن أين الناطق أن يكسو نطقه البهاء والثناء، فلما ألبسه الحق جل شأنه من الجلالة والهيبة والعلو والرفعة والكمال ترى له صولة ودولة في المنطق أي دولة، كلما قرئ استفيد منه المعاني النفيسة، كلما تلي استخرجت منه الدقائق الرسيسة، يغوص المتفكر فيه فيستخرج درر الكلم ويلج المتأمل فيه إلى بحار القدم ويدخل الناظر فيه إلى مدائن المعاني، ويعبر المتفكر فيه إلى قصور المباني فياض بالحقائق، زخار بالرقائق، متلاطم بأمواج اللاهوت، متراكم بهوامع الجبروت، نفاح بعطر الحضرات العلية، نتاح بأقفال المقامات البهية، مهيم لأرباب الذوق، مغلق لأرباب الشوق، لا يكل السمع منه، ولا يمل ولا يحزن، ولا يقلق، ولا يعطش، ولا يدهش، وكلما تلى اتسع الفكر، وانبسط السر، وانكشف الغطاء، وارتفعت الروح إلى عالم الصفا، واتصلت بعالم الاجتباء، وشربت من كؤوس التجلي الذاتي، وارتدت من بحار الكلام الصفاتي، وسكرت بالرحيق السبوحي وطربت بالهدام القدوسي»[1]، فإذا كان هذا شأن النص القرآني الذي لم يرق إليه، بلسان عربي، أي نص، فكيف بنص من لسان أجنبي لم يُوفق في نقل كثير من معاني الشعر والخطابة العربيين؟

لقد تحدث علماء القرآن في وجوه إعجاز النص القرآني، فظهر لبعضهم أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص، ونقل السيوطي قول الأصبهاني ما نصه: «بيان كون النظم معجزا يتوقف على بيان نظم الكلام، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه، فنقول: مراتب الكلام خمس: الأولى: ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض، لتحصل الكلمات الثلاث: الاسم والفعل والحروف. والثانية: تأليف هذه الكلمات لتحصيل الجمل المفيدة، وهو النوع الذي يتداوله الناس جميعا في مخاطباتهم، وقضاء حوائجهم، ويقال له المنثور من الكلام. والثالثة: ضم بعض ذلك إلى بعض ضما له مبادئ ومقاطع، ومداخل ومخارج، ويقال له المنظوم.

---

(1) ابن عقيلة المكي، الزيادة والإحسان في علوم القرآن، الشارقة، جامعة الشارقة، ط1، 2006، الجزء السادس، ص378-379.

والرابعة: أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع، ويقال له المسجع. والخامسة: أن يجعل له مع ذلك وزن، ويقال له الشعر والمنظوم، إما محاورة ويقال له المخاطبة، وإما مكاتبة فيقال له الرسالة، فأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسام، ولكل من ذلك نظم مخصوص، والقرآن جامع لمحاسن الجميع، على نظم غير نظم شيء منها؛ يدل على ذلك أنه لا يصح أن يقال له، رسالة، أو خطابة، أو شعر، أو سجع، كما يصح أن يقال: هو (كلام)»[2].

إن لإعجاز النص القرآني إذن مستويات لسانية، فهو معجز على المستوى الصوتي، ومعجز على المستوى المفرداتي، ومعجز على المستوى التركيبي (المقطعي والآيي)، ومعجز على المستوى النصي، ومعجز على المستوى السُوَرِي، وماانفك الباحثون في القرآن وعلومه يؤكدون على خصوصية النص القرآني مقارنة بالنصوص العربية الأخرى، وليس إعجازه ينحصر في النظم وحسب بل إن إعجازه يتجاوز إلى وجوه أخرى، وفي هذا الشأن نلفي الفيروزأبادي[3] يشير إلى إجماع العلماء على أن إعجازه من جميع الوجوه، نظما، ومعنى، ولفظا، ومجملها: إيجاز اللفظ، وتشبيه الشيء بالشيء، واستعارة المعاني البديعة، وتلاؤم الحروف، والكلمات، والفواصل، والمقاطع في الآيات، وتجانس الصيغ، والألفاظ، وتعريف القصص، والأحوال، وتضمين الحكم، والأسرار، والمبالغة في الأمر، والنهي، وحسن بيان المقاصد، والأغراض، وتمهيد المصالح، والأسباب، والإخبار عما كان وعما يكون.

ولعلماء القرآن في ذلك أقوال وآراء تقول بتحريم الفعل الترجمي بمعناه الحرفي، لكن الذي يعنينا في هذا المقام المسوغات التي عادة ما يسوقها هؤلاء لتبرير دعواهم، فهذا ابن قتيبة -مثلا -بعدما ذكر ما للعرب

---

(2) جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح. أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1988، المجلد الأول، ص6.

(3) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح. محمد علي النجار، بيروت، المكتبة العلمية، دون تاريخ، ص68.

من مجازات في الكلام، قرر استحالة ترجمة القرآن لأنه نزل بها، إذ يقول: «وللعرب المجازات في الكلام، ومعناه: طرق القول ومآخذه. ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص. وبكل هذه المذاهب نزل القرآن؛ ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور، وسائر كتب الله تعالى بالعربية، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب»[4].

لكن القائل قد يقول: لقد اشتملت الألسن الأخرى على هذه الضروب فهي تعرف الاستعارة «métaphore»، والتقديم والتأخير «antéposition et postposition»، والحذف «élision»، وغيرها من أساليب البلاغة الأخرى، وتستعمل كذلك مخاطبة الواحد بالجمع، والجمع بالواحد، ونحن لا نحسب أن الفيروزأبادي إنما قصد اشتمال النص القرآن على هذه الأنواع دون غيره من النصوص الأخرى، العربية منها أو الأعجمية؛ فالإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتجانس، وغيرها من الأغراض البلاغية إرث إنساني مشترك، إنما الاختلاف الناشئ عن الإعجاز يأتي من طبيعة هذه المذاهب لا من الحكم عليها كمذاهب، ففي الكلام البشري من الاستعارات اليومية التي لا ينفك الفرد يقيم بها معاملاته، ويستعملها للدلالة على أغراضه التي تحول بعض الأعراف دون التصريح بها، لكنها لا ترقى إلى ما لاستعارات القرآن من بديع وعلو.

الاستحالة الصوتية

إن الأصوات هي المادة «matière» التي تتشكل منها الألسن، وهي كذلك المادة التي تُلُقِيَ بها النص القرآني، ولو نظرنا إلى القرآن من حيث

(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص20 وما بعدها.

كونه نسقا سيميائيا، وأجرينا عليه بعض آراء يمسليف «L. Hjelmslev» التي أخذت بها كثير من مدارس السيميائيات الحديثة، من مثل السيميائيات السردية وغيرها، ونقصد بذلك على وجه التحديد التمييز بين التعبير والمحتوى، اللذين يتجزأ كلاهما إلى شكل «forme» وجوهر «substance»، لألفينا أن الشكل الذي تتمفصل به مادة النص القرآني الصوتية يسهم في إبراز المعنى إسهاما لا يستطيع إبرازه إلا من أوتي من التدبر بنصيب. ونحن لا نقصد بذلك كثيرا من المسائل الصوتية المرتبطة بتأدية المعنى تأدية صحيحة من قبيل النبر أو التنغيم أو غيرها مما له صلة بالأداء الصوتي(5)، إنما نقصد إلى مقاربة هذا المنحى مقاربة سيميائية تتعدى المستوى اللساني.

ليست الألسن البشرية الأنساق السيميائية الوحيدة التي تتخذ من الأصوات مادة لها تجزؤها بكيفية مخصوصة لتؤلف منها دوالا «signifiants» معلومة، بل إن من الموضوعات السيميائية ما مادته أصوات، كالموسيقى ومنظومات التواصل الصوتية الجوية والبحرية، غير إن الاختلاف بين هذه وتلك يكمن في طريقة التأليف بين هذه الأصوات، دون أن يكون بين هذه الأصوات المكونة للدوال والمدلولات التي تكون معها العلامات علاقة مبررة، بل هي كما - هو معهود - نتيجة اتفاق بين أفراد المجوعات اللسانية لا غير.

إن لصوت السين في سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ إيحاءات دلالية تتصل بالمعنى العام للسورة ومقصدها اتصالا عجيبا، وقد أحسن كمال بشر(6) في وصف كيفية التلفظ به؛ فالسين يُنطق بأن يعتمد طرف اللسان خلف الأسنان العليا،

---

(5) ينظر في هذا الشأن:

- عبد الله محمد الجيوسي، التعبير القرآني والدلالة النفسية، دمشق، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، الطبعة الثانية، 2007، ص149 وما بعدها.

(6) كمال بشر، علم الأصوات، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص301.

مع التقاء مقدمته باللثة العليا مع وجود منفذ ضيق للهواء فيحدث الاحتكاك. ويرفع أقصى الحنك حتى يمنع مرور الهواء من الأنف، ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به. فالسين صوت لثوي احتكاكي مهموس. ومن خصائصه أيضا أنه صوت أسناني، صفيري، مهموس ومرقق[7]. ومن صفاته التي أحصاها له سيبويه[8] أنه صوت مهموس رخو وهو من الأصوات التي هي أندى إلى السمع، أي أنه فيها ميزة الصفير[9]. هذا ما هو عليه إذن صوت السين من خصائص، فإذا ما تأملنا هذه الخصائص على ضوء ما أفاده المفسرون من دلالات وما استقَوْه من معان من هذه السورة الكريمة لبدا لنا كيف يسهم هذا الصوت في إضافة دلالات ومعان يُعجز عن نقلها إلى لسان غير اللسان العربي الذي أنزلت به، فقد ذكر البقاعي[10] أن الناس مشتق من الإنس، فإن أصله أناس، وهو أيضا اضطراب الباطن، المشير إليه الاشتقاق من النوس، فطابق حينئذ الاسم المسمى.

وأشار البقاعي في نظم الدرر[11] إلى ما لتكرير صوت السين في لفظتي الوسواس ويوسوس من دلالة؛ فالوسوسة الكلام الخفي، وإلقاء المعاني إلى القلب في خفاء وتكرير، كما أن الكلمة دالة عليه، وس مكررة وأصلها صوت الحلي، وحديث النفس، وهمس الكلاب، ضوعف لفظه مناسبة لمعناه لأن الموسوس يكرر ما ينفثه في القلب ويؤكده في خفاء ليقبل. إن تكرير صوت السين، وخصائصه التي أشرنا إليه من همس، ورخاوة وترقيق، وتواردها في جميع آيات السورة، يسهم كله في خلق قيمة دلالية

---

(7) حسن ظاظا، كلام العرب. من قضايا اللغة العربية، بيروت، دار النهضة العربية، 1976، ص17.

(8) سيبويه، الكتاب، تح. عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، 1988، الجزء الثاني، ص420.

(9) عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، 1987، ص209.

(10) برهان الدين البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تح. عبد السميع محمد أحمد حسنين، الرياض، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، 1987، الجزء الثالث، ص310.

(11) برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح. مجموعة من الأساتذة، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1984، الجزء الثاني والعشرون، ص430.

تنضاف إلى دلالات السورة اللفظية، لما لها من أثر في نفس المتلقي.

لقد تنبه بعض السيميائيين المحدثين الذين عنوا بإشكالية استحالة الترجمة، في مقابل ذلك، إلى تعذر نقل مثل هذه الخصائص الصوتية من لسان إلى آخر، فقد أدرك إيكو(12)، صعوبة المسعى في كثير من خصائص الشعر وموسيقاه. وإن نحن نظرنا إلى ترجمة بلاشير(13) للسورة الكريمة، وفي أي ترجمة من لسان آخر، لألفيناها تخلو تماما من هذا التجانس بين تكرير صوت السين والمعنى الإجمالي للسورة وتلاحمهما،

Dis : «Je me réfugie auprès du Seigneur des Hommes, du Souverain des Hommes, du Dieu des Hommes, contre le mal du Tentateur furtif qui souffle [la tentation] dans les poitrines des Hommes, [tentateur] issu des Djinns et des Hommes.»

فقد أضحى صوت الميم «m» هو الأكثر حضورا في الترجمة، وهو من أصوات اللسان الفرنسي الأنفية المجهورة(14)، ولا يمكن له أن يفي بغرض السورة ومقصدها.

ولو أحصينا الأصوات التي تألفت بها مفردات السورة لوجدنا صوت السين هو الأكثر تواردا فيها على نحو ما يبرزه البيان التالي:

قُ / لْ لِ لَ لْ لْ لّ لْ / أَ إِ / عُو / ذُ / بِ بِّ / رَ رِّ رِ / نَّا نَّا نَّا نْ نَّا نَّا نَ نَّ نَّا / سِ سِ سِ سْ سِ سْ سُ سِ سِ / مَ م مِ / كِ / هِ / شَ / وَ وَا وَ وِ وَ / خَ / ذِي / يُ / فِي / صُ / دُو / جِ / ةِ /

إن عدد تواردات «occurrences» صوت السين، وصورة انتشارها، في المادة الصوتية التي تؤلف نص السورة ليسا الخاصيتين الوحيدتين لحضوره فيها، بل إن توارده يتدرج في العدد فضلا عن ذلك، فهو في الآيات الثلاث

(12) U. Eco, Dire presque la même chose, *Expériences de traduction*, tr. M. Bouzaher, Paris, Grasset, 2006pp. 63-64.

(13) R. Blachère, Le Coran, (*al-Qur'ân*), Paris, G.P. Maisonneuve et Larose, 1966, pp. 672-673.

(14) aise, Paris, Hachette,5la linguistique fran ب J.-L. Chiss et *al*., Introduction 2001, T 1, p.86.

الأولى س واحدة في كليهن، لتتكرر ثلاث مرات في كل آية من الآيات الثلاث الأخيرة، كأنه يأتي من بعيد، أو قل من عميق، فيملئ الآذان ويشغل البال، وهي -بالنظر إلى ما اشتملت عليه السورة من أقسام الاستعاذة، وهي الأمر بالاستعاذة، والمستعاذ به ثم المستعاذ منه - تزداد حدة عند ذكر المستعاذ منه فيناسب انتشار صوت السين وتوارده معنى السورة وأقسامها مناسبة شريفة، مُعجزة، لا طائل البتة لأي ترجمة في الإتيان بمثلها.

الاستحالة المفرداتية

للمفردات التي يتألف منها النص القرآني بلاغة لا يمكن نقلها إلى لسان آخر، لا من حيث دلالاتها التي تؤديها وحسب بل من حيث وقوعها في المكان اللائق بها أيضا، ذلك لتناسبه والمعنى الذي يؤديه الملفوظ القرآني الذي وردت فيه. ولعل مسألة المتشابه التي عد الزركشي[15] 'استبدال كلمة بأخرى في آيتين متماثلتين' نوعا من أنواعه أقرب هذه المسائل إلى هذا النمط من الإعجاز، وضرب لذلك أمثلة عديدة، لكننا نقتصر على مثال واحد نستقي منه ما نروم بيانه بخصوص الترجمة. يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[16]، وقال أيضا: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[17]، فاستعمل السياق القرآني في الآية الأولى لفظ ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ وفي الأخرى استخدم لفظ ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾. وفيهما يقول أبو

(15) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، 2005، الجزء الأول، ص101-102.

(16) سورة البقرة، الآية 60.

(17) سورة الأعراف، الآية 160.

حفص الدمشقي: «﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ كقوله ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ إعرابا وتقديرا ومعنى»[18]، لكن الراغب يميز بين اللفظتين لا من حيث دلالتهما فقط بل من حيث إسهامهما في إيراد المعنى الإجمالي، حين يقول: «يقال بجس الماء وانبجس: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ولذلك قال عز وجل ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًاۖ﴾، وقال في موضع آخر ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًاۖ﴾، فاستعمل حيث ضاق المخرج اللفظان، يعني فرق بينهما بالعموم والخصوص، فكل انبجاس انفجار من غير عكس»[19].

وإذا نظرنا في ترجمة بلاشير[20] للقرآن الكريم لوجدناها تأتي بالفعل «jaillir» مقابلا واحدا للفظتين، فتمحو الفارق الدلالي الذي بينهما، ويتبادر إلى قارئها بأن الآيتين مكررتين، بيد إنهما تدلان على مقامين مختلفين، ولا نعني بذلك سياق الحال، فقد يؤدي ذلك إلى توهم التناقض بين الآيتين، إنما الفارق نابع من اختلاف السياقين النصيين اللذين سيقت فيهما كل آية، وهو ما نحسب عبر عنه أبو جعفر بن الزبير إذ يقول: «إن الواقع في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام السقيا، والوارد في البقرة طلب موسى عليه السلام من ربه، فطلبهم ابتداء فأشبه الابتداء، وطلب موسى غاية لطلبهم لأنه واقع بعده ومرتب عليه، فأشبه الابتداء الابتداء والغاية الغاية، فقيل جوابا لطلبهم فانبجست، وقيل إجابة لطلبه: فانفجرت، وتناسب على ذلك. وقال: الانبجاس: ابتداء الانفجار، والانفجار بعده غاية له»[21].

(18) أبو حفص الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب، تح. عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998، الجزء التاسع، ص351.

(19) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تح. صفوان عدنان داوودي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثالثة، 2002، ص108.

(20) R. Blachère, Le Coran, p.36 et p.195.

(21) أبو جعفر بن الزبير، ملاك التأويل، القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تح. سعيد الفلاح، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 2007، ص212-213.

ونحن لا نزعم أننا نأتي بجديد في باب من أبواب الإعجاز القرآني، قد عني علماء القرآن - قديمهم وحديثهم - بكثير من أنواعه وتفرعاته، وإن كان الذي جئنا على ذكره بخصوص اللفظتين ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ و﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ يدرج في باب الترادف في القرآن، فإن للمستوى المفرداتي في القرآن الكريم أكثر من هذا الملمح، وقضاياها لا تزال تستعصي على الباحثين. ومن هذا القبيل ما ذكره الزركشي[22] بشأن الألفاظ التي يُظن بها الترادف وليست منه، ولهذا وزعت بحسب المقامات فلا يقوم مرادفها فيما استعمل في مقام الآخر، فإن التركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد. ومن ذلك جاء وأتى، إذ تستعمل جاء في الماضي في الجواهر والأعيان، وتستعمل أتى في المعاني والأزمان، كما في قوله جل وعلى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾[23]، إذ الأجل كالمشاهد، وفي قوله ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[24] حيث لم يكن الحق مرئيا. ومن بين المسائل المفرداتية التي تعرض للمترجم، مسألة العام والخاص في القرآن الكريم، وكيفية التعبير عنها والتعامل معها في الألسن الأخرى، والعام عند ابن عقلية: «لفظ يتناول أفرادا متفقة الحدود على سبيل الشمول. وحكمه - إذا لم يخصص - إيجاب الحكم فيما يتناوله قطعا، وصيغه: (كل) نحو: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾[25]، وتابعه نحو: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾[26]، و(الذي)، و(التي) و(تثنيتهما) و(جمعهما)، نحو: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾[27]. فإن المراد به كل من صدر عنه هذا القول،

(22) الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، الجزء الرابع، ص51 وما بعدها.
(23) النحل، الآية 61.
(24) الحجر، الآية 64.
(25) سورة الرحمن، الآية 26.
(26) سورة الحجر، الآية 35.
(27) سورة الأحقاف، الآية 17-18.

بدليل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾، وإن كان السبب خاصة فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[28].

ويعد خطاب الجمع بالواحد من بين الأساليب التي اعتادت العرب استعمالها في خطاباتها وأشعارها، قال الثعالبي، عن إقامة الواحد مقام الجمع، « هي من سنن العرب، إذ تقول: قررنا به عينا، وفي القرآن ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾[29]. وقال جل ذكره: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾[30]، أي أطفالا، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾[31]، وتقديره: وكم من ملائكة في السموات، وقال عز من قائل: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[32]، وقال: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾[33]، ولم يقل أعدائي، ولا أضيافي. وقال جل جلاله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾[34]، والتفريق لا يكون إلا بين اثنين، والتقدير: لا نفرق بينهم، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[35]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾[36]، وقال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[37]. ومن هذا الباب سنة العرب أن يقولوا للرجل العظيم، والملك الكبير: أنظروا في أمرنا، ولأن السادة والملوك يقولون: نحن فعلنا، وإنا أمرنا، فعلى قضية هذا الابتداء يخاطبون في الجواب، كما قال تعالى عمن حضره الموت: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾[38]»[39].

---

(28) ابن عقيلة، الزيادة والإحسان في علوم القرآن، الجزء الخامس، ص80 وما بعدها.

(29) سورة النساء، الآية 4.

(30) سورة الحج، الآية 5.

(31) سورة النجم، الآية 26.

(32) سورة الشعراء، الآية 77.

(33) سورة الحجر، الآية 68.

(34) سورة البقرة، الآية 163.

(35) سورة الطلاقة، الآية 1.

(36) سورة المائدة، الآية 6.

(37) سورة التحريم، الآية 4.

(38) سورة المؤمنون، الآية 99.

(39) أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية، تح. ياسين الأيوبي، بيروت، المكتبة العصرية، 2004، ص363-364.

الاستحالة التركيبية

يعد التركيب في النص القرآني آية من آيات الإعجاز وكل محاولة لترجمته تبقى أمامها عاجزة، ذلك أن اللسان العربي يتميز بخصائص تختلف عن خصائص الألسن التي ترجم إليها القرآن الكريم، كما إن للتركيب في النص القرآني علاقات بنوية «relations structurales»، تتضافر في إبراز المعنى والمقصد العام الذي ترومه الآية. وفي مثل هذا يقول الأصبهاني في تفسيره: «اعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين: أحدهما إعجاز يتعلق بنفسه. والثاني بصرف الناس عن معارضته؛ فالأول إما أن يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه. أما الإعجاز المتعلق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى، فألفاظه ألفاظهم؛ قال تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: 2]، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ﴾ [الشعراء: 195]. ولا بمعانيه؛ فإن كثيرا منها موجود في الكتب المتقدمة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 196]. وما هو في القرآن من المعارف الإلهية وبيان المبدأ والمعاد، والإخبار بالغيب؛ فإعجازه ليس براجع إلى القرآن من حيث هو قرآن، بل لكونها حاصلة من غير سبق تعليم وتعلم، ولكون الإخبار بالغيب إخبار بالمغيب سواء كان بهذا النظم أو بغيره، موردا باللغة العربية أو بلغة أخرى، بعبارة أو إشارة؛ فإذا فالنظم المخصوص صورة القرآن، واللفظ والمعنى عنصره؛ وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره، كالقرط والخاتم والسوار، فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها، لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة والحديد؛ فإن الخاتم المتخذ من الذهب ومن الفضة ومن الحديد يسمى خاتما، وإن كان العنصر مختلفا. وإن اتخذ خاتم وقرط وسوار من ذهب اختلفت أسماؤها باختلاف صورها وإن كان العنصر واحدا. قال: فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص»[40].

وللنظر في هذه المسألة، يتوجب علينا التذكير بأمرين، أحدهما يرتبط

(40) نقلا عن جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، المجلد الأول، ص5.

بمسألة أجزاء الخطاب «parties du discours»، وثانيهما بالتركيبيات العربية «syntaxe arabe»، فالتركيب إنما يستوي عبر مرحلتين، مرحلة تعلق أجزاء الخطاب لتكوين الجمل، ومرحلة تعلق الجمل لتكوين النص. إن أجزاء الخطاب في اللسان العربي، أي الكلم التي هي الاسم والفعل والحرف، لا تتطابق بأجزاء الخطاب في اللسان الفرنسي التي هي «le nom, (le substantif), l'adjectif, l'article, le pronom, le verbe, l'adverbe, la préposition et la conjonction, auxquels on ajoute parfois l'interjection»، حسب تصنيف مونان[41]، مثلما يبينه الرسم التالي.

هذه بعض الأمثلة التي رمنا بها إبراز موقفنا من ترجمة القرآن الكريم حتى لا يُتوهم من عنوان رسالتنا أننا ننزع إلى إنزال السيميائيات منزلة المنهج الذي يكفل للمترجم القدرة على ترجمة القرآن ترجمة دقيقة تفي بكل مقاصده، ومعانيه، وتجاري تعبيراته وتراكيبه في البيان والجمال والجلال. ويبقى لنا أن نشير كخاتمة لهذا المدخل إلى المغزى من استعمالنا لعبارة 'ترجمة النص القرآني' دون العبارة المشهورة المتداولة في أوساط المشتغلين بهذه المسألة وهي عبارة 'ترجمة القرآن'، وهو اختيار يبرره ما قرره علم الترجمة الحديث وأخذت السيميائيات العمل به في السنوات الأخيرة، ومفاده أن الترجمة، كما أشار إيكو[42] «U. Eco»، ليست عملية تتم بين نسقين لسانيين، إنما تتم بين نصين، وهو ما نبه إليه راستيي[43] «F. Rastier»، بقوله إن مسألة الترجمة تُنشئ مسألة أخرى أكثر عموما هي مسألة العلاقات التي تنعقد بين نص ونص آخر، وليست تلك التي تتأسس بين لسان ولسان آخر.

وحقيقة الأمر أن كل ما أنتجته، وما تنتجه، الممارسات الترجمية إنما هي نصوص من نصوص أخرى عُمد إلى نقل معانيها بحسب خصائص

(41) G. Mounin (Dir.), Dictionnaire de linguistique, Paris, P. U. F., 4e éd., 2004, p.250.

(42) U. Eco, Dire presque la même chose, p.41.

(43) F. Rastier, «La traduction, interprétation et genèse du sens», in Le sens en traduction, Marianne Lederer, Caen, Lettres modernes Minard, 2006, pp. 37-69.

اللسانيين، المنقول عنه والمنقول إليه. ولما كان المعنى هو المراد من الترجمة وموضوعها، وكان النص مادتها، كانت سيميائيات النص، لاشتغالها بمقاربة النصوص على مستوى المحتوى، ونعني بها على وجه التحديد سيميائيات غريماس، إحدى المناهج السيميائية التي من شأنها أن تكون لها إجرائية فعالة فيما نحن فيه ماضون في هذه العمل.

خاتـــمـــة

نود الإقرار، قبل تسجيل بعض النتائج التي خلصنا إليها، أن العمل الذي أقدمنا عليه، فألمحنا إلى بعض معالمه ولمسنا بعض جوانبه لا أكثر، لا يمكنه أن يستوفي أكبر إشكالاته ويستطلع أهم قضاياه ما لم يوفر له الباحث الوقت الكافي لذلك، بل إن قضية واحدة من بين القضايا التي أثرناها خليقة بأن ينساق الكلام عنها وحدها، ويطول التأمل فيها دون غيرها، إلى ما لا يمكن التنبؤ به.

ونود الإقرار أيضا أننا لولا استعانتنا ببعض علوم القرآن ما كنا لنخوض في هذا البحث، فقد أشرنا في كثير من مواضعه إلى إسهام الفعل التفسيري في توجيه الترجمة ونقدها، فهو من الثراء، والتنوع، والغنى مما مكننا من تجاوز جملة من العقبات أهمها عقبة فهم النص القرآني، إذ هو - أي الفهم - المدخل الأول من مداخل الترجمة الصحيحة، وبه يصح تنجيم النص وتفكيكه. ولا نعتقد أننا نخالف الصواب لو أننا جزمنا أن المصدر الأول في تعثر الترجمة هو سوء فهم النص أو قلة الإحاطة بدلالات مفرداته، بينما تعثر ترجمة النص القرآني تكمن في نظرنا في قصور مفردات الألسن الأجنبية وتركيبها في الإلمام بمعان القرآن الكريم، بدليل تعدد مناحي الفعل التفسيري.

إن مقابلة ترجمات القرآن الفرنسية بالنص القرآني الكريم من شأنها أن تبرز جملة من القضايا الجديرة بالبحث والتقصي، وتفتح للباحث آفاق استكشاف تتجاوز أطر اللسانيات التقابلية، والنحو، والبلاغة، وغيرها من

علوم العربية، وعلم الترجمة ونظرياتها، فهي تلزم الباحث في عدد من المواقف باللجوء إلى علم التفسير والتأويل، والنظر في أصولها وقواعدهما، ولسنا نزعم أن المنهج السيميائي الذي أجرينا بعض مفاهيمه الإجرائية على ترجمة النص القرآني كفيل وحده بأن يستكشف هذا النص.

ولذلك نعتقد أن مزاوجة البحوث القرآنية بما توصل إليه البحث المعاصر في مجال اللسانيات والسيميائيات وعلوم النص واللغة عموما قد يتيح للباحث في علم ترجمة القرآن ترتيب جملة من المعارف وتبويبها تبويبا جديدا من شأنه أن ينتج تصورا متجددا عن ترجمة النص العربي إلى اللسان الفرنسي، ويسهم في إثراء علم الترجمة. إن كثيرا من القضايا التركيبية، والدلالية، والتداولية، المرتبطة بالنص القرآني التي تناولتها علوم القرآن بالفحص والتأمل تجد لها ما يماثلها في عدد من النظريات اللسانية والسيميائية الحديثة، ولذلك لا يجوز في مترجم القرآن الإفراط في الاستعانة بعلوم اللغة الغربية الحديثة والمعاصرة والتفريط في علوم النص القرآني كلها.

إن مجال البحث الذي ولجناه ميدان بحث لا يزال يتجدد بتجدد المعارف الترجمية، سواء المعارف العامة النظرية المؤسسة لعلم الترجمة، أو المعارف الخاصة التطبيقية، المكتفية عموما بمدارسة لسانيين بعينهما، وأضحت الترجمة ملتقى علوم متعددة ونظريات مختلفة، تسعى كل منها للإسهام في استكشاف مختلف أبعادها: الذهنية، واللسانية، والمعرفية، والاجتماعية، والتواصلية، والثقافية، والحضارية، وغيرها.

والله نسأل أن يعيننا على المضي في هذا الموضوع وسد ثغراته، هو نعم المولى ونعم النصير.

مكتبة البحث

المراجع العربية

- ابن أبي أصبع المصري، بديع القرآن، تح. حنفي محمد شرف، مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر، دون تاريخ.
- ابن الأنباري، بن أبي بكر، كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزل وجل، تح. محي الدين عبد الرحمن رمضان، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربي بدمشق، 1971.
- ابن الجزري، شهاب الدين، شرح طيبة النشر في القراءات العشر، ضبطه وعلق عليه الشيخ أنس مهرة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 2000.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل، الأصول في النحو، تح. عبد الحسين الفتلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1996.
- ابن جني، الخصائص، تح. محمد علي النجار، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2006.
- ابن طالب، مكي، مشكل إعراب القرآن، تح. حاتم صالح الضامن، دمشق، دار البشائر، الطبعة الأولى، 2003.
- ابن عقيلة المكي، الزيادة والإحسان في علوم القرآن، الشارقة، جامعة الشارقة، ط 1، 2006.
- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح. السيد أحمد صقر، القاهرة، مكتبة دار التراث، الطبعة الثانية، 1973.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، 2004.
- ابن هشام، عبد الله جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح. مازن المبارك وآخرون، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1964.

- ابن يعيش، ابن علي، شرح المفصل، تح. الأزهر، مصر، إدارة الطباعة المنيرية، دون تاريخ.
- أبو جعفر بن الزبير، ملاك التأويل، القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تح. سعيد الفلاح، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 2007
- الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح الرضي على الكافية، تح. يوسف حسن عمر، بنغازي، منشورات قان يونس، الطبعة الثانية، 1996
- الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، تح. صفوان عدنان داوودي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثالثة، 2002.
- آل إسماعيل، نبيل ابن محمد إبراهيم، علم القراءات، نشأته - أطواره - أثره في العلوم الشرعية، الرياض، مكتبة التوبة، الطبعة الأولى، 2000
- الأندلسي، أبو حيان، تفسير البحر المحيط، تح. عادل أحمد عبد الموجود وغيره، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1993.
- بارت، رولان، التحليل النصي، تر. عبد الكبير الشرقاوي، الرباط، دار التكوين، 2009.
- بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2003.
- بشر، كمال، علم الأصوات، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
- البقاعي، برهان الدين، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تح. عبد السميع محمد أحمد حسنين، الرياض، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، 1987.
- بن عاشور، الطيب، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984.
- بن كثير، الحافظ، تفسير القرآن العظيم، تح. مصطفى السيد محمد وآخرون، الجيزة، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، 2000.
- التوحيدي، أبو حيان، المبدع في التصريف، تح. عبد الحميد السيد طلب، الكويت، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1982.
- الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وأسرار العربية، تح. ياسين الأيوبي، بيروت، المكتبة العصرية، 2004.
- الثقفي، أحمد بن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن، تح. سعيد بن جمعة الفلاح، تونس، دار بن الجوزي، الطبعة الأولى، 2007.
- الجابري، محمد عابد، مدخل إلى دراسة القرآن، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2006.
- جبل، محمد حسن حسن، دفاع عن القرآن الكريم. أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللغة العربية، مصر، البربري للطباعة الحديثة، الطبعة الثانية، 2000.

- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمد محمود شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، 2000.
- الجيوسي، عبد الله محمد، التعبير القرآني والدلالة النفسية، دمشق، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، الطبعة الثانية، 2007.
- حامد، عبد السلام السيد، الشكل والدلالة، دراسة نحوية للفظ والدلالة، القاهرة، دار غريب للطباعة، والنشر والتوزيع، 2002.
- الحلبي، أحمد بن يوسف السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح. أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، دون تاريخ.
- الحنبلي، أبو حفص، اللباب في علوم القرآن، تح. عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998.
- حوى، سعيد، الأساس في التفسير، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1985.
- خطابي، محمد، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، الدار البيضاء المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2006.
- الدرويش، محي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دمشق، دار ابن كثير، الطبعة السابعة، 1999.
- الدمشقي، أبو حفص، اللباب في علوم الكتاب، تح. عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998.
- الراجحي، عبده، في التطبيق النحوي والصرفي، إسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1992.
- الرازي، محمد فخر الدين، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1981.
- رضوان، طه رضوان طه، تلوين الخطاب في القرآن الكريم، دراسة في علم الأسلوب وتحليل النص، طنطا، دار الصحابة للتراث، الطبعة الأولى، 2008.
- الزجاجي، أبو القاسم بن إسحاق، كتاب حروف المعاني، تح. علي توفيق الحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1986.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية، 2001.
- الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية،
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله، تفسير الكشاف، تح. محمد عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، 2002.
- السجاوندي، أبو عبد الله، علل الوقوف، تح. محمد العيدي، الرياض، مكتبة الرشد، الطبعة الثانية، 2006.

- سعيد، عبد الستار فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية، 1991.
- السهيلي، أبو القاسم، نتائج الفكر في النحو، تح. عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الفكر، دون تاريخ.
- سيبويه، الكتاب، تح. عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، 1988.
- السيوطي، الحافظ جلال الدين، الاقتراح في علم أصول النحو، تع. محمد سليمان ياقوت، الشاطبي، مصر، دار المعرفة الجامعية، 2006.
- السيوطي، الحافظ جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت المكتبة العصرية، 2003.
- السيوطي، جلال الدين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح. أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1988.
- الشاطبي، أبو إسحاق بن موسى، الموافقات، تح. أبو عبيدة بن حسن، السعودية، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1997.
- شاهين، عبد الصبور، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، 1987.
- شرف الدين، محمد عبد السلام، الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة، دراسة تفسيرية، القاهرة، دار مرجان للطباعة، الطبعة الأولى، 1984.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مكة، دار عالم الفوائد، الطبعة الأول، 1426 هـ.
- الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب. مقاربة لغوية تداولية، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2004.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تح. عبد الرحمن بن عميرة، دار الوفاء، 1994.
- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تح. عبد الرحمن عميرة.
- شيخلي، بهجت عبد الواحد، بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، عمان، مكتبة دنديس، الطبعة الأولى، 2001.
- صالح، بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، دار الفكر للنشر والتوزيع، دون تاريخ.
- الطبري، بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح. عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هجر، الطبعة الأولى، 2001.
- ظاظا، حسن، كلام العرب. من قضايا اللغة العربية، بيروت، دار النهضة العربية، 1976.

- عباس، عباس عوض الله، محاضرات في التفسير الموضوعي، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، 2007.
- عبد الرحمن، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2000.
- عبد الغفار، السيد أحمد، التصوير اللغوي عند الأصوليين، إسكندرية، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، 1981.
- عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي. قراءة لسانية جديدة، سوسة، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، 1998.
- عزام، محمد، المنهج الموضوعي في النقد الأدبي، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999.
- العكبري، أبو البقاء، اللباب في علل البناء والإعراب، تح. غازي مختار طليمات، بيروت، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، 1995.
- العيساوي، يوسف بن خلف، علم إعراب القرآن. تأصيل وبيان، الرياض، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2008.
- الفراء، أبو زكريا، معاني القرآن، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1983.
- الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح. محمد علي النجار، بيروت، المكتبة العلمية، دون تاريخ.
- القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، مصر، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1957.
- القرطبي، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تح. عبد الله التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2006.
- الكرماني، محمود بن حمزة، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تح. شمران سركال يونس العجلي، جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، 1983.
- المالقي، أحمد بن عبد النور، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تح. أحمد محمد الخراط، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دون تاريخ.
- المرادي، الحسن بن قاسم، الجني الداني في حروف المعاني، تح. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1992.
- المرادي، المعروف بابن أم قاسم، توضيح المقاصد والمسالك لألفية ابن مالك، شرح وتح. عبد الرحمن علي سليمان، القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 2001.
- مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، الرياض، دار بن الجوزي، 2001.
- مسلم، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دمشق، دار القلم، الطبعة الأولى، 1989.

- مسلم، مصطفى، وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، الشارقة، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، 2010.
- مصطفى، إبراهيم، إحياء النحو، القاهرة، طبع لجنة إحياء التراث، الطبعة الثانية، 1992.
- النحاس، أبو جعفر، إعراب القرآن، تح. زهير غازي زاهد، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الثانية، 1985.
- ياقوت، أحمد سليمان، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، إسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1994.

المراجع الأجنبية

- Adam J.-M., Langue et littérature. Analyses pragmatiques et textuelles, Paris, Hachette, 1991.
- Ascombre J.-C. et Ducrot O., L'argumentation dans la langue, Paris, Margada, 3 éd., 1991.
- Barthes R., S/Z, Paris, Le Seuil, 1070.
- Ben Mahmoud N., Le Coran, revu par A. Harkat.
- Berman, L'épreuve de l'étranger. Culture et traduction dans l'Allemagne romantique, Paris, Gallimard, 1984.
- Bernan, «La traduction et ses discours», Meta, vol. 34, 1989.
- Blachère R., Le Coran (al-Qur'ân), Paris, G.P. Maisonneuve et Larose, 1966.
- Blanchot M., Faux-pas, Paris, N. R. F., 1943.
- Bloomfield L., Introduction to the Study of Language, New York, Holt, 1914.
- Bloomfield, Language, New Work, Holt, 1933, p. 74.
- Brisset, «Les théories de la traduction et le partage des champs discursifs : Fonctionnalisme et caractérisation du littéraire», Néohelicon, XXXI, 2.
- Cary E., La traduction dans le monde moderne, 1956.
- Catford J., A Linguistic Theory of Translation, An Essay in Applied Linguistics, 2 ed., 1967.
- Chabrol C., «De quelques problèmes de grammaire narrative et textuelle» in Sémiotique narrative et textuelle, Paris, Larousse, 1973.
- Chabrol C., Discours du travail social et pragmatique, Paris, éd. P. U. F., 1994, p.
- Chany C. de et Rémi-Giraud S., «Espèces d'espaces, approche linguistique et sémiotique de la métaphore», Mots. Les langages du politique, n 68, mars 2002.
- Charolles C., Les études sur la cohérence, la cohésion et la connexité textuelles depuis la fin des années 1960, in Modèles linguistiques, t. X, f. 2, Université de Lille II, 1988.
- Chiss J.-L. et *al.*, Introduction à la linguistique française, Paris, Hachette, 2001.
- Collot M., «Le thème selon la critique thématique», in Communications, n 47, 1988.

- Cordonnier J. L., Aspects culturels de la traduction : quelques notions clés, Méta, vol. 47, n1, 2002.
- Courtés J., Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Paris, Hachette.
- Courtés J., Analyse sémiotique du discours. De l'énoncé à l'énonciation, paris, Hachette,
- Delisle J., L'analyse de discours comme méthode de traduction, Initiation à la traduction française des textes pragmatiques anglais. Théorie et pratique, Ottawa, Editions de l'Université d'Ottawa, 1980.
- Dubois J. et autres, Dictionnaire de linguistique.
- Ducrot O. et Todorov T., Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1972.
- Eco U., Dire presque la même chose, *Expériences de traduction*, tr. M. Bouzaher, Paris, Grasset, 2006.
- Eco U., Lector in *fabula*, tr. M. Bouzaher, Paris, B. Grasset, 1985.
- Etiemble R., «Antigone et Babel. Peut-on traduire les autres ?», Le monde des livres, 24 nov. 1978.
- Fedorov, Introduction à la théorie de la traduction, 1945.
- Gadamer H., Vérité et méthode, tr. P. Frucho, J. Grondin et G. Merlio, Paris, Seuil, 1976.
- Gallagher J. D., Linguistique contrastive et traductologie in M. Ballard et A. El Kaladi, Traductologie, linguistique et traduction, Artois, Artois Presses Université, 2003.
- Gaonac'h et J.-M. Passerault, Psycholinguistique textuelle. Approche cognitive de la compréhension et la production des textes, Paris, éd. A. Colin, 1996.
- Gauvin G. et Slote D., «Aspects pédagogiques de la traduction littéraire», *Meta*, XXXIII, 2, 1988.
- Gile D., La traduction. Le comprendre, l'apprendre, Paris, P. U. F., 2005.
- Greimas J. et Courtés, J., Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Paris, Hachette, 1979.
- Greimas J., «La traduction de la bible : un problème sémiotique», Sémiotique et Bible, n 32, déc. 1983.
- Greimas J., Maupassant. La sémiotique du texte : exercices pratiques, Paris, Seuil, 1976.
- Greimas J., Sémantique structurale, Paris, P. U. F, 1986, (Larousse, 1966).
- Groupe d'Entrevernes, Analyse sémiotique des textes, Lyon, P. U. L., 4^{e} éd, 1984.
- Gurvitch (sous la dir.), «sociologie en profondeur», in Traité de sociologie, Paris, P. U. F., T1, 1967.
- Hagège C., La grammaire générative, Paris, P. U. F., 1976, pp 97-98.
- Halliday & R. Hasan, Cohesion in English, London, Longman, 1976.
- Hjelmslev L., Prolégomènes à une théorie du langage, Tr par U. Canger et A. Wewer, Paris, Les éditions de Minuit, 1984.
- Israël F., Souvent sens varie. Le traducteur face à «l'instabilité» du sens», in M. Le-

derer (éd.), Le sens en traduction, Caen, Lettres modernes Minard, 2006.
- Jakobson R., «Aspects linguistiques de la traduction», Essais de linguistique générale, tr. N. Ruwet, Paris, Minuit, 1963.
- Jespersen O., Language, its Nature, Development and Origin, London, Allen and Unwin, 1922.
- Kasimirski, Le Coran, préface de M. Arkoun, Paris, Garnier-Flammarion, 1970.
- Klinkenberg J. M., Précis de sémiotique générale, Paris, Seuil, 1996.
- Koustas J., Traduire ou ne pas traduire le théâtre? L'approche sémiotique.
- Kristeva J., Le langage, cet inconnu, Paris, Seuil, Coll. Points, 1981.
- Ladmiral J.-R., «Traduire, c'est-à-dire... Phénoménologies d'un concept pluriel», Meta, vol. 40, n 3, 1995.
- Ladmiral J.-R., Traduire: théorèmes pour la traduction, Paris, Gallimard, 1994.
- Latraverse J., La pragmatique. Histoire et critique, Bruxelles, P. Mardaga, 1987.
- Lyon J., Sémantique linguistique, tr. J. Durand et D. Boulonnais, Paris, Larousse, 1980.
- Lyons, Eléments de sémantique J., tr. J. Durand, Paris, Larousse, 1978.
- Maingueneau D., Eléments de linguistique pour le texte littéraire, Paris, Bordas, 1990.
- Martel K., «Les notions d'intertextualité et d'intratextualité dans les théories de la réception», Protée, vol. 33, n 1, 2005.
- Martinet A., Eléments de linguistique générale, Paris, A. Colin, 1980.
- Meschonnic H., Pour la poétique II, Paris, Gallimard, 1973.
- Moirand S., Une grammaire des textes et des dialogues, Paris, éd. Hachette, 1990.
- Montet E., Le Coran, Paris, Payot, 1958.
- Mounin G., Les problèmes théoriques de la traduction, Paris, Gallimard, 1963, p. 169.
- Mounin G., Linguistique et traduction, Paris, Dessart et Mardaga, 1976.
- Nida A. et Taber C. R., La traduction: théorie et méthode, Londres, Alliance Biblique univ., 1971.
- Oseki-Dépré I., Théories et pratiques de la traduction littéraire, Paris, A. Colin, 1999.
- Paveau A.-M. et Sarfati G.-E., Les grandes théories de la linguistique, Paris, A. Colin, 2003.
- Pergnier M., Les fondements sociolinguistiques de la traduction, Lille, P. U. L., 1993.
- Pergnier M., Traduction et sociolinguistique, Langage, v. 7, n 28, 1972.
- Rastier F., «La traduction, interprétation et genèse du sens», in Le sens en traduction, Marianne Lederer, Caen, Lettres modernes Minard, 2006, pp. 37-69.
- Rastier F., Sens et textualité, Paris, Hachette, 1989.
- Reboul A. et J. Moeschler, La pragmatique aujourd'hui, Paris, Seuil, 1998.

- Redouane J., La traductologie. Science et Philosophie de la Traduction, Alger, O. P. U., 1985.
- Reichler-Béguelin M.-J., Denervaud M. et Jespersen J., Ecrire en français. Cohésion textuelle et apprentissage de l'expression écrite, Parsi, Delachaux & Niestlé, 1990.
- Ricard F., «Jacques Poulin : de la douceur de la mort», Liberté, vol. 16, n 54.
- Robert, Le nouveau Robert, Paris, Dictionnaires Le Robert, 1993, «approcher».
- Robins R. H., Linguistique générale : une introduction.
- Sapir E., Language. Introduction to the Study of Speech, USA, Harcourt Inc., 1921. (Le langage. Introduction à l'étude de la parole, tr. par S. M. Guillemin, Paris, Payot, 2001).
- Saussure F. de, Cours de linguistique générale, éd. T. de Mauro, Paris, éd. Payot et Rivages, 1995.
- Saussure F. de, Ecrits de linguistique générale, éd. S. Bouquet et R. Engler, Paris, éd. Gallimard, 2002.
- Steiner G., «Comment un mythe nous permet de survivre aux questions insolubles», Entretien, Le monde des livres.
- Tarasti E., la musique et les signes. Précis de sémiotique musicale, tr. D. Charles et E. Gorge, Paris, l'Harmattan, 2006.
- Trager, The field of linguistics, S. I. L., Occasional papers, n1, 1949.
- Urban M., Language and Though, 1939.
- Vegliante C., D'écrire la traduction, Paris, Presses de la Sorbonne Nouvelle, 1996.
- Vinay J.-P. et Darbelnet J., Stylistique comparée du français et de l'anglais, Paris, Didier, 1958.